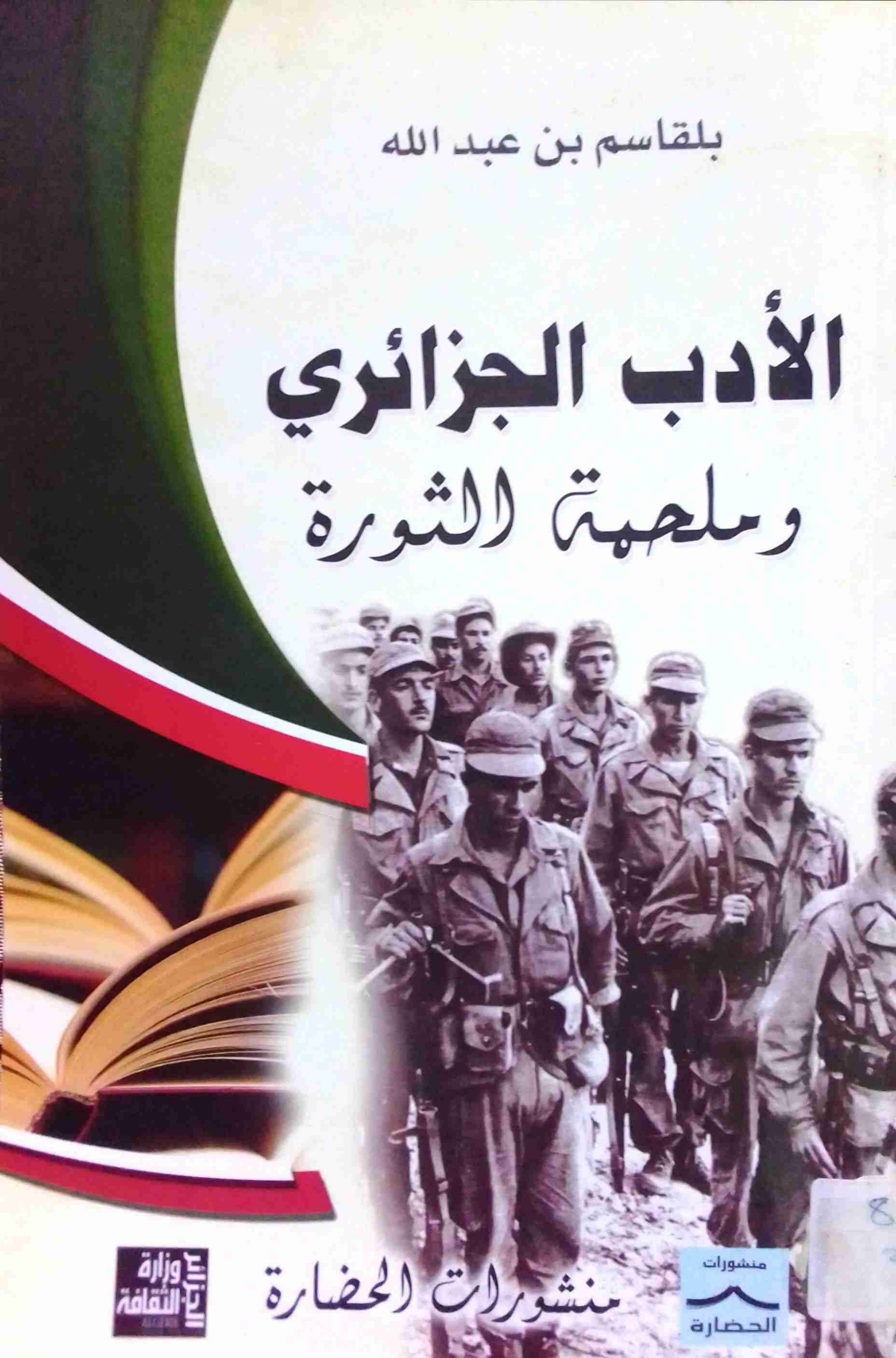


بلقاسم بن عبد الله
الأدب الجزائري
وملحمة الثورة
منشورات الحضارة
منشورات
الحضارة
وزارة
الثقافة

بلقاسم بن عبد الله

الأدب الجزائري

وملحمة الثورة

تصدير:

د. أبو القاسم سعد الله

"صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخمسين لإستقلال الجزائر 2012"

منشورات الحضارة

عنوان الكتاب: الأدب الجزائري وملحمة الثورة.

المؤلف: بلقاسم بن عبد الله

الطبعة الأولى 2001

الطبعة الثانية 2013

الإيداع القانوني: 2705 - 2013

ردمك: 0- 07- 357- 9931- ISBN 978

منشورات الحضارة

ص ب 04 بئر التوتة - الجزائر- 16045

هاتف/فاكس: 46 70 41 (021)

البريد الالكتروني: darelhadhara16@yahoo. fr


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء وشكر

- إلى من قدموا أرواحهم الزكية النقية الطاهرة، قربانا على مذبح الوطن المفدى.. و سقوا تربة هذه الأرض الأبية بالدم والحبر، لتنمو شجرة الحرية الباسقة..

- إلى من سخروا أدبهم وإبداعهم لخدمة قضية الجزائر، وهي تخوض ثورة التحرير المجيدة، فكان منهم المجاهدون النبلاء، وشهداء الحرف والموقف، شهداء القضية والحرية..

- إلى أعلام ورموز وطننا المفدى، فهم على الدوام أبلغ قدوة مثلى لجيلنا الحاضر ولأبناء أحفادنا، بأعمالهم الخالدة..

- إلى الزعيم الرمز: أحمد بن بلة أحد أبطال ثورتنا الجبارة، وأول رئيس لجزائرنا المستقلة، فقد تعلمت الكثير من دروسه البليغة، أثناء حواري معه مباشرة عقب خروجه من السجن في نوفمبر 1980. فهو نموذج حي لمعاني ودلالات التسامح والمحبة والمصالحة الحقيقية في جزائرنا الحبيبة.

- إلى هؤلاء جميعا، أهدي هذه الصفحات المتواضعة، لتضاف إلى صفحاتهم الناصعة، المشرقة والمشرفة.

- .. ومع شكري الخالص لكل من شجعني ودفعني إلى جمع شتات هذه الكتابات المتناثرة، وطبعها ونشرها، بحجة أن ما يكتبه المثقف، هو حق مشاع بينه وبين جمهور القراء.

بلقاسم..

تصدير

بقلم: د. أبو القاسم سعد الله[1]

هذا الكتاب يناقش موقف الأدب، سيما الشعر من الحركة الوطنية ومن الثورة، ومن قضايا الاستقلال. وقد وجدت بعض التساؤلات فيه جوابها، وظل الباقي يبحث عن الباقي، ولكن في توتر وتبرم. وقد كان الموضوع الرئيسي فيه هو علاقة الشعر بالثورة وهي جنين، وهي فتاة، ثم هي تاريخ.

فقد اشتمل الكتاب: الأدب الجزائري، وملحمة الثورة على أكثر من عشرة مواضيع جلها يدور في فلك واحد، وهو عظمة الثورة وضآلة الأدب إزاءها، سيما الأدب المؤرخ، أي: ذلك الذي كتب بعد الاستقلال، وهذا في حد ذاته موقف من الكاتب، أبي القاسم بن عبد الله. ويشمل ذلك أحداثا كبيرة، وأخرى ممهدة للثورة مثل انتفاضة 8 مايو 1945م.

وهو في ذلك لا يعفي صنفا من الأدباء ولا فنا من الأدب فالشعراء والروائيون، سواء كتبوا بالعربية أو بالفرنسية، قد زج بهم جميعا في ذلك الحكم، ومنهم من استشهد، ومن عاش حتى انسحب من الميدان، ومنهم الشباب الذي ظهر في السبعينات، وأصبح يسير على أبواب التسعينات نحو الكهولة.

---

1. الدكتور أبو القاسم سعد الله من أبرز الأدباء والمؤرخين الجزائريين، له أكثر من ثلاثين مؤلفا في الشعر والأدب والتاريخ من أشهرها: ديوان الزمن الأخضر. أفكار جامحة. وتاريخ الجزائر الثقافي في عدة أجزاء.

والأستاذ ابن عبد الله أديب صحفي، أو هو صحفي أديب. عرفناه على صفحات مجلة "الجيش" يتناول الثقافة عموما ويتابع حياة الأدب، ثم برز في ملحق جريدة "الجمهورية" المعروف بالنادي الأدبي، فجعل منه منبرا لقضايا الثقافة في بلاده، وفي الوطن العربي، وظهرت على أعمدته آراء وأفكار قلما ظهرت في غيره، وأصبح مجتلى الأدباء والشعراء، والفنانين في الوقت الذي كادت تغيب فيه المجلات، والملاحق الثقافية. بالإضافة إلى أن للأستاذ ابن عبد الله حصة إذاعية أسبوعية يتناول فيها أيضا مظاهر الثقافة في وطنه الصغير والكبير. وكثيرا ما كان ابن عبد الله يعزف في على وتر يختلف عن الأوتار التي يعزف عليها الصحفيون والأدباء الآخرون، ذلك أن آفة الحياة لثقافية عندنا هو التسطح، ومضغ الكلام.

لم يكن ذلك شأن ابن عبد الله فيما نعلم ذلك، إننا قرأنا له بعض الآراء الجريئة، مثل رأيه في موقف مفدي زكريا من ثورة البناء عندما كان الآخرون صامتين نحوه.

ومن ثمة ظهر الأستاذ ابن عبد الله في هذه الصفحات ناقدا أكثر منه مستعرضا بالأسلوب الصحفي الأدبي، فهو معجب بالأدباء الذين تمثلوا قضية وطنهم منذ العشرينات من القرن الحالي، وعاشوا طموحات الشعب، بقطع النظر عن قيمهم الفنية، وترددت في أشعارهم وأنثارهم كلمات الوطن، والاستقلال والحرية، واستنكروا فظائع الاستعمار والاستغلال والعبودية. ويزداد إعجابه بالذين استشهدوا منهم من أجل القضية المقدسة، ويتكرر ذلك على صفحات كتابه، دون أن يفرق بينهم في لغة الكتابة، ولا في المستوى الفني، ولا في الزمن.

وهو أيضا معجب بالأدب المحارب أكثر من الأدب المؤرخ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يعترف بأن أدب السبعينات مثلا قد التزم بشعارات المرحلة الزراعية، وبقضايا أخرى لم يكن يعيشها أدباء الخمسينات والستينات.

وقد أورد مواقف للشباب حول تأثرهم أو عدم تأثرهم بأدباء بلادهم السابقين، فهناك المصرح بالاستقلالية المطلقة، وهناك المعترف بالجميل، بل لقد جاء برأي مفدي زكريا في الشباب وفي الشعر الحر، مما قد يفهم منه التنفير والتحقير والتعالي.

ويمكن القول بأن أهمية هذا الكتاب تظهر في "تلخيص" ابن عبد الله لما دار من قضايا في الساحة الأدبية الوطنية خلال ربع القرن الماضي، سواء على أعمدة الصحف، أو على منابر النوادي والملتقيات، أو حتى في أرحبة الجامعات ومراكز البحث.

وما تزال معظم هذه القضايا طبعا، بدون حل. فهل الشاعر الحق هو الذي جدد في الشعر ولو ابتعد عن التيار الوطني، أوهو الذي قلد في الشعر ولكنه تمثل التيار الوطني؟ وهل الشاعر الوطني هو الذي اعتنق السياسة، والثورة على الاستعمار، ولو كان بعيدا عن الأخلاق، أو هو الذي اعتنق الإصلاح ودعا إلى النهضة والتزم بالدين والأخلاق؟.

وهل الكاتب الوطني هو من كتب باللغة الوطنية ودافع عنها رغم ضعفها، أو هو الذي كتب عن القضايا الوطنية بلغة المستعمر القوية بحثا عن الشهرة والعالمية؟ ويمكننا أن نستمر في تساؤلات لا نهاية لها، وخصوصا حول قضية الالتزام والإيديولوجية، أوالشعارات والمبادئ، وقضية الشباب والشيوخ، وقضية الفن للفن أوالفن من أجل المجتمع.

لقد حاول الأستاذ ابن عبد الله الإجابة على كل هذه القضايا بأسلوب صحفي فيه الإلحاح والتكرار والوضوح، ولكنه في كثير من الأحيان كان يجيب على ذلك بأسلوب أدبي فيه الرشاقة والبيان والنقد. ومن ثمة تختلف دراسته عن الدراسة الأكاديمية الجافة التي ظهرت منذ عقدين وعالجت جوانب من نفس القضايا تقريبا، وهي أيضا تختلف عن الدراسة التقريرية المنفرة التي رأيناها في بعض إنتاجات دور النشر، والتي ليس فيها من فضل سوى الجمع والتصفيف، فأنت تقرأ ما كتبه

ابن عبد الله بشغف وانتباه، ولو كنت لا تتفق معه في حكمه ومبتغاه، لقد عاصر هو أكثر القضايا التي تناولها ، ومن حقه أن يقول فيها رأيه، ولو كان رأيا لا يرضي كل الأطراف.

الجزائر في 7 سبتمبر 1988

مقدمة الطبعة الأولى

ترى.. إلى أي حد نستطيع العودة إلى النصوص الأدبية عامة، والشعرية خاصة، باعتبارها وثائق تاريخية، نقرأ من خلالها أحداث عصر معين، أو نتابع وقائع زمن محدد؟.. ما حجم ووزن الأمانة والموضوعية في تلك النصوص بالنسبة للأحداث الكبيرة والوقائع الصغيرة؟.. وهل يستطيع الأديب بحق، يكون شاهد عصره؟.. وبالتالي ما موقف المؤرخ منه، وما حدود علاقته به ؟

هذه الأسئلة الجوهرية تطرح نفسها في عز احتفال الجزائر بالعيد الخامس والعشرين لاسترجاع السيادة الوطنية.. و تظل الحاجة ماسة إلى أجوبة مقنعة غير مقنعة، وافية تشفي غليل الباحث المتعطش للمعرفة والحقيقة خاصة في ظل ندرة الكتابات التاريخية من جهة، وبأقلام الجزائريين أنفسهم وغياب كثير من النصوص عن ثورة أول نوفمبر الخالدة، ببطولاتها وملاحمها، بتفاصيلها الكبيرة والصغيرة.

فبعد ربع قرن من الحرية والسيادة، من حق وواجب الأجيال الصاعدة واللاحقة أن تعرف الكثير عن هذا الماضي البطولي القريب منه والبعيد، فهو عنوانها وسبيلها لعبور حاضرها نحو مستقبل تبدعه وتصنعه بالإرادة والتحدي كما كانت سيرة ومسيرة الآباء والأجداد.

إن الدعوة لكتابة تاريخ الثورة التحريرية ينبغي أن تقترن بالأساس مع جمع ونشر ودراسة كل مصادر وآثار هذه الثورة الجبارة، في الآداب والفنون وفي أخاديد الحقول الثقافية عموما.

إن ما ظهر من إنتاجات، وكتابات جزائرية عن هذه الثورة، حتى الآن قليل من كثير بالقياس إلى ما يجب أن يكتب ويظهر.. مما خلف ذلك الفراغ الكبير

في مكتبتنا الجزائرية، خاصة باللغة العربية، وحرم الكثير من الدارسين والمهتمين والقراء عامة من منهل فياض لا ينضب معينه.

من هنا، تسعى هذه الكتابات القليلة التي يجمعها هذا الكتاب إلى سد جزء من فراغ، وإلقاء بصيص من ضوء محاولة جادة لإضافة لبنة - مهما قل حجمها وخف وزنها - في هذا البناء المعماري الذي يبتغي أن يكون، ويظل عاليا شامخا.

وتعود بداية اهتمامي بموضوع "الأدب و الثورة في الجزائر" إلى أواخر الستينات، منذ إشرافي على البرنامج الإذاعي الأسبوعي "دنيا الأدب" الذي انطلق مع مطلع نوفمبر 1969، وتوقف في مارس 1974 ليعود بنفس جديد متجدد مع بداية جانفي 1982، ويطل في مرحلته الثانية منتظما ومستمرا حتى الآن بفضل مساعدة كل من زهير العلاف، وأم سهام بعد ذلك.

فأول التفاتة جادة لهذا الموضوع الحيوي، ظهرت من خلال حصة خاصة كتبتها وأذيعت بمناسبة العيد الثامن للاستقلال في جويلية 1970 ثم نشرت أول دراسة تحت عنوان "الثورة في الشعر الجزائري" بمجلة الجيش عدد نوفمبر 1971 تلتها مقالة أخرى بالعدد الثاني من ملحق "الشعب الثقافي" بتاريخ جويلية 1972 تحت عنوان: "مسيرة الثورة في الشعر الجزائري".. وقبل أن تتوالى كتاباتي حول هذا الموضوع بالذات، وتنشر في السنوات اللاحقة بكل من ملحق "النادي الأدبي" لجريدة الجمهورية، وفي الصفحات الثقافية لكل من اليوميتين "الشعب والنصر" بالإضافة إلى مقالة نشرتها بمجلة "النداء" الأسبوعية اللبنانية بتاريخ 13 سبتمبر 1981 تحت عنوان: "ما كان الأدب الجزائري إلا واقعيا" إلى جانب ما أذيع لي من كتابات عن طريق برنامج "دنيا الأدب" بمناسبات ذكرى اندلاع الثورة، وأعياد الاستقلال.

وظلت تلك الكتابات متناثرة هنا وهناك إلى أن ظهرت الحاجة لجمع شتاتها، وضم أوراقها، بعد إنجاز كتاب عن الشاعر مفدي زكريا، بعنوان: "شاعر مجد

ثورة" صادر من المؤسسة الوطنية للكتاب.

وما بين الإقدام والتردد، تغلبت الرغبة، وانتصرت الإرادة، نتيجة لقناعات معينة:

- ضرورة إبراز مدى التحام الشعراء الجزائريين خاصة بالنضال الوطني والثورة التحريرية.

- رصد أهم الأحداث والوقائع التي صورها هؤلاء الشعراء في نصوص أدبية ذات قيمة تاريخية.

- أهمية توفير تلك الكتابات، رغم تناثرها وتباعد فترات كتابتها بين أيدي المهتمين والقراء بوجه عام.

وتسعى هذه الكتابات مجتمعة إلى أن تنهض ما بداخل القراء من حب البحث والإطلاع والاستفادة من معرفة بعض رموز ومعالم شخصيتنا الثقافية الوطنية، من خلال الاقتراب والتصاق بواقع قريب مشرق، والنهل من منبع فياض هو جزء من تراثنا الأدبي والفكري.

وقد حرصت على مراجعة تلك الكتابات، بالإضافة والحذف والتغيير، في حين أبقيت على بعضها كما كتبت في وقتها، بينما أضفت كتابات لاحقة، حتى تكتمل ملامح الموضوع، وتتضح صوره ومعانيه.

ومع ذلك، أشعر في قرارة نفسي، بأن هذا الجهد المتواضع لم يكتمل على الصورة المنشودة، لعدة أسباب من أبرزها صعوبة الموضوع نفسه وتشعبه، وقلة المصادر والمراجع، وطول الفترة التي يغطيها، حيث تمتد لتشمل مساحة ،ومسافة ربع قرن، منذ نضج الوعي السياسي وانطلاق النضال الوطني في منتصف الثلاثينات، إلى إشراقة شمس الحرية، والاستقلال على ربوع الوطن المفدى في جويلية 1962، مرورا بمسيرة وصيرورة الثورة التحريرية المظفرة. فهي مدة طويلة حافلة بالوقائع والأحداث

التي ستظل مرسومة وموشومة على جبهة التاريخ.

ورغم أن الشعر هو المنتوج الأكثر، والأغزر بالنسبة لأدباء تلك الفترة، فإنه مع ذلك لم يجمع في دواوين متداولة بين الناس سوى ما صدر بعد الاستقلال، مما يدفع الباحث أحيانا إلى التساؤل عن "حقيقة" بعض القصائد المذيلة بتواريخ خالدة من أيام الثورة… فهل قيلت أو كتبت بالفعل في ذلك التاريخ وبالمناسبة نفسها ؟

وثمة صعوبة أخرى تواجه الباحث في هذا الموضوع، مرجعها استحالة جمع كل ما نشر من شعر، والإلمام بجميع القصائد التي قيلت أو كتبت قبيل وأثناء الثورة من طرف كل الشعراء الجزائريين، سواء الذين كتبوا أو أبدعوا بالعربية الفصحى، أوبالشعر الملحون، أو باللغة الفرنسية، ذلك أن معظم آثار هؤلاء وأولئك لم تجمع بعد. وإن نشر أغلبها وقتئذ في الصحف والمجلات، كما أن جل إنتاجات الشعراء الجزائريين المبدعين باللغة الفرنسية، لا تزال تنتظر من يتولى مهمة إعادتها إلى اللغة الأم، وتوفيرها بين أيدي جميع قراء لغة الضاد.

من هنا، آثرت من خلال هذه الكتابات أن أتناول جانبا واحدا من هذا الموضوع الواسع الشائك هو جانب الشعر الجزائري المكتوب باللغة العربية من خلال مختلف الدواوين التي صدرت، أو القصائد التي ظهرت هنا وهناك، معتمدا على عدد من المراجع والدراسات القيمة لأساتذتي: الدكتور عبد الله ركيبي، والدكتور أبوالقاسم سعد الله، والدكتور صالح خرفي، والدكتور محمد ناصر.

وقد أبرزت في البداية تلك الإرهاصات الثورية المبكرة لدى الشعراء الجزائريين، وهم يصورون ما يعانيه الشعب برمته من ظلم وقهر واستغلال، ويدعوته تلميحا أوتصريحا إلى الصمود، والتحدي بكسر الأغلال، عن طريق النضال، والكفاح، فتتحقق الأمنية مع أول طلقة في فجر نوفمبر 1954، وتشق الثورة المظفرة والملهمة أمام هؤلاء الشعراء تلك الآفاق الرحبة نحو الجودة والروعة.

وخلال رصد وقائع الثورة، لاحظت غياب الشعر في معظم الأحيان عن مسايرة الأحداث الكبرى التي عرفتها الثورة في مسيرتها المظفرة، رغم حرص هؤلاء الشعراء على متابعة خطوات الأبطال في السهول والجبال، وهم يصنعون ويبدعون الملاحم والبطولات. فغالبا ما كانت تمر بعض الأحداث الكبرى والمناسبات التاريخية دون أن ينطق الشعر في وجهها، بقصيد يرتفع إلى مستوى عظمة الحدث.

ومع ذلك، أوضحنا بالنماذج المعبرة مدى احتضان الشعر لملاحم الثورة، من خلال إبراز صور حية من البطولة، والشهامة، والشهادة. وهي صور صنعها وأبدعها الرجال، والنساء، والشيوخ ،والأطفال، فكان منهم الأبطال، والشهداء.

وقد حرصت على متابعة جميع الإنتاجات ،والنصوص المتوفرة لشعراء تلك الفترة، رغم تفاوتها من حيث درجة الجودة ،والأهمية، على أن أستشهد بالنماذج المجسدة و المعبرة عن الحدث، أو الموقف في سياق الموضوع، بدون تمييز بين هذا الشاعر، أوذاك.

وأعتقد بأن موضوعا حيويا وكبيرا مثل "ملحمة الثور التحريرية" ومسيرة الشعر الجزائري ينبغي أن تتنوع حوله الكتابات، ومن مختلف الزوايا، وبالأقلام الرصينة الغيورة على شخصيتنا الثقافية الوطنية.

لهذا كله تظل أبواب الاجتهاد مفتوحة رغم مرور ربع قرن على استعادتنا للسيادة الوطنية. فالذين أبصروا النور على قناديل "اللهب المقدس" أو شنفت آذانهم أنغام القنابل والرصاص والبارود، هم اليوم في ريعان شبابهم، وفي اكتمال نضجهم ورجولتهم.. ترى، ماذا يعرفون عن هذه الثورة المعجزة؟ عن بطولاتها وأخلاقياتها وآدابها؟... بل ماذا أعددنا لهم حتى يتعرفوا على دور هذه الثورة في خلق إنسان جديد، وبلورة أدب ملتهب، وصياغة ثقافة ثورية متفتحة ومتقدمة؟...

فكل أملي أن أكون قد ساهمت ببصيص من نور لإضاءة جانب من هذا الموضوع الهام من خلال متابعة مسيرة النضال الوطني والثورة التحريرية عبر صفحات الشعر الجزائري في انتظار جهود لاحقة تقدم إضافات ثرية، وجديدة لرصيد ثقافتنا الوطنية.

بلقاسم بن عبد الله

وهران في: 3 جويلية 1988.

مقدمة الطبعة الثانية

..وهل ستتخلى الأقلام الوطنية النزيهة عن صمتها الرهيب، وتعود إلى رشدها لتمارس حقها المشروع من أجل كتابة جدية جديدة لملامح وملاحم الحركة الوطنية والثورة التحريرية؟.. وإلى أي حد يمكن الرجوع إلى نصوصنا الأدبية المكتوبة والمنطوقة لقراءة وقائع وأحداث مرحلة تاريخية هامة؟.. وما حجم ووزن الجهود المبذولة من طرف الدولة بمؤسساتها المختصة، وجمعياتها المعنية في تدعيم وتشجيع الكتابات المرتبطة بتاريخنا الوطني الثوري وبتراثنا الأدبي الثري؟.. ظلت هذه التساؤلات المتتالية تلازمني وتلاحقني وأنا بصدد مراجعة هذا الكتاب لإصدار طبعته الثانية المنقحة بإضافاتها المتميزة.

وتأتي هذه الطبعة الجديدة استجابة لطبيعة المستجدات ولاحتياجات المرحلة، بعد أن نفدت الطبعة الأولى في فترة وجيزة خلال أعوام قليلة، واستأثرت باهتمام الأوساط الإعلامية والثقافية، خاصة وأن الكتاب سبق أن نال جائزة وزارة الثقافة المخصصة لتخليد الذكرى الأربعين لاندلاع ثورة أول نوفمبر المجيدة.

فما بين صدور الطبعة الأولى في ديسمبر 2001 وظهور هذه الطبعة الثانية، مع إشعاع فعاليات الجزائر عاصمة الثقافة العربية، وقعت أحداث عديدة وأقيمت ملتقيات كثيرة، وجرت مياه غزيرة في النهر الكبير، وتعالت الأصوات الجزائرية المخلصة للتنديد بما يعرف بالقانون الفرنسي الممجد للاستعمار، والمصادق عليه من طرف عدو الأمس في 23 فيفري 2005 وشتان مابين التنديد المعنوي اللفظي والإجراء المادي العملي!

فالواجب الوطني يفرض اليوم علينا جميعا مسؤولية حماية ورعاية تراث وكنوز الجزائر المعاصرة، ولعل الأدب بأشكاله وألوانه في طليعة رصيدنا الحضاري الذي

نعتز به دوما. ذلك أن الدعوة الملحة لكتابة تاريخ الثورة التحريرية - كما أشرت في مقدمة الطبعة الأولى - ينبغي أن تقترن مع جمع، ونشر، ودراسة كل مصادر، وآثار هذه الثورة الجبارة في الآداب ،والفنون وفي أخاديد الحقول الثقافية.

إن ما ظهر من إنتاجات وكتابات جزائرية عن هذه الثورة، حتى الآن قليل من كثير بالقياس إلى ما يجب أن يكتب، ويظهر، مما خلف ذلك الفراغ الكبير في مكتبتنا الجزائرية، وحرم الكثير من الدارسين والمهتمين والقراء عامة من منهل فياض لا ينضب معينه، وتفرض المناسبة اليوم وليس غدا إعادة الإعتبار لأعمال أدباء، وكتاب النضال، والثورة، بجمعها، وطبعها، وتوزيعها، وبتأسيس فروع جامعية لتشجيع الطلبة الباحثين، وإحداث مكتبة وطنية متخصصة تجمع بين أحضانها مختلف أشكال، وألوان وأنواع التعبير الكتابي والشفهي ضمن رصيد ضخم من تراثنا الثقافي بوجه عام.

من هنا حرصت على مراجعة دقيقة للطبعة الأولى من الكتاب مع إضافة الجديد المفيد في هذه الطبعة (الثانية)، وقد أبرزت ذلك تحت محورين أساسيين، الأول يتعلق بأبرز أدباء الثورة. والمحور الثاني تحت عنوان: مصابيح وأنوار، لإلقاء المزيد من الأضواء على الأدب الشعبي النضالي، مع تجديد الدعوة لكتابة نزيهة لتاريخ الثورة المجيدة.

ويظل أملي كبيرا في أن تكون هذه الجهود المتواصلة المبذولة حافزا مشجعا للكتاب، والمهتمين لمتابعة ودراسة مختلف الجوانب الحيوية المرتبطة بتراث ثورتنا المجيدة، وبتبليغ رسالتها الخالدة إلى الأجيال الحاضرة وإلى أبناء الأحفاد.

بلقاسم بن عبد الله

تلمسان في: 11 ديسمبر 2006

الأدب و لواء النضال

- ◊ الفعل.. والبيان
- ◊ الحلم.. والأمل
- ◊ انتفاضة 8 ماي
- ◊ جذور وإرهاصات
- ◊ نوفمبر مطلع الأبيات

الفعل . . والبيان

ستظل ثورة الفاتح نوفمبر 1954 م ببطولاتها وأمجادها ، بشهامتها وإنسانيتها ، أكبر وأروع ملحمة أبدعها وصنعها الإنسان الجزائري بإرادته الفولاذية ، وعزيمته الصلبة. وبتضحياته الجسيمة بالنفس والنفيس. بلغت ذروة البذل والعطاء ، والتضحية والفداء. فحقّ لهذه الثورة أن تعتز بعنوانها كقمّة التحدي ، ومفخرة العرب ، ومعجزة العصر...

فهذه الجبال الشاهقات الشامخات تحكي ، وتلك السهول والتلال والوديان تروي ، كل شجرة مباركة نبتت على أديم هذه الأرض الطيبة المعطاء ، سقيت بدماء مليون ونصف مليون من الشهداء الأبرار. وكل عائلة جزائرية في المدن ، كما في القرى اكتوت بحرّ لهيبها ، فكانت آلاف الأرامل والثكالى والأيتام ، وجموع المعطوبين والمشوهين الذين قدموا أعز ما يملكون ثمنا نفيسا للحرية الغالية التي لاتعترف إلا بالدم الفوار سبيلها للوصول إليها ، و الفوز بإكليلها الذهبي.

عندما يفتخر العلم بأحدث مخترعاته ومكتشفاته العملاقة. فحق للجزائر أن تعتز بثورتها الخالدة التي وقفت صامدة شامخة كالطود الأشم سبع سنوات ونصف في وجه أعتى قوة استعمارية بجيوشها الجرارة ، وبقمعها وبطشها واضطهادها وجبروتها. وخرجت منتصرة مكللة بأوسمة النصر والخلود.

وحين تحتفل الأوطان ، في كل مكان بأيام معدودة ، محدودة من عمرها الزمني ، فالجزائر الأبيّة فخورة بحقب كاملة من حياتها البطولية ، خلدت اسم ثورتها الجبارة المجيدة على جبين الدهر ، ونقشته بحروف من نار ، ونور في سجل التاريخ الذي لا ينسى ولا يمحى.

لقد استطاعت ثورة نوفمبر الرائدة، بعظمتها وجلالها، أن تسمع بيان صوتها المجلجل في الآفاق الرحبة، للإنسانية جمعاء. فيتردد صداها عبر أرجاء الكون الرحيب، فحتى الأطفال الذين لم يولدوا بعد يحفظون عن ظهر قلب سطور هذه الملحمة الخالدة...

وتنبع قوة هذه الثورة أصالة وبسالة هذا الشعب الأبي الذي يعرف كيف يضمد جراحه، ويتحدى همومه ومتاعبه ومصاعبه، يجتاز العراقيل التي ما كانت يوما لتنال من صلابة عزيمته الفولاذية.

جاءت ثورة نوفمبر بعد قرن وربع قرن من ليل استعماري دامس ورهيب سرق فيه المعمر خيرة أراضي الوطنيين. متمتعا بخيراتها الوافرة، وبثمارها اليانعة، مستغلا جهد، وعرق الجماهير الشعبية الكادحة، مسلطا كابوس القمع والإرهاب على المواطنين الأبرياء.

لكن الشعب لم يقف مكتوف الأيدي أمام جبروت الاستعمار والاستغلال فكادت الانتفاضات و الثورات المتتالية، من مقاومة الأمير عبد القادر، إلى ثورات الزعاطشة، والمقراني، والحداد، وبوعمامة، وأولاد سيدي الشيخ... وغيرها من الانتفاضات العارمة التي أذكت الحماس الوطني، وأنضجت الوعي النضالي لدى الجماهير الشعبية التي واصلت عملية التحدي في أوائل هذا القرن، عبر تنظيماتها الوطنية، باختلاف ألوانها ومشاربها وغاياتها.

وقد بلغت هذه الجماهير ذروة التحدي بخروجها إلى الشارع في مظاهرات صاخبة يوم 8 ماي 1945 م مطالبة بالحرية والاستقلال، بعد أن ساهمت بقسط وافر في دحر النازية وتحرير فرنسا نفسها، حيث استبسل آلاف الجزائريين المجندين ضمن القوات الفرنسية في الكفاح المرير ضد النازية الهتليرية. فكان الجزاء أن دبر الاستعمار مجزرة 8 ماي 45 الرهيبة راح ضحيتها 45 ألف من المواطنين الأبرياء، لا لشيء،

إلا لأنهم طالبوا بحقهم المشروع في الحرية والسيادة الوطنية.

وباندلاع شرارة لهيب الثورة في فجر الفاتح من نوفمبر 1954 لاح في الأفق بصيص جديد من النور والأمل، فقد كانت الجماهير تترقب هذه اللحظة الغالية بفارغ صبر، فوجدت فيها ضالتها المنشودة، وحلمها المنتظر، فارتمت بين أحضانه لتتعلم منها الشجاعة والإقدام، والتضحية و الفداء، والكفاح المستميت لنيل الحرية النفيسة.

وكبرت الثورة، وتصلب عودها مع مر الأيام والشهور والأعوام، وامتدت شهامتها وإنسانيتها لتصبح أكبر مثال يحتذي به فهذا الجندي الباسل يفتح صدره عاريا في وجه رصاص المستعمر ليحمي رفاقه وإخوانه من حوله.. وتلك الأسرة تقسم قوت يومها مع أبناء وطنها المجاهدين، وتنزلهم بين أحضانها أعز الضيوف.. وذاك الابن البار الذي يقتل العدو والده الكريم أمام ناظريه في مشهد رهيب تتقطع له الأكباد والأفئدة..

لقد ساهمت الثورة بقسط وافر في خلق إنسان جزائري جديد، ترعرع في حضنها وانصهر في بوتقتها، وتربى بين أحضانها، وتصلبت عضلاته في دروبها الوعرة ومسالكها الشائكة، واتضحت معالم رجولته في جبالها الشامخة، ووهادها الصامدة، فتحول أبناء نوفمبر إلى رجال أشداء قدر لهم أن يرتقعوا إلى مستوى عظمة الحدث، مساهمين بجهدهم الخلاق في صياغة ملحمة ثورة، ومفخرة شعب

وكان للأدب الجزائري موعده المحتوم مع الثورة، فتحت ظلال شجرتها المعطاء، وفوق التربة التي حرثت بحد السلاح وعنف الكفاح، نبت هذا الأدب وأزهر، وازدهر قبل حلول الربيع متبنيا بكل جوارحه وقرائحه قضية الجزائر العادلة بكل مداها وعمقها، وبجميع دلالاتها وأبعادها، فعاش وعايش قسم كبير من هذا الأدب عن كثب تجربة الثورة، محاولا جهده تحسس هموم ومطامح الجماهير الشعبية الكادحة التي أوقدت لهيبها المتأجج الوهاج، ورفعت عاليا مشعلها المنير الوضاء، فتصدى الأدباء باختلاف ألسنتهم ومشاربهم للتعبير عن الثورة، وتصوير

بطولاتها وملامحها، وترصد أحداثها ووقائعها ومواقفها، وتجسيد شهامتها وإنسانيتها بنبرات فنية تتفاوت بين الانفعال والحماس والتفاعل، فعنف الثورة كان أعمق وأجدى من بيان الفن...

فهؤلاء الأدباء أدركوا منذ البداية أن لهم رسالة مقدسة يحملونها بأمانة وإجلال نحو وطنهم الغالي قد لا تقل أهمية وخطورة عن سلاح الجندي الثائر. "فالأديب - كما يقول الزعيم هوشي منه- مقاتل بالكلمات في حرب لتحرير" فكانوا جميعهم مدعوين للإسهام الفعال بوسائلهم الخاصة، بالشعر الملتهب بالكلمة المناضلة في معركة التحرير، واستطاعوا إلى حد بعيد أن يسمعوا الملأ جميعا صوت الجزائر المكافحة، ليتردد صداها في كل فج عميق، مسايرين موكب الثورة الظافرة إلى جانب إخوانهم ورفاقهم الثائرين في الجبال والسهول، في القرى والمدن، ضاربين بذلك أسمى وأروع مثال يحتذي في صلابة موقف الأديب من مجابهة الاستعمار ومناهضة المستعمرين "إن كل قوى الخلق والإبداع لدى كتابنا، وفنانينا - كما يقول محمد ديب- بوقوفها في خدمة إخوانهم المظلومين، تجعل من الثقافة سلاحا حادا من أسلحة المعركة من أجل الحرية". بينما كان يرى كاتب ياسين بأن "على الفن أن يكون قنبلة".. ونفس المعنى يشير إليه مالك حداد في مقدمة ديوانه "الشقاء في خطر" عندما يخاطب صديقه الشاعر "اربط قدميك بتراب الجزائر... التصق به... انتعله... فقدماك، قدما الجندي، قدما الشاعر الجوال. قد وجدتا أخيرا قالبهما... سر... يجب أن تسير... أن تسير... السير هو طريقك في الانتظار، في ارتقاب الأحداث".

وكان من جراء ذلك، أن اضطهد المستعمر الأدباء، محاولا جهده إسكات أصواتهم، فطاردهم أينما حلوا، وارتحلوا، وشردهم و نفاهم، وعذبهم أبشع تعذيب في أعماق السجون، والمعتقلات، فخرج صوتهم من رواء القضبان قوي النبرة، شديد الفعالية، مثلما كان الحال مع مفدي زكريا الملقب بشاعر الثورة الجزائرية الذي

كتب معظم قصائد ديوانه المعروف "اللهب المقدس" في سجن "بربروس" الرهيب وكذلك الشاعر محمد العيد آل خليفة الذي ذاق مرارة السجون. كما يقول مالك حداد في ديوان الشقاء في خطر - وعرف ظلام الأقبية لأنه ارتفع إلى مستوى اللغة الغاضبة.

و أكثر من ذلك، لم يتورع المستعمر عن ملاحقة الأدباء الوطنيين والتنكيل بهم وقتلهم، وما استشهاد كل من: أحمد رضا حوحو، والربيع بوشامة، ومولود فرعون، ومحمد الأمين العمودي، وعبد الكريم العقون... وغيرهم من ذوي الأقلام النيرة على يد الغدر الاستعماري، إلا صورة جلية عن مدى بشاعة الاضطهاد لرافعي شعلة النضال بالحروف النيرة والكلمة الملتهبة.

لذا كان من الضروري أن يكون الأدب الجزائري عامة، والشعر خاصة، مناضلا ومقاتلا في المعركة، أبياته ملتهبة حمراء، حروفه من نار ونور، مضمونه ثوري تحريري في قالب حماسي وانفعالي، غايته تصوير الحياة الثائرة على أرض الجزائر البطلة والإسهام قدر الإمكان في تجييش العواطف وتثبيت العزائم، ورفع المعنويات، واحتضان هموم وصراعات الجماهير وهي تكد وتكدح من أجل بناء الغد المشرق المنير. لقد شقت ثورة نوفمبر الخالدة أمام الأدباء، والشعراء خاصة طريق إثبات الذات فعادوا من جديد إلى واقع وطنهم يغترفون من منبعه الفياض، ويلتمسون من خلاله معالم الشخصية الجزائرية التي حاول الاستعمار جهده أن يطمس ملامحها، ويقوض مقوماتها الراسخة الجذور، الأصيلة أصالة هذا الشعب الأبي.

وهكذا عرف الأدباء طريقهم المرسوم نحو جماهير شعبهم التي ثارت لتستعيد حقها المشروع في الحرية، والكرامة، فوضعوا على عاتقهم مهمة الاضطلاع بمسؤوليتهم التاريخية. فحاولوا جهدهم حمل المشعل، وإنارة قناديل أخرى على درب نوفمبر، ومن خلال معايشتهم لحدث الثورة والتحامهم بجنودها الأبطال أتيح لهؤلاء الأدباء الاستفادة من تجربة إنسانية عميقة وعظيمة، ذلك أن أدب الثورة لا يتوهج

إلا في قلب الثورة نفسها، حيث يعانق المقاتل وجدان الأديب أو الفنان، وهو يساهم عن كثب في معركة التحرير دفاعا عن الوطن والحرية.

ولا عجب أن نجد أدباء الثورة منصرفين عن كلمات: الحبيبة، الزهرة، القمر، الريم، والغزال، والوجد، الغرام، والبعد، الفراق... ليستبدلوا مكانها مفردات جديدة تستقي دلالتها من قاموس الثورة: الكفاح، الجهاد، الثورة، السلاح، البندقية، الرصاص، المدفع، الدم، النار، الحديد، التعذيب، التنكيل، القتل، والاستشهاد، نوفمبر، الجبال، الو هاد، السجون والمعتقلات... وغيرها من الكلمات والعبارات التي تتردد كثيرا على ألسنة الثوار، وتجد لها مداها في إبداعات الأدباء.

لقد فرضت الثورة على الأدباء السير في مسالكها الوعرة، والالتصاق بتربتها الخصبة، واحتضان بطولات الثوار، والتعبير عن هموم ومطامح الجماهير التي ثارت ضد الاستعمار ولظلم والتخلف والاستغلال من أجل حقها الكريم في الحرية والسيادة، وفي التغني بكلمات الحب والفرح الإنساني مثل كل البشر.

ومن هناء حاول الأدباء جهدهم أن يكونوا صوت الثورة، ولسان حال مفجريها وفاعليها ودعاتها في الداخل و الخارج، فاستقبلوا أحداثها وبطولاتها - أحيانا - بنوع من الانبهار والاندهاش. فقد كان فعل عنف الثورة أقوى وأبلغ من بلاغة الكلمات، لذا جاء هذا الأدب لحظات انفعال أمام حدث عظيم " وان كان له فضل الريادة في ترصد مسيرة الثورة والإشادة ببطولات رجالها، فحاول أن يلهب الحماس في نفوس الجماهير لتواصل زحفها المقدس. غير أن هذا الأدب يتفاوت من حيث المعاناة والعمق، والجودة من أديب لآخر ومهما ارتفع أحيانا فقد ظل بعيدا عن السمو إلى مستوى عظمة ملحمة الثورة الخالدة.

الحلم.. والأمل

ما كان الشعر والأدب عامة إلا نتاجا حيا لواقع معين، وانعكاسا صادقا لقضايا مجتمع محدد، يتفاعل بعمق مع هموم وأفراح الجماهير، فيتأثر ويساهم في التأثير. فالشاعر وهو ابن مجتمعه، أقدر الناس على احتضان الواقع بأفراحه وأتراحه وعلى الالتصاق الدائم بالجماهير وهي تكد وتكح، تعاني، وتفرح في سعيها الدؤوب لبناء غد مشرق منير...

ولعل إحساس الشاعر بحجم وعنف الحدث أو المأساة دفعه إلى أن يدق أبواب الغيب، ليستشف معالم المستقبل، فيرتفع إلى مستوى النبوءة، وفي هذا الصدد يقول الناقد غالي شكري في كتابه "أدب المقاومة" موضحا قيمة الأدب المقاوم: "لقد آن الأوان لأن نفرق بين الأدب الذي(يقاوم) قبل حدوث المحنة، وهو الأدب الذي يرتفع إلى مستوى النبوءة والأدب الذي يقاوم(أثناء) المعركة وبعد الهزيمة أوالنكسة، والأدب الذي (يؤرخ) للأزمة بعد انتهائها وقت طويل أو قصير".

وقد كان الشعر الجزائري المعاصر مرآة صادقة تنعكس عليها أوضاع وأوجاع المجتمع أمينا لانفعالات وطموحات الجماهير وهي تعايش وتتصارع مع الأحداث الجسام التي اكتوت بنارها وجحيمها. فحاول شعراء ما قبل الثورة احتضان حجم المأساة، فصوروا الأوضاع المزرية التي آل إليها الشعب، وترصدوا المتاعب والمصاعب التي يواجهها أمام بطش المستعمر، وظلمه واستغلاله، فاستطاعوا إلى حد كبير الإسهام في معركة التوعية الوطنية، والتعبئة الثورية.

لقد عرف الشعب الجزائري خلال النصف الأول من هذا القرن، أحداثا جساما ساهمت بقسط وافر في "زعزعة" الوعي الثوري، ونهضة الفكر الوطني، بعد طول

انتظار وتردد وترقب، وكانت حوادث 8 ماي 1945، قمة تلك الأحداث، ففي خضمها اندلعت الشرارة الأولى للثورة، وإن ظلت خافتة هامدة تسع سنوات إلى أن انفجرت قوية عنيفة في فجر فاتح نوفمبر 1954.

ومن هنا، نجد أن شاعرا ما، قبل الثورة غالبا ما كان يبدأ قصيدته بالشكوى والتذمر والضجر من الأوضاع التي ينوب الشعب تحت كلكلها، مصورا جراح وعذابات الجماهير التي تتألم تحت سياط المستعمر، ثم لا ينفك يختم قصيدته بالدعوة إلى تحطيم القيود والأغلال من خلال النضال الفعال والكفاح المستميت. كما فعل الشاعر محمد العيد آل خليفة حيث بث آلامه وأحزانه من هذه الجوانح والرزايا، بعد أن ضاق ذرعا بكيد ودسائس الاستعمار، وبالقيود التي كبل بها السواعد، وبالأغلال التي أحاط بها الأعناق... حين يقول في قصيدته التي أنشدت في الذكرى الأولى للمؤتمر الإسلامي في شهر أوت1987م

أصابتنا الجوانح والرزايا *** وأعوزت المرافق والرفود
وحنت أعناقنا الأغلال ظلما *** وحزت في سواعدنا القيود
وأعلنا المظالم و الشكايا *** فأخفتها الدسائس و الكيود

بعد كل تلك الأرزاء والمظالم لم يبق أمام الشعب الجزائري إلا طريق واحد لامناص منه، هو طريق النضال والكفاح. وقد جاءت دعوة محمد العيد مبكرة لانتهاج هذا المسلك الوحيد، فإما النصر تحت الراية الخفاقة، أو الاستشهاد، والخلود. فالليل مهما طال لابد أن ينبلج عن صبح مشرق وضاء. وفي ذلك يقول محمد العيد في نفس القصيدة قبل سنين عديدة من انطلاقة الثورة:

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض *** بلا مهل فقد طال القعود
وقل يا ابن البلاد لكل لص *** تجلى الصبح وانتبه الرقود
فخض يا ابن الجزائر في المنايا *** تظلك البنود أو اللحود

ولا تيأس من الفوز المرجــى *** قد يحضر بعد اليبس عـود

بغى الباغي رداك فخاب سعيا *** وللباغي الردى ولك الخلـود

وقد عبر الشاعر رمضان حمود هـو الآخر عن هـذه "النغمة الجديدة" رافعا لـواء النضال عن أمة هضمت حقوقها الشرعية، ففدت تعيش بين ظفر وناب، تتوالى في نهشها الـذئاب. فمن حق الشاعر وواجبه أيضا أن يقف إلى جانب الشعب مناضلا ومكافحا مهما اشتدت الأهوال..

دعوني أناضل عن أمة *** توارت حقوق لها بالحجـاب

دعوني أناضل عن أمة *** فضائلها بين ظفـر ونـاب

دعوني أناضل عن أمة *** عليها توالت شرور الـذئـاب

ولعل في نشيد الانطلاقة الأول لحزب "نجم شمال إفريقيا" الذي نظمه الشاعر مفدي زكريا سنة 1936 دعوة صريحة إلى طرد المغتصبين عن أرض الوطن بالكفاح المستميت مهما كانت الصعاب والتضحيات:

سلاما سلاما أرض الجدود *** سلاما مهد معالينـا

فأنت في الكون دار الخلود *** غرامك صار لنا دينا

فأنا حولك مثـل الجنـود *** لسان هواك يناجينا

سنرعى حقك مثل الأسـود *** ولو قبضوا بتراقينـا

ألا في سبيل الاسـتقـلال *** ألا في سبيل الحريـة

إنهـا دعـوة صـريحة مبكـرة إلى الكفـاح لـتطهير أرض الجـدود مـن رجس الاستعمار الدخيل، وفي سبيل الحرية والاستقلال، خرج بها صاحبها قبل 18 سنة من اندلاع ثورة نوفمبر من إطار التلميح الخفي، إلى التصريح الواضح، في ظرف كان يحرم فيه حتى الهمس الخافت، ويعد مجرد التلميح تحريضا على "العصيان" وخروجا على "القانون" يعاقب عليه بشدة، خاصة في ظروف كان فيه قانون "الانديجينا"

يحاسب الناس على كل صغيرة وكبيرة "تفوح" منها رائحة الوطنية والنضال.

وقد واجه الشعر صراحة مناورات الاستعمار ودسائسه، فانبرى للدفاع عن مقومات الشعب الجزائري، فلم يسكت عن بدعة "الاندماج" التي اختلقها المستعمر كدعوة للاتحاد مع فرنسا تحت ظل "الجزائر الفرنسية" وقد وجدت هذه المغالطة التاريخية من يصدقها ويؤيدها من أبناء هذا الوطن. فتحققت للاستعمار بعض أهدافه الدنيئة المتمثلة في زرع الخلافات، وتشتيت الصفوف، غير أن صرخة الوطنيين كانت أقوى من هذه المناورات الدنيئة، ووقف الشعر يفند هذه البدعة الضالة، ويندد بمن يقف معها مؤيدا لها، وقد كانت صرخة الإمام عبد الحميد بن باديس شديدة النبرة، قوية الفعالية، معبرة عن صوت الجموع الشعبية.

شعب الجزائر مسلم *** وإلى العروبة ينتسب

من قال: حاد عن أصله *** أو قال: مات فقد كذب

أو رام إدماجا له *** رام المحال من الطلب

وقد عبر عن نفس المعنى الشاعر مفدي زكريا في نشيد الانطلاقة الوطنية الأولى لحزب "نجم إفريقيا" الذي نظمه 1936 مندا ببدعة "الاندماج والامتزاج" وما فيها من اعوجاج.

فلسنا نرضى الامتزاجا *** ولسنا نرضى التجنسا

ولسنا نرفى الاندماجا *** ولا نرتد فرنسيسا

رضينا بالإسلام تاجا *** كفى الجهال تدنيسا

فكل من يبغي اعوجاجا *** رجمناه كإبليسا.

وقد ظل الشعراء يتحسسون جراح وعذابات الجماهير، وهي تتألم تحت سياط القهر والظلم والاستغلال فلم تمر مناسبة وطنية أو دينية، دون أن يتخذوا منها فرصة للتعبير عن هموم وطموح الشعب، في أشعارهم التي تشوبها مسحة من الحزن واليأس أحيانا. من غير أن تفقد حرارة الدعوة الصريحة إلى التحدي والتصدي للمحتل الغاشم.

انتفاضة 8 ماي

.. وجاءت مأساة 8 ماي 1945 لتكون ذلك الفاصل التاريخي الهام في حياة ومسيرة الشعب الجزائري، فقبل هذه المأساة المهولة كانت الجماهير لا تزال تتلمس طريقها، وتحاول أن تضم صفوفها وتجمع أشتاتها، وفي غضون الحرب العالمية الثانية وجد الشعب الجزائري نفسه يخوض المعارك بقساوتها وضراوتها، إلى جانب الحلفاء رغما عن أنفه، فاستبسل آلاف الجزائريين المجندين داخل صفوف القوات الفرنسية في الكفاح المرير ضد النازية الهتليرية، ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، معلنة انتصار الحلفاء، كان رد الفعل في الجزائر تنظيم مظاهرات سليمة، رفع المواطنون خلالها لأول مرة العلم الجزائري بألوانه الزاهية، نهارا جهارا، يوم الثلاثاء 8ماي 1945 فكان أن أدى الشعب ثمن تشبثه بالحرية غاليا. ففي ظرف لا يتعدى 24ساعة سقط في ساحة الشرف 45 ألف من الشهداء الأبرياء، منهم الأطفال والنساء والشيوخ، وأحرقت بعض القرى والمداشر خاصة في سطيف، وقالمة، وخراطة، كما في غيرها من المدن الجزائرية..

وامتلأت السجون والمعتقلات بالآلف من أبناء هذا الشعب الأبي، وهكذا استرجع المستعمرون الذين تخلفوا عن محاربة النازية شجاعتهم المفقودة، وأصبح جبناء الأمس يستأسدون ببطشهم وإرهابهم أمام شعب أعزل، سلاحه الوحيد هو إيمانه الذي لا يتزعزع بحقه في انتزاع حريته وسيادته.

وعلى الرغم من فظاعة هذه المأساة، وهولها إلا أننا نلاحظ هنا بأن الشعراء، وقتئذ، لم يرتقعوا إلى مستوى جسامة هذا الحدث الرهيب الذي كان بمثابة ناقوس يدق ليوقظ النفوس الحالمة من غفوتها أو غفلتها، ويدفعها لمجابهة التحدي، بعنف التحدي لقد كان من المفروض أن تخلد هذه المأساة بملاحم عظيمة تطبع على جبين

الدهر، وتنقش داخل ذاكرة التاريخ، بحروف من نار ونور، فلا تنسى ولا تمحى.

وللشاعر الجزائري الشهيد الربيع بوشامة فضل السبق والامتياز في هذا الموضوع، فقد أفاض في الحديث عن هذه المأساة المشؤومة التي يشب لهولها الأطفال الرضع، وتنشطر المهج والأكباد، ففي الوقت الذي يفرح هناك أناس بانتهاء الحرب، يفرح هنا - بالمقابل- شعب بأكمله، تيتم فلذات أكباده، وتترمل نساؤه، لقد طلبوه بل أرغموه على خوض غمار الحرب إلى جانبهم لدحر النازية، ودفاعا عن حرية بلادهم، ولما انتصروا وتحررت أوطانهم، أجازوه جزاء سنمار، أو"جزاء بنت حسام" كما يقول شاعرنا الربيع:

قبحت من شهر مدى الأعوام *** يا" مايو" كم فجعت من أقوام!

شابت لهولك في الجزائر صبية *** وانماع صخر من أذاك الطامي

وتفطرت أكباد كل رحيمة *** في الكون حتى مهجة الأيام

تاريخك المشؤوم سطر من دم *** ومدامع في صفحة الآلام

إن أعلنوا فيك السلام لقد رموا *** بابن الجزائر في سوء ضرام

وتناهبوا أمواله وحياته *** وشربوا مهجاته بهيام

طلبوه للهيجاء حتى حرروا *** بكفاحه، فجزوه بنت حسام

ولتجسيد هول المأساة، وضخامة الفاجعة، وصف الشاعر بوشامة نكبة أسرة كنموذج لما عانته أسر أخرى من أبناء هذا الشعب الأبي، فالمستعمر الغاشم يقيد رب هذه العائلة في الأغلال: ويسوقه للإعدام مع أبنائه وفلذات أكباده، وأي إعدام .. لقد رموهم كلهم من علو شاهق، وتركوهم طعمة سائغة بين أنياب الوحوش والسباع.. وبقيت الدار خالية تندب فجيعتها الكبرى، فمن لتلك الأم والزوجة والأطفال الرضع من شفيق أو رحيم، بعد هذا المصاب العظيم الذي خلف لما تبقى من هذه الأسرة كل شقاء وعذاب.

القوه في الأغلال نضوا صاديا *** واستيق بين الجند للإعدام
ورموا به وبولده من حالق *** جزر السباع كجيفة سوام
ذهبوا وأمست دارهم مفجوعة *** تبكي رزيتها وذل مقام
من للحلية، من لأم واله *** ولائذ من رضع وفطام
لاذوا بحزن قاتل ومدافع *** مكبوتة تذكي أشد ضرام

وبعد هذا الوصف المؤثر لما حل من مصاب عظيم بهذه الأسرة الكريمة يعود الشاعر الربيع بوشامة إلى شهر "مايو" ليدعوه للانتقام من أعدائه المتوحشين، فكيف يمكن السكوت عن الجرائم البشعة التي ارتكبها المستعمر في حق أبناء هذا الشعب الأبي جزاء مطالبته بحقه في الحرية والكرامة..

يا "مايو" مالك واجما لم تنتقم *** أوما سقاك الظلم أسوأ جام؟
هذا حرامك بالدماء مشوه *** قد عج بالأرواح والأجسام
مهج واذان وكبد رطبة *** شويت وكانت من ألذ طعام

وكعادة شعرائنا التقليديين، يدعو الشاعر في ختام قصيدته "شهر مايو" للابتهال والتضرع إلى المولى الكريم للانتقام من هذا : "الغرب" والقضاء على بطشه وقهره..

فارفع إلى مولاك شكوى ضارع *** يبرأ من الحكام و الأحكام
عجل لهذا "الغرب" من رب السما *** بقواضم مجتاحة وضرام

وهكذا، كان الشاعر الربيع بوشامة سباقا لتصوير هول المأساة، وان كان قد أغفل استخلاص العبرة، حيث كانت مجازر 8 ماي نقطة تحول إلى منعرج الرفض الواضح، والتأهب لفجر الحدث الأكبر.

والشاعر محمد العيد استوقفته هذه المأساة الكبرى، وملكت جوارحه وأحاسيسه، فلم يستطع أن يكتم وجده، أو يحبس قريحته، وقد فجرت فيه المأساة ينابيع الإحساس الأليم، بما خلفه هذا الجرح الدامي.

أأكتم وجدي أو أهدي إحساسي *** و"ثامن ماي" جرحه ما لـه آسـي
وأرقب ممن أحـدثـوه ضمـاده *** وهم في جماح لم يميلوا لإسلاس
تمر الليالي وهو يدمي، فلم نجد *** له مرهما منهم سوى العنف والباس
إذا ما رجـونا بـرأه ثـر دافقـا *** بأحداث سوء وقعها مؤلم قـاسـي

وينتقل الشاعر لتصوير فضائع ماي التي كذبت مزاعم المستعمر الذي يتشدق بكلمات الحرية والإخاء والمساواة، ثم لا ينفك أن يتصدى لقهر إرادة الشعوب، فيقتل الأبرياء، ويحطم الديار، ويزج بالمواطنين إلى السجون والمعتقلات، ليذيقهم مرارة العذاب. وتمتد يده الأثيمة إلى الغيد الحسان، ليسلب منهن زينتهن، ويهتك أعراضهن.

فضائع"ماي" كذبت كل مزعم *** لهـم ورمـت ما روجوه بإفـلاس
ديار من السكان تخلى نكاية *** وعسفا، وأحيـاء تـسـاق لأرمـاس
وشيب وشبـان يسـامون ذلـة *** بأنواع مكـر لا تحد بمقـيـاس
وأحباش شر أجمعت سجنائهـا *** ومعتقلوهـا أنهـا شـر أحبـاس
ومعتقلات في العراء مبيـدة *** عليها لصوص في ملابس حـراس
وغيد من البيض الحسان أوانس *** تهـان على أيـدي أراذل أنـكـاس
ويسلبن من حلـي لهـن مرصـع *** بكـل كريـم مـن جمـان وألمـاس
وينكبن في عرض لهن مطهر *** مصون الحواشي طيب العرف كالآس

ويقف الشاعر محمد العيد عاجزا عن وصف هول المأساة، فهي أكبر من حجم الأقلام والأوراق، لكنه سرعان ما يستخلص العبرة، ويدعو الشعب إلى الكف عن الشكوى وعد المظالم، من عدو لا يحن، ولا يلين والاستعداد لمواجهة القهر بالعنف الثوري:

فيالك من خطـب تعـذر وصفـه *** فلم تجر أقلام به فوق أطـراس
ولا خير في عد المظـالم وحـدهـا *** إذا لم نبن عن مرهفات وأتـراس

سئمنا من الشكوى إلى غير راحم *** وغير محق لا يدين بقسطاس

ويتوجه الشاعر في ختام قصيدته إلى المستعمر الغاشم ليذكره بأن هذا الشعب الأبي قادر على أن يثأر لشهدائه الأبرار، وأن يتحدى جبروت الطغيان، ثم يدعو الشعب ألا يضيق بما حل به من أحزان وأرزاء، وأن يطرح رداء اليأس جانبا، وأن يعلن للمستعمر بصوت مجلجل بأن موعد الثأر قريب..

فيا أيها المستعمرون تنزهوا *** ولا تسموا وجه الحياة بأرجاس

ألم يكفكم ما مر من قتل أنفس *** ومن كم أفواه ومن خنق أنفاس

ولا تطمعوا أن تستلينوا قلوبنا *** فتلك قناة لا تلين لجساس

ويا أيها الشعب المروع لا تضق *** بدنياك نزعا واطرح خلق اليأس

و قل للذي آذاك لا وصل بيننا *** وموعدنا العقبى فما أنا بالناسي

وقد تمكن الشاعر محمد العيد من التعبير المرير عما خلفه في نفسه وجوارحه هذا الجرح الغائر، كما صور بدقة بعض ما عانى منه الشعب في خضم المأساة، من تقتيل، وتعذيب، ونهب، وتحطيم، غير أنه كما يشير إلى ذلك الدكتور عبد الله ركيبي في كتابه "دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث" قد ترك أهم شيء في الموضوع، فقد كان من حقه أن يشيد بصمود الشعب في هذه النكبة، ويحثه على العمل والنضال، ويرسم له الطريق بوضوح أكثر، لا بكلمة أو كلمتين، وهذه حقيقة تكاد لا تخلو من شعر شعرائنا.. خاصة الشيوخ منهم، فكثيرا ما يعمدون إلى التقية، وإلى الرمز والتلويح.. بدل المجاهرة والتصريح.. وقد تعذرهم في وقت من الأوقات، أما والشعب قد برهن على وعي حقيقي ويقظة شاملة، فكان من حقهم أن يرشدوه، ويبصروه ويهزوه، أن دعا الأمر إلى الهز والدفع.. وإلا فما قيمة الشاعر والشعر إذا لم يكن لسانا صادقا يعبر عن آلام شعبه، ويرشده إلى الطريق الصحيح، طريق الحرية و التحرر؟.

جذور .. وإرهاصات

هل كانت أحداث 8 ماي 1945 هي بداية انطلاقة الشرارة الحقيقية لاندلاع "اللهب المقدس" في فجر فاتح نوفمبر 1945 ؟.. ماذا لو اندلعت الثورة التحريرية خلال أوعقب تلك الأحداث (ماي 45) مباشرة؟.. هل كانت الظروف السياسية مواتية، والأرضية الاجتماعية ممهدة للزحف الأكبر والانتفاضة الشعبية العارمة؟

بالفعل، لقد جاءت أحداث 8 ماي 1945 لتهز كيان الشعب الجزائري وتمتحن قدرته على الصمود والتحدي، فكانت أكبر محنة علمت الجماهير كيف تتأهب ليوم الثأر من أجل انتزاع حريتها الكاملة.

غير أننا نلاحظ بأن الشعر الجزائري وقف ـ في معظمه- مذهولا أمام حجم وهول المأساة، لم يرتقع إلى مستوى هذه الملحمة التي أبدعتها الجماهير، بل ولم يتمكن وقتئذ من تسجيل هذا الحدث العظيم، بكل ما يستحقه من بلاغة الدروس والعبر، باستثناء تلك النماذج القليلة التي أوردناها للشاعرين الربيع بوشامة ومحمد العيد. إلى جانب قصيدة أخرى للشاعر أحمد معاش، تحتوي على ثمانين بيتا، يتحدث فيها محن هذه المأساة، وقد كتبها في "ذكرى 8 ماي" وهو يعالج بفرنسا قبيل الثورة، وأورد بعض أبيات هذه القصيدة المطولة الدكتور عبد الله ركيبي في كتابه "دراسات في الشعر العربي الجزائري".

واعتبرها من روائع هذا الشاعر. حيث حاول من خلالها - كما يقول- عقد موازنة أو مقابلة بين "جبال الألب" و"جبال الأطلس" فتحدث عن سكان كل من المنطقتين، فقد جاء الأولون لاستعمار إفريقية، وكيف وقف أبناء الأطلس الأحرار يدافعون عن كرامتهم وعزتهم.

ويلاحظ بأن هذه القصيدة الطويلة تستوحي الحدث بعد فوات أوانه فتحوم حول موضوعه، من غير أن تغوص في أغوار لهب المأساة، وتصوير معاناة شعب بأكمله، لم يقترف أي ذنب أو جريمة، ماعدا مطالبته بحقه المشروع في الحرية والسيادة مثل جميع الأمم. ومن هنا، يبدو أن شعراء هذه المرحلة، أومعظمهم أغفلوا هذا الحدث الكبير، ولم يتمكنوا من تصوير حجم وهول المأساة، وتجسيد مقاومة الجماهير الغاضبة التي انتفضت لتصنع مستقبلها المنشود.

وقد يكون من بين هؤلاء الشعراء من تصدى لهذا الحدث لكنه وجد أن شعره لا يرتفع إلى مستوى عظمة الانتفاضة العارمة، ففضل الصمت على الكلام المباح، ووقف مذهولا، يتأمل روعة الملحمة، في خشوع وإجلال... أو قد تكون هناك قصائد أخرى، كتبت وقتئذ، ولم تجد "المنبر" المناسب لنشرها بين الناس، فظلت في حوزة أصحابها، بعيدة عن أعين المستعمر الغاشم، خشية التعرض لظلمه وجبروته.

وهناك قصيدة وطنية خالدة، ظهرت فجأة عقب المأساة مباشرة، وحفظتها الجماهير عن ظهر قلب، ورددتها في نشيد علني، لتتخذ منها رمزا وعنوانا للنضال والكفاح، لما فيها من دعوة صريحة للثورة ضد الاستعمار، ومن أجل العزة والكرامة.

تلك هي قصيدة "من جبالنا" التي ينسبها البعض لشاعر مجهول كما فعل الدكتور ركيبي في كتابه "دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث" في حين يتفق آخرون كثيرون، ومنهم الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم في تقديمه لديوان "إلياذة الجزائر"، على أنها لشاعر النضال والثورة مفدي زكريا.

فهذه القصيدة تدعو الجماهير إلى الالتحاق بالجبال، كرمز للصمود وللكفاح من أجل الحرية، مهما كلف ذلك من تضحيات جسام.

من جبالنا طلع صوت الأحرار *** ينادينا للاستقلال

ينادينا للاستقلال *** استقلال وطننا

تضحيتنا للوطن *** خير من الحياة

أضحي بحياتي *** وبما لي عليه

فالجبال ستظل رمز الصمود والتحدي، ومنها انطلق صوت الأحرار منادين بالمقاومة والكفاح لانتزاع الحرية والاستقلال، مضحين بأرواحهم وأموالهم، من أجل عزة الوطن الغالي والمفدى، بكل عزم وثبات، فهؤلاء الثوار هم أشبه ما يكون بتلك الجبال الراسيات الشامخات التي تحمي الوطن، من غضب الطبيعة وكيد الأعداء والمحتلين.

يا بلادي، يا بلادي *** أنا لا أهوى سواك

قد سلا الدنيا فؤادي *** وتفانى في هواك

لك في التاريخ ركن *** مشرق فوق سماك

لك فى المنظر حسن *** ظل يغري ببهاك

نحن سور بك دائر *** وجبال راسيات

نحن أبناء الجزائر *** آل عزم وثبات

وقد ظلت -ولا تزال- قصيدة "من جبالنا" بباسطة لغتها وليونة شكلها، وقوة مضمونها، نشيدا رسميا تردده الجماهير بكل شموخ وإباء وثبات، معلنة بأن الثورة هي السبيل الوحيد للتحرر والانعتاق نحو الغد الأفضل والأروع.

وإذا كانت أحداث 8 ماي 1945 قد هزت كيان الأمة، وأيقظت من جديد تلك الضمائر الغافلة أو الراقدة، فإنها مع ذلك خلفت نوعا من اليأس والمرارة و القنوط لدى بعض الشعراء، نتيجة الصمت الثقيل الذي أناخ بكلكله خلال السنوات الموالية، وقد عبر الشاعر عبد الله شريط في قصيدة له كتبها بباريس سنة 1947 بعنوان "وطني" (ديوانه رماد، ص53) عن ذاك الحزن العميق الذي يلفه ويلاحقه في غربته هناك، وكذا حنينه إلى وطنه ومهد صباه وشبابه، فهو "الجنة الدنيا تهادت ، ولكن بين أحضان الذئاب" كما يقول :

ظمئت إليك وطني وإني *** لفيك نفضت أوراق الشباب
وفيك تنفست أحلام قلبي *** وهزت مهجتي ريح التصابي
كذا نعيش ياوطني كأنا *** خنافس لاهيات في التراب
وأنت الجنة الدنيا تهادت *** ولكن بين أحضان الذئاب

وبعد أن يستفيض في اغترابه وانتحابه هناك، يعود ليتغنى بجمال وطنه، وعزة أهله، ليختم قصيدته هذه - على طريقة الشاعر أبي القاسم الشابي- بشكواه وضيمه، ثم يدعو شعبه إلى الانتفاضة العارمة كالسيل الجارف. فيقول:

إليك أبث يا شعبي شكاتي *** وآلامي وضيمي وانتحابي
أثرها زعزعا بالهول تدوى *** وبالموت المدمدم، بالخراب
يضج شواظها دكا وحرقا *** وتلتهم الدجى فوق الهضاب
ويندفع الصباح الطلق يشدو *** بعودة عزنا بعد الغياب
ومن خلف القرون يفيق شعب *** بين يديه أعلام الحراب.

وقصيدة "وطني" هذه التي تتصدر ديوان "رماد" - هي في رأينا من أجود ما كتبه وقتئذ الشاعر عبد الله شريط، قبل أن يتخلى عن الشعر، أو يطلقه إلى غير رجعة، كما يوضح في مقدمة الديوان، فالقصيدة تشير بوضوح إلى أن بعد العسر يسرا، وأن الأمل العذب يلوح في الأفق بعد مرارة اليأس والقنوط.

وهكذا، رغم أجواء الخيبة والمرارة، فقد ظلت أحداث 8 ماي علامة مميزة، ونقطة تحول تاريخي في حياة الشعب الجزائري اكتسبت من خلالها تجربة جديدة عظيمة، نبهته بعنف لواقعه الأليم المرير، لتصعد لديه نقمة الرفض العارم. فكانت- بحق- تلك الشرارة الملتهبة، والمشعل المنير نحو طريق الثورة. فقد ظل الشعب يعيش في غمرة أحداثه الجسام، ليستلهم من شهدائها قوة، ومن ذكراها موعظة وعبرة.

وقد أتاحت هذه المأساة للشعر الجزائري، وقتئذ ظروف التفتح على آفاق رحبة جديدة، فظهرت ألحان الحرية والاستقلال، مع كلمات الكفاح والعلم الرفراف... وكان الشاعر محمد العيد آل خليفة سباقا إلى احتواء هذه "الأنغام" الجديدة صراحة، ودونما أي تلميح، في قصيدته التي قالها خلال زيارته لمدينة قسنطينة، ونشرها سنة 1950 بجريدة "المنار" الجزائرية (ص 339 من ديوان محمد العيد) حيث يدعو إلى توحيد العزائم والآمال، من أجل انتفاضة كبرى لتحطيم القيود والأغلال، بعد أن طال ليل الاستعمار، بما فيه من ظلم وبطش، وقهر ونهب:

حثوا العزائم واصدقوا الآمالا ❖❖❖ إن الزمان يسجل الأعمالا

وشهادة التاريخ أوثق حجة ❖❖❖ تجلو الأمور وتكشف الأحوالا

يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم ❖❖❖ فالعمر ساعات تمر عجالا

الأسر طال بكم فطال عناؤكم ❖❖❖ فكوا القيود وحطموا الأغلالا

ثم ينتقل لمخاطبة عزائم الرجال لأن تضع حدا لما يعانيه الشعب من ظلم وقهر على يد المستعمر المتجبر، داعيا للكفاح لانتزاع الحرية والاستقلال، تحت راية العلم الرفراف، فإرادة الشعب - كما يؤكدها الشاعر- لا تقف عند حد، فهي قادرة على منع المستحيل من أجل نيل المراد، ولو كان عاليا وغالبا كالنجم الثاقب اللامع.

والشعب ضج من المظالم فأنشدوا ❖❖❖ حرية تحميه واستقلالا

لا أمن إلا في ظلال مرفوف ❖❖❖ حر لنا غال ينير هلالا

من فوق جند بالعتيد من القوى ❖❖❖ يلقى العدو ويصمد استبسالا

وإذا الشعب نال مراده ❖❖❖ ولو أنه كالنجم عز منالا

الله في عون الشعوب فمن يرم ❖❖❖ تعويقها بالقمع رام محالا

إنها إرادة الحياة التي عبر عنها من قبل الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي في قصيدته الشهيرة، وهي نفس النغمة الموسيقية التي رددها الشعراء الجزائريون بعد أن أدركوا بحسهم الوطني، وحدسهم الفني، أهمية ضم الصفوف، ورفع لواء الكفاح المستميت لتحرير الوطن المفدى، بعد حقبة تزيد عن قرن، تجرع خلالها الشعب مرارة وقساوة الليل الاستعماري الرهيب، وقد عبر عن هذه الصرخة المدوية الشاعر محمد الجريدي في قصيدة له نظمها في بداية الخمسينات "وأشير إليها في كتيب "الأدب الجزائري المعاصر" ص 34. من منشورات المركز الجزائري للإعلام و الثقافة في بيروت أبريل 1975) حيث خاطب بها أبناء قومه قائلا :

فعودوا وسووا للكفاح صفوفكم ••• وخوضوا إلى تحريركم لجج الخطب
فحسبكم قرن وعشرون حجة ••• تجرعتم أثناءها غصتص الكرب
ولا تكلوا أمر البلاد لغيركم ••• فإن الذئاب الطلس غاشت على النهب
ثبوا أيها العرب الكرام إلى الفدا ••• فإن سواكم قد تهيأ للوثب

وتبدو في هذه الأبيات ذروة التمرد والتحدي، ففيها "نبوة" صادقة لما سيأتي من ثورة عارمة تقتلع جذور الاستعمار.

وتكاد نفس هذه "النغمة" الصريحة الواضحة، تتكرر لدى الشاعر مفدي زكريا في قصيدته التي قالها بتاريخ 25 أكتوبر 1953 بمناسبة تدشين "دار ابن باديس بقسنطينة" للطلبة التابعين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث يدعو هؤلاء الطلبة، نشأة العلم والمعرفة للنهوض، فالوقت مناسب؟ والجهاد ليس مجرد شعارات قوية النبرة، تكتب بحروف بارزة على الجدران لتمحي وتنسى بعد ذلك. ولذا يناشد أهل العلم باعتبارهم روح الأمة إلى النهوض والتأهب للكفاح، فالظروف معدودة محدودة.

والليل يكتم من أسـراره عجـبا *** يخشى الصباح كأن الليل بـارود

وما الجهاد(جدار أنـت تكتبـه) *** إن الجدار - كبعض الناس - جلود

يا نشأة العلم يا فخـر البـلاد ويـا *** روح الجزائر تقـديـس وتمجـيـد

يا نشأة العلم لا تقعد بكم همـم *** عن الجـهـاد فـإن الوقـت محـدود

ثم يحث نشأة العلم لتحطيم القيد والأغلال، وتلبية نداء الأمة في النود عن الوطن المفدى، والكفاح المستميت ضد المحتل الغاصب، فأبواب الجنة مفتوحة في وجه المجاهدين... فمن يشتري الخلد بدمه وروحه ؟

كونوا الخلاص لشعب لانصبب لـه *** مـمـن يعذبــه إلا الـمـواعـيـد

وحطموا القيـد والأغـلال أن لـه *** فما وجسما فموصود ومصـفـود

يا جيرة الله لبوا صـوت أمتـكـم *** يا جيرة الله عـن أوطـانـكـم نودوا

مـن يشتـري الخلـد؟ إن الله بائـعـه *** فاستبشروا وأسرعوا ، فالبيع محدود

وتولى الشعراء الجزائريون بعد ذلك يدعون نهارا جهارا إلى الطريق الوحيد الذي ليس منه بد ، طريق الثورة والخـلاص، بعد أن سـدت جميع السبل في وجه الشعب الجزائـري، فهـذا الشاعر محمد أبـو القاسم خمـار يدعو بني وطنه إلى التعاضد والجهاد في قصيدته "نداء الاتحاد" التي نشرها سنة 1953 بجريدة "المنار" الجزائرية، وضمنها فيما بعد في مجموعته "ظلال وأصداء" :

فهبوا يـا بـني وطنـــي جـفـافـا *** إلى يوم التعاضد والجهاد

إلى داعي الصلاح فقد دعاكـم *** بأن تبنوا بنـاء ذا عـمـاد.

وقبيل اندلاع شرارة نوفمبر الخالدة، بنحو شهرين فقط، وبالتحديد في 5 سبتمبر 1954 أنشد الشاعر محمد العيد آل خليفة وسط الجماهير الغفيرة التي جاءت لتحتفل بافتتاح مدرسة باتنة العربية الحـرة التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فكانت قصيدته "في يوم باتنة العظيم" - ص 216 من الديوان- باعث حماس

متجدد وسط تلك الجموع بتمجيدها للوطن الحبيب، ودعوتها إلى التضحية من أجل حريته وكرامته بالنفس والنفيس، بالغالي والعزيز...

ولي وطن حبيب لي خصيب *** وقفت على محاسنه هوايا
وكنت له من الأحرار عبدا *** لا روحي وما ملكت يدايا
إذا آنست مر بلواه نارا *** فإني قد وجدت بها هدايا
أصابك يا جزائر عهد سوء *** ظللنا يائسين به خزايا
أعيدي للورى عهدا سنيا *** رقيت به إلى الرتب السنايا

وهكذا نجد أن الشعر الجزائري، قد ارتفع في معظمه إلى مستوى "النبوءة" باحتضانه لجذور وإرهاصات الثورة قبل اندلاعها، فاتخذ له قاموسا من الكلمات المجلجلة، وغالبا ما كانت تتلاشى "الأنا" أمام "المحن" الغاضبة الرافضة، حيث عبر الشعراء وقتئذ بأمانة وصدق عن نقمة الجماهير المتحدية للاستعمار والاستغلال، ورغم صمتهم، في بعض الأحيان، أمام بعض الأحداث السياسية خشية بطش المستعمر الغادر، فقد ساهموا بقسط وافر في الدعوة الصريحة إلى الوثبة الكبرى العارمة، إلى الكفاح المستميت كسبيل وحيد لتحطيم القيود والأغلال وانتزاع الحرية والاستقلال.

ولا غرابة في أن نجد الشعر الجزائري وقتئذ صوت الجماهير وهي تكد وتكدح وتقاوم القهر والظلم، وتجمع الصفوف، تأهبا لليوم الموعود، فانتقل الشعر من التلميح إلى التصريح، وإلى التبشير علانية باقتراب انبلاج الفجر المنير، فخرج الفاتح نوفمبر 1954 ليتحقق طموح هذا الشعب الأبي، المتعطش للحرية والسيادة.

نوفمبر . مطلع الأبيات

في جو مشحون باليأس، ممزوج بالأمل، في آن واحد، بعد ليل طويل، وانتظار مقيت، وقف التاريخ مشدوها ليتأمل لحظة "البركان الأكبر" فكان موعده مع اندلاع شرارة الثورة المسلحة في ساعة الصفر من فاتح نوفمبر 1954. لقد كانت هذه "اللحظة التاريخية" أكبر حدث صنعته معجزة الإنسان الجزائري، ليتحول الحلم الجميل إلى حقيقة ملموسة مجسدة على أرضية الواقع، بفضل الإرادة الصلبة المتشبثة بالحياة والحرية.

وحين اندلعت الثورة في موعدها المرسوم، ارتمت جماهير الشعب الجزائري بين أحضانها، واضعة كل ما لديها من أجل انتصارها، مسترخصة حياتها مضحية بأبنائها وفلذات أكبادها، وكيف لا ؟ـ وقد كانت الثورة - بالنسبة لكل جزائري وجزائرية - أملا غاليا يرتجى، وحلما رائعا يداعب الخيال، فإذا الحلم حقيقة، والأمل إرادة.

ولم يتخلف الشعر عن الركب، عن معانقة ومعايشة الثورة الجبارة، منذ انطلاقتها المظفرة بعد، ظل سنين عديدة يحلم بها، ويسعى إليها، حتى إذا انبلج فجرها المنير، ارتمى بين أحضانها، ليتعلم الكثير من ملحمتها الخالدة، ولتتفتح أمامه تلك الآفاق الرحبة الجديدة، التي ما كان ليحلم بها، لولا الدم والنار والحديد، فتفجرت ـ نتيجة لذلك ـ قرائح الشعراء بقصائد تنبض بوقع الثورة، أبياتها ملتهبة حمراء، حروفها من نور ونار، إيقاعها قوي عنيف، يحاول دوما أن يرتفع إلى مستوى طلقة البندقية، وعنفوان المعركة الحامية.

ولم تكن الثورة في حاجة إلى دعم معنوي، لأن الشعب برمته كان متأهبا لاستقبال مولوده الجديد، واحتضانه ورعايته، بعد أن عانى منذ ما يزيد عن القرن من المحن والظلم والبطش، فلزداد مراسا ومقاومة، ليخلق الظروف المواتية للحظة الانفجار.

وهكذا انطلقت ثورة نوفمبر لتشق طريقها الوحيد الذي لا مناص منه، ولا رجعة فيه،

لتمحق الطغاة البغاة، ولتقتلع الشر من جذوره، ولتطهر الأرض الطيبة من رجس الاستعمار، لاستقبال شروق شمس الحرية. والشاعر محمد الأخضر السائحي يقول على لسان الثورة مخاطبا فرنسا في قصيدته، "نشيد الثورة" المذيّلة بتاريخ 1954، أي مع اندلاع شرارة الثورة -

وثبنا فلا تطمعي فـي النجـاة *** وثرنا فلا تحلمي بالبقا
حلفنا سنمحق كل الطغـاة *** ولابد لشر أن يمـحقـا
سنمضي ندوي مع المـدفـع *** وإن نحن متنا ولم نـرجـع
فإنا وقفنـا ولـم نـركـع *** وسوف أقول وقولوا معي
لأرض الجزائر طول البقا

فشاعرنا السائحي يسجل "الوثيقة الجبارة" لاقتلاع جذور الطغاة البغاة، ولمحق الشر والظلم، فالجماهير هبت مسترخصة حياتها من أجل حرية الوطن المفدى.

ويكاد هذا المعنى نفسه يتكرر في قصيدة "صرخة الحر" التي قالها الشاعر صالح خباشة في ديسمبر 1954 وضمنها مجموعته "الروائي الحر" حيث يخاطب فرنسا، بشيء من الأسلوب التهكمي، بعد أن خرست عيا، لما تلقت جواب الثوار. ظلت فرحة منتشية كفراشة مزخرفة الألوان، تحم حول نور القنديل، غير مبالية بخطر الاحتراق، فكانت نار الثورة - بحق - جحيما: على المستعمر، بعد أن انطلق "المارد الجبار" لينتزع النصر المبين -

يا فرنسا هل خرست اليوم عيـا *** أم تلقيـت جـوابـي عمـليـا!
كنت جذلى كفراش يتغنـى *** لا يرى النـار لـه مـوتـا وحيـا
فلقد ذقت جحيمـي ولظـاهـا *** وسأصليـك صباحا وعشيـا
نضجت منك جلـود بدليهـا *** فسعيري - إن تـغـافلـت - مهيـا
فـأنـا المـارد أفـتـك بـلادي *** أسحق الغاضب سحقـا أبـديـا
أنقذ الشعب الذي ديس طـويـلا *** فقضى الدهر - كما شئت - شقيا.

وواكب الشعراء الجزائريون مسيرة الثورة التحريرية في خطواتها الأولى، وإن صمت

بعضهم ممن بشروا بها قبيل اندلاعها، ولذلك استقبلوها برزانة وحكمة من كان يتوقع حدوثها، ومن هنا سلموا المشعل لحاملي البندقية، فصوتها أعلى وأبلغ من بيان الكلام

وهناك بعض هؤلاء الشعراء الذين اضطرتهم الظروف "لقاسية والصعبة" إلى الخارج، لطلب العلم و المعرفة، فكان أن عايشوا أحداث الثورة من بعيد متألمين متحسرين لحرمانهم من الإسهام الفعلي في خوض المعارك في جبال لجزائر و وهادها وشعابها.

ولعل مثل تلك الحسرة الجارحة نجدها لدى لشاعر محمد أبو القاسم خمار في قصيدته "صيحة غريب" التي نظمها في حلب(سوريا) بتاريخ 10 نوفمبر 1954، كما يشير في مجموعته "ظلال.. وأصداء".. ففي هذه القصيدة يتألم لبعاده عن أرض الجزائر، حيث يصنع الثوار ملامح البطولة، بينما "ينعم بسلمه وسكينته" - ترى ماذا سيفعل غدا بعد عودته إلى جزائر الحرية؟.. وبماذا سيواجه أبطال النصر...

أيثور في أرض الجزائر ثائر *** وأنا هنا كالصخر كالأموات
أيقوم في أرض الجزائر ناقم *** كالليث يزأر مرعد النبرات
أيموت أهلي تحت سطوة ظالم *** وأعيش في سلم على علاتي
فعلام ينعم بالشهادة إخوتي *** وعلام تمضي في الحنين حياتي
وإذا تحررت البلاد وجئتها *** ماذا أقول لصابغي الرايات...؟

وهكذا، وبفعل الثورة، وقوة لهيبها، وعظمة حدثها، وبلاغة ملامحها دخل الشعر الجزائري، دخل الشعر الجزائري مرحلة جديدة، متطورة وحاسمة، واتخذ له "قاموسا نضاليا مناسبا" بعد أن بات أول نوفمبر منقوشا في دائرة الشعب الجزائري برمته، فهو عنوان مقاومته وصموده، ورمز حي لإرادة التحدي من أجل انتزاع الحرية الغالية بالدم والنار والحديد.

لذا نجد جل الشعراء الجزائريين- إن لم نقل كلهم- نوهوا بأول نوفمبر. واعتبره شاعر الثورة مفدي زكريا "ليلة القدر الكبرى" وفي ذلك اقتباس واضح من القران الكريم، حيث يستجيب الله لدعوة شعب مظلوم، فإرادة الشعب لا تقهر، وما ثورة نوفمبر غير عنوان

لهذه الإرادة الفولاذية.

دعا التاريخ ليلك فاستجابا *** (نفمبرا) هل وفية لنا النصابا

وهل سمع المجيب نداء شعب *** فكانت ليلة القدر الجوابا؟

وهزت "ثورة التحرير" شعبا *** فهل الشعب ينصب انصبابا

وكان الشاعر مفدي زكريا في طليعة الشعراء الذين حملوا لواء الثورة وعبروا عنها نهارا جهارا في أجمل وأروع صورها وملامحها، فمن أعماق سجن بربروس الرهيب نظم فيها أحلى القصائد، ولو ينفك يذكر أول نوفمبر في كل مناسبة، حتى إذا حلت الذكرى الرابعة بقعر الزنزانة رقم 375 نظم قصيدته المعروفة "اقرأ كتابك"، وألقيت وقتئذ بالنيابة في إذاعة صوت العرب من القاهرة..

هذا (نفمبر) قم! وحي المدفعا *** واذكر جهادك..السنين الأربعا

واقرأ كتابك للأنام مفصلا *** تقرأ به الدنيا الحديث الأروعا

إن الجزائر في الوجود رسالة *** الشعب حررها وربك وقعا!

وقصيدة أزلية، أبياتها *** حمراء كان لها (نفمبر) مطلعا!

والشاعر صالح خرفي بايع من بين الشهور (نوفمبرا) ورفع منه منبرا لأسماع الملأ صوت الجزائر المكافحة، فهو شهر البطولة والمواقف الخالدة، فيه انطلقت أول شرارة من لهيب الثورة، فانقدح زنادها ليعم الأركان، وانفجر بركانها بين أعالي قمم "أطلس المعجزات"..

بايعت من بين الشهور (نفمبرا) *** ورفعت منه لصوت شعبي منبرا

شهر المواقف والبطولة قف بنا *** في مسمع الدنيا وسجل للورى

فلأنت مطلع فجرنا وزناد بركا *** ن، أثرت كمينه فتفجرا

دوت بمطلعك الخضيب رصاصه *** فاهتزت (البيضاء) وانتشت الذرا

فنوفمبر هو وثبة الأحرار لدى شاعرنا خرفي، ورمز حي لقافلة الرافضين، فتاره

الملتهبة تلتهم الظلام الدامس لتحيله إشراقا ونورا، فإذا الليل ينجلي عن فجر منير ....

يا وثبة الأحرار هنا يـا (نفمبـر) *** لم تزل علما لقافلة السرى

قدست فيك النار تلتهم الدجى *** فتحيل ظلمته لهيبا أحمرا..

لقد وجد الشاعر الجزائري، أينما كان، طريقه المرسوم، فاختار نهجه الواضح إلى جانب الثورة عن إيمان، فهذا الشاعر أبو القاسم سعد الله يبرز سبيله الوحيد من خلال قصيدته نشرت بالبصائر سنة 1955 كما يشير في مجموعة "ثائر وحب" ذلك أن "طريقه كالحياة شائك الأهداف مجهول السمات، عاصف التيار، صاخب الأنات" اختاره عن حب وطواعية، وهو يعلم ما به من عذبات الجراح ..

يا رفيقي
لا تلمني عن مروقي
فقد اخترت طريقي..
وطريقي كالحياة
شائك الأهداف مجهول السمات
عاصف التيار، وحشي النضال
صاخب الأنات، عربيد الخيال
كل ما فيه جراحات تسيل
وظلام وشكاوى و وحول
تترأى كطيوف
من حتوف
في طريقي..

ورغم عظمة الحدث، بعد أن أقلع قطار الثورة، فإننا نلاحظ هنا غياب صوت شاعر كبير واكب مسيرة الحركة الوطنية، وما أنفك يلمح ويصرح ويدعو إلى سبيل الكفاح كنهج وحيد للوصول إلى حياة الحرية والاستقلال، هذا الشاعر هو محمد العيد آل خليفة الذي حرم من نعمة الإسهام الفعلي في حركة الثورة، حيث ألقى المستعمر عليه بالقبض، مع اندلاع لهيب ثورة التحرير، وزج به في أعماق السجن،

ثم ألزم بالإقامة الإجبارية في بسكرة، وطوق برقابة شديدة إلى انتهاء الثورة.. وفي إحدى فترات وحدته المضنية، سمع صوت طائر صغير يدعو، "أبو بشير" داخل منزله، كأنه يحييه بصوته العذب، فاستبشر بذلك، وتفاءل خيرا بقرب انفراج الأزمة، وأبت له شاعريته إلا أن يرد تحية زائره المحبوب بقصيدة "مناجاة بين أسير وأبي بشير".

جزمت بقرب إطلاق الأسير *** غداة سمعت صوت(أبي بشير)

فقمت مرحبا بنزيل يمن *** على بكل إكرام جدير

وجئت أبثه نجواي سرا *** ومن للحر بالصوت الجهير

أناجيه بآمالي وحالي *** واستفتيه عن شعبي الكسير

ومن خلال مناجاة هذا الطائر الصغير يستبشر شاعرنا العيد خيرا ويتفاءل بقرب انبلاج النبر المنير على شعب أبي قدم أنفس ما لديه قربانا على مذبح الحرية الغالية

وما شعب الجزائر غير شعب *** سخي بالفدى حر الضمير

وحسبك ثورة الأحرار حكما *** أخيرا منه في العهد الأخير

لقد ضحى بثورته فأضحى *** بها في الصبر منقطع النظير

ولا تزعجك آلاف الضحايا *** وما أجراه من دمه الغزير

فتلك شهادة الشهداء فيه *** وذلك أجر مطلبه الكبير

لقد كان فعل الثورة أبلغ من بيان الكلام ومع ذلك، ورغم بطش المستعمر، فقد انطلق الشعر يشق جدران السجون والمعتقلات ليلتحم بخطوات الثوار المجاهدين، وليعانق البطولات الخالدة. وتدور عجلة الزمان عاما بعد عام ليصبح نوفمبر "مطلع الأبيات" لقصائد الشعراء التي تجود بها المناسبة، فمنه انطلق "المارد الجبار من قمقمه" محطما السلاسل والأغلال لذلك نجد هؤلاء الشعراء لا يتركون مناسبة حلول ذكراه المجيدة دون أن يخلدوه بقصائدهم العصماء، فأول نوفمبر هو عنوان شعرهم الثوري، ورمز صلابة شعب أبي برمته، قهر الظلم، وهزم المستعمر، وانتزع بقوة حقه المشروع في الحرية والسيادة والكرامة.

القصيدة .. القذيفة

◊ الثورة في سنتها الأولى

◊ مواكبة المسيرة

◊ امتزاج الحبر بالدم

◊ وقائع .. ومواقف

◊ جميلات .. وراء القضبان

◊ التحام حتى النصر

◊ مظاهرات التحدي والحرية

الثورة في سنتها الأولى

ترى... إلى أي حد يمكننا أن نعود إلى الشعر الجزائري، خاصة والأدب عامة، ونعتمد عليه في محاولتنا لرصد مسيرة الثورة الجزائرية، بأحداثها ومواقفها، وبانتصاراتها و"إنكساراتها"؟ وهل يعكس هذا الشعر، كأغزر مورد في تلك الفترة، جميع الوقائع التي عرفها الشعب الجزائري طيلة سبع سنوات ونصف، أي من فاتح نوفمبر 1954م، فجر اندلاع شرارة الثورة التحريرية إلى 5 جويلية 1962م، يوم انبلاج شمس الحرية والاستقلال على ربوع الوطن؟.. وهل ارتقع هذا الشعر أيضا إلى مستوى الحدث، فعبر عنه بصدق نابع من إيمان عميق وانتماء حقيقي ؟.

تلك بعض التساؤلات التي تفرض نفسها بإلحاح، خاصة وأن هذا الشعر سبق أن عانق هموم وتطلعات الجماهير، وقف في طليعة الأعمال الأدبية باللغة العربية رافضا ومحرضا دعايا وموجها. حتى إذا جاء "الزلزال الثوري" في فاتح نوفمبر العظيم، وقف الشعراء في البداية مشدوهين مبهورين أمام "الطلقات العنيفة" التي تفوق قوتها صوت الشعر وصدى الأقلام. وقد أدرك الشاعر جان سيناك معنى ومغزى جدلية "الشعر والثورة" حين قال: "إذا كان الشعب الجزائري يخوض الحرب، فلأنه أيضا يطالب بحقه في الشعر!".

في البدء كانت الكلمة، ثم جاء الفعل، فسكتت الكلمة مؤقتا لتستمع إلى عزف البندقية.. لتستفيد في عملية تكوين وتركيب إيقاع جديد ولحن مميز يتناسب مع "مسيرة" موكب الثورة المظفرة.

لا ننكر بأن هناك الكثير من الشعر الذي كتب أو قيل عن الثورة أو من وحيها، لم يصل إلينا، بعضه ظل رهين، أوراق أصحابه، والبعض الآخر لا يزال مبعثرا، هنا وهناك بين الصحف والمجلات وحتى المنشورات، وقليل منه - أوهكذا

يبدو على الأقل- جمعه أصحابه في كتاب مستقل، وإن أهملوا غالبا تاريخ نظمه.

من هنا تبرز أهمية البحث الدقيق والعميق، لإرجاع الأمور إلى نصابها وإعطاء كل ذي حق حقه، ضمن عملية متكاملة عبر خطين متوازيين: مسيرة الثورة، ومواكبة الشعر. وتلك مهمة نبيلة وكبيرة وعسيرة ينبغي أن يضطلع بها أكثر من باحث وناقد.

وفي هذا المضمار بالذات، تأتي محاولتنا المتواضعة في مجال رصد مسيرة الثورة التحريرية من خلال مواكبة الشعر. معتمدا في ذلك أساسا على جل- إن لم نقل كل - المجموعات الشعرية التي ظهرت بعد الاستقلال، وإن كنا نلاحظ- منذ البداية- قلة القصائد التي قيلت أو نظمت حول عدد من الأحداث الكبرى القي شهدتها سنوات الثورة.

- وكانت الانطلاقة :

ومع ذلك لقد وجدنا بعض القصائد التي قيلت خلال الشهور الأولى من انطلاقة الثورة التحريرية، تتخذ لها رنة جديدة تمزج بين صوت الرشاش، ورائحة البارود لتنسج كلماتها المباشرة من خيوط دقيقة، فإذا القصيدة عملية مركبة من الشفافية والخطابية، من التصوير الظاهر والأسلوب التهكمي اللاذع.

فهذا الشاعر أبو القاسم سعد الله في قصيدته مواكب النسور التي كتبها بالجزائر العاصمة بتاريخ 24 ديسمبر 1959 كما ورد في ديوانه "الزمن الأخضر" يصور انطلاقة "مواكب النسور" بعد أقل من شهرين من اندلاع شرارة الثورة، فهي "مواكب لن تبور مدى العصور".

فبعد معايشة معاناة الشعب الجزائري، وهو يسبح ويقتنذ في البؤس والدموع، ويقررها ثورة كاسحة كالريح العاصفة "فإذا الثائرون على الطغاة يناضلون والخائفون يقهقهون ويسخرون".

لكن مواكبنا تسير

كالريـح تعبث بالخطير وبالحقيـر

كالفوهة الحمراء تقذف بالسعيـر

كالمدفع الغضبان دمدم في جنــون

و(الذرة) الخرساء تزأر في السكون

والكل يسخر بالقيـود وبالسجـون.

والقصيدة حافلة بالعبارات الموحية، في شفافية بعيدة عن الخطابية التي غزت واكتسحت معظم قصائد تلك الفترة.

فهي قصيدة تتجاوز "المرحلة الظرفية" لتجسد غضبة كل شعب أبي، في كل زمان ومكان... فحتى كلمات الشعب الجزائري - الثورة التحريرية- الاستعمار الفرنسي، جيش التحرير الوطني، ثم التعبير عنها تلميحا لا تصريحا... خوفا من سياط المستعمر وعيون أعوانه، وتبليغا لرسالة حكيمة يفهمها جيدا من تعنيهم. ولعل المقطع الموالي أسطع برهان على ما نقول:

نقش الزمان بمجدنا لـوح الخلود

فاخضرّ من نفحاتنا وجه السفـوح

وافتر من هامـاتنـا ثغـر الفتـوح

وتشنفت آهـات هـاتيك الحـدود

عبر الظلال الحالمات على الرمـال

فشكـت لقيثـار الخيــال

ذاك الـتـدلــه والنـضــال

من أجـل تكـيـيف الــزمـن

بـل قصـد تـحـريـر الـوطــن.

بينما الأمر يختلف عند شاعر آخر هو صالح خباشة، في رصده لانطلاقة الثورة

في شهرها الثاني، من خلال قصيدته "صرخة الحر" التي كتبها في ديسمبر 1954 وضمنها مجموعته "الروابي الحمر" وأشرنا إليها من قبل.

فهذا الشاعر يخاطب فرنسا المستعمرة مباشرة، في أسلوب تهكمي لاذع، يبرز مهارته في تطويع أدواته الفنية لرسم "صورة كاريكاتورية" للاستعمار الفرنسي، وهو يتلقى الجواب العملي من أبناء شعب أبي، فيلوذ بالصمت المقيت، بعد أن كان من قبل يختال منتشيا، فإذا بالنار الحامية تحرق جلده صباح مساء..

يا فرنسا هل خرست اليوم عيا *** أم تلقيت جوابي عمليا!
كنت جذلي كفراش يتغنى *** لا يرى النار له موتا وحيا
فلقد ذقت جحيمي ولظاها *** وسأصليك صباحا وعشيا

وبكل فخر واعتزاز يبرز الشاعر بطولة وشهامة المارد الجبار الذي انطلق من قمقمه، لينقذ شعبه من ظلم الطغاة، وينتزع حقه في الحرية والكرامة. حيث يقول:

فأنا المارد أفتك بلادي *** أسحق الغاصب سحقا أبديا
أنقذ الشعب الذي ديس طويلا *** فقضى الدهر، كما شئت، شقيا
كلما ناشدك الحق بلطف *** يتلقى حكمه منك قسيا

ويكاد يشترك الشاعر صالح خرفي مع سابقه خباشة في مخاطبة المستعمر الفرنسي مباشرة، من خلال قصيدته "أوراس" التي ضمنها ديوانه "أطلس المعجزات" مشيرا إلى أنها كتبت بتونس في سنة 1955م، أي في العام الأول من مسيرة الثورة.

ورغم ما في قصيدة خرفي من تضخيم وتحقير فرضتهما سياسة الجبروت والتعنت من طرف طغاة متعجرفين، لا هم لهم سوى سحق إرادة شعب ثار ليعلن على الملأ جميعا حقه المقدس في الكرامة والسيادة والسعادة، رغم ذلك جاءت القصيدة بليغة في تصوير بطولة شعب حطم الأغلال، وخاطب المستعمر بنفس اللغة التي يفهمها ويفقهها جيدا..

مهلا فرنسا لن تحطمنا القـوى *** نحن الأسود وجندك الأحلاس
مهلا فرنسا فالشعوب إذا غـوت *** لم يثنها عـن غيـهـا إبسـاس
وإذا سرت في الشعب صهباء التحر *** ر، فالمعـامـع عـنـده أعـراس
وإذا اشرأبت للعـلا أعنـاق شعـ *** ب، لـن تـذل أبيـهـا الإمـراس

ورغم صعوبة القافية، وسعي الشاعر وراء كل كلمة "سينية" وإن وردت أحيانا نشازا... فقد حرص الشاعر على تصوير معاناة الشعب الجزائري خلال الشهور الأولى من مسيرة الثورة، قبل أن يتقل إلى مخاطبة أبناء وطنه مبشرا إياهم بنصر مرتقب قريب...

لا تبتئس وطني ولا تيـأس فـإن *** النصر يقصيه لأسى واليأس
بل فابتهج، وطني، وابشر بالفـلا *** ح إذا بنشئك(غصت) الأحبـاس
فهيا كل الشهداء للمجد الأثيـ *** ل مـعـارج ولـه الرمـام أسـاس

ويكاد أسلوب مخاطبة المستعمر مباشرة، هو الأكثر والأنجع، كما هو الحال في ساحة المعركة حيث يخاطب لسلاح... ويكون النصر حليف الشجاعة والإيمان العميق بالقضية.

والشاعر مفدي زكريا يختار هو الآخر طريقة مخاطبة فرنسا مباشرة، من خلال قصيدته "النبيح الصاعد" التي ضمنها مجموعته "اللهب المقدس" بعد أن كتبها بسجن بربروس ليلة 18 جوان 1955 أثناء تنفيذ حكم الإعدام على أول شهيد دشن المقصلة الاستعمارية المرحوم (أحمد زبانا).

فالشاعر هنا يعلن للمستعمر نهارا جهارا بأن الشعب صمم على الكفاح المسلح كوسيلة وحيدة للتحرر والانعتاق ونيل الاستقلال المنشود...

يا فرنسا، كفى خداعا فإنا *** يا فرنسا، لقد مللنا الوعودا
صرخ الشعـب منـذرا، فتصـا *** ممت وأبديت جفوة وصـدودا

سكت الناطقون وانطلق الرشـ ••• ـاش، يلقى إليك قولا مفيدا:

"نحن ثرنا، فـلا حيـن رجـوع ••• أو ننال استقلالنا المنشـودا".

ولعل أسلوب مخاطبة المستعمر مباشـرة هـو القسم المشترك بـين معظم الشعراء الجزائريين في تلك الفترة، بعد أن فرضت الثورة نفسها في الساحة، وكان لزاما على الشعر أن ينتقل من طريقة الرمز والتلميح إلى المباشرة والتصريح.

- وفاتته أحداث..

وتتوالى الأحداث الجسام، والمواقف الخالدة التي أبدعها أبناء هذا الشعب العظيم. فإذا الثورة تفجر كوامن الشعراء، وتلهمهم بشعر دافئ يحاول أن يرتفع إلى مستوى عنف المعركة، وإن غاب عنه أحيانا كثيرة رصد كثير من الوقائع التاريخية.

ولعل أقرب مثال إلينا هو ذلك الهجوم الكبير والباسل لجيش التحرير الوطني في 20 أوت 1955، الذي أصبح بعد الاستقلال تخليدا "ليوم المجاهد" حيث لم نعثر على قصيدة واحدة "تؤرخ" لهذا الحدث البارز رغم أننا لا نستبعد مشاركة الشعر هنا، وإن أغفل الشعراء وقتئذ ذكر التاريخ والمناسبة، أو احتفظوا بإنتاجهم يومئذ بين أوراقهم الخاصة التي "هجمت" عليها صروف الدهر، فبعثرتها وأتلفتها، وحرمت الجيل الحاضر واللاحق من "جس نبض" الثورة، ومدى مواكبة الشعر لأحداثها وبطولاتها، خاصة خلال سنواتها الأولى، أو قد تكشف الأيام عن القديم الجديد، لاسيما وأن بعض الأصوات البارزة ظلت صامتة ـ كما يبدو حتى الآن ـ طوال تلك الفترة.

ومع ذلك يبدو أن الشعر الجزائري عموما كان يميل ويهتم بتخليد البطولات والموقف المشرفة والمشرقة، من غير أن يبالي بعملية التأريخ أو التوقف عند المناسبة لعينها، فالمواقف ثابتة صامدة في وجه الأيام والأعوام، بينما المناسبات سرعان ما تمحو آثارها مناسبات أخرى لاحقة متتالية، وقد لاحظنا من قبل مدى "عجز" الشعر أمام أحداث 8 ماي 1945م رغم هول المأساة، وبلاغة العبر المستخلصة.

مواكبة المسيرة

وسارت الثورة عارمة كاسحة، تدخل سنتها الثانية عاتية، تصنع البطولات، وتبدع الملاحم، على طريق تحقيق النصر الأكيد، وكان لزاما على الشعر - وقتئذ - أن يتابع خطواتها، ويواكب مسيرتها، ويتحسس جراح الشعب وهو يعاني من ظلم وبطش المستعمر الغاشم، وفي نفس الوقت يكافح ويناضل من أجل حقه الطبيعي، والشرعي في الحرية، و الكرامة، والسيادة.

وتمر الأيام والشهور ثقيلة الظل، مثخنة الجراح إلى أن تحل في 4 مارس 1956 بمدينة تبسة، بأقصى الشرق الجزائري تلك المأساة المهولة المتمثلة في إغارة المستعمرين على الأحياء الشعبية ظلما وانتقاما، فأتوا على معظمها حرقا وإتلافا، وعلى سكانها قتلا وتعذيبا، في محاولة يائسة لخنق الأصوات الرافضة الصامدة. فكان أن وقف الشعر منددا بوحشية الطغاة الذين هزمهم الثوار في الجبال والسهول والوديان "فاستنسروا" غدرا وظلما في وجه المواطنين الأبرياء.

والشاعر صالح خباشة سجل لهذا الحدث قصيدته "هول تبسة" التي ضمنها مجموعته "الروابي الحمر" حيث يترصد المأساة بالتصوير البطيء، ويبرز جليا غدر الاستعمار، وقهره وبطشه بسكانها العزل، لا يفرّق بين شيوخ ونساء وأطفال، فالتخريب والتدمير من طبائع الاستعمار الذي لا يرحم صراخ الطفل الشارد، ولاعطف الأم الحنون...

خرقوا القرية و العزل بها *** يا لمرعى نشطت فيه ذئاب
لا ترى غير صراخ الطفل من *** خلف أم هرولت دون حجاب
فهي تسعى بين طفل شارد *** وقعيد دون غوث، أوجواب
إنها الأم إذا ما افتقدت *** بعضها طار عن العقل الصواب

لا ترى غير عدو ينتضـــي *** خنجر النقمة يحتز الرقاب

ودخانا يتلاشى في الفضاء *** تحته " تبس " لهيب وخـراب.

وبعد أن يصور ما خلفه الغدر الاستعماري من ضحايا، ومآسي يعود الشاعر ليواسي أبناة وطنه، داعيا إلى الثأر والانتقام، بدل التشكي والعتاب، فالبطش لايواجهه ويجابهه غير العنف الثوري، الخلاق...

إن من طارده الحق فلا *** يتوارى فهو لا بد مصـاب

قسما بالثأر نصليك به *** ما خنشا في ميادين الغلاب

ضربة قاضية ما بعدها *** لفرنسا دولة الظلم مـآب

والشاعر صالح خرفي يتعرض لهذا "الحدث الجسيم" من خلال قصيدته "مأساة تبسة" التي كتبها بتونس بتاريخ 20 مارس 1956 وضمنها مجموعته "أطلس المعجزات" حيث يصف صنوف الأخطار التي سلطها المستعمر الظالم على أبناء شعب آمن، حرموه من أرضه وخيراته، وشردوه في القفار، وبعد أن يواسي الشاعر سكان تبسة في مصابهم الجلل، يؤكد أن الظلم يواجهه الإعصار، والحقد يجابهه الثأر، ولابد من انتزاع الشر من جذوره.

زفرات قوم أبيدوا عـن أرضهـم *** ظلما فهاموا في القفار حيارى

تلك المآسي قد كفانا وقعهـا *** ليثير بين ضلوعنا إعصـارا

إعصار حقد في الجوانح كامن *** إن ثار دك الشر و الأشـرار

بالأمس نطلب للبـلاد سيـادة *** فتثقوا بأن اليوم يطلب ثـارا

ويختتم الشاعر خرفي قصيدته بدعوة السكان إلى الصبر والجلد مؤكدا بأن بعد العسر يسرا، وأن بعد الحرج مخرجا، حيث ستعود العصافير غدا من جديد، لتجدد أوكارها، وتغني للحياة السعيدة...

صبـرا (تبسة) إن شقيـت بنـــار *** أوغاد بكأس الانتقام سكارى

سيزيح عنهم ظلمة الإسكار فجر *** للجـزائـر يـبـهـر الأنظـار
لا تحزني للوكر إن عصفت جبا *** برة بـه، والسـرب ريـع فطـارا
فغدا تؤوب الطيرو الآمال تحـدو *** سـربهـا فتجـدد الأوكـارا

وهكذا تجسد "مأساة تبسة" بطش المستعمر الفاشم، وفي نفس الوقت تبرز إصرار الشعب على الالتحام العضوي بالثورة، وهي تشق طريقها بعزم وحزم من أجل انتزاع الشر من جذوره، وتحقيق النصر الأكيد.

- العمال في المعركة:

و قبيل هذه المأساة، كانت الثورة التحريرية تشهد حدثا بارزا يتمثل في تأسيس الاتحاد العام للعمال الجزائريين بتاريخ 24 فيفري 1956 حيث تؤكد للجميع أن هذه الثورة مرفوعة على سواعد أبنائها العمال الكادحين، فهم جنودها ووقودها.

وقد خص شاعر الثورة مفدي زكريا هذا "الاتحاد الجديد" بنشيده الرسمي الذي نظمه بسجن بربروس في 12 جويلية 1956 وضمنه ديوانه التحموا بالثورة، والتحقوا بالثوار في الجبال والسهول والوهاد، فهم "في الحرب جنود، وفي السلم جهود" من أجل تحرير الجزائر الأبية، وطن الأجداد والأمجاد.

نحـن العـمـال بنـو الثـوره *** نحن الثوار ولا فخـره
في الحرب جنود.. في السلم جهود *** والـعـز لـنـا
من أجل جزائرنـا الشهـمـه *** وطن الأجداد ذوي الهمه
كسرت قيود... حطمت سدود *** والـعـز لـنـا

وهناك شاعر آخر هو أحمد عروة سجل الحدث. بقصيد تحت عنوان "نشيد العمال" ضمنه مجموعته "ذكرى وبشرى" التي صدرت عن "مكتبة الشركة الجزائرية"، وأغفل ذكر تاريخ كتابة القصيد، وإن أشار في مقدمة الديوان أن المجموعة نظمت في مدة الاعتقال أو أثناء الثورة.

ومن خلال هذا القصيد النشيد يحث الشاعر العمال على توحيد الصفوف والنضال في صفوف الاتحاد العام للعمال الجزائريين، لتحطيم قيود الاستعمار وبناء الجزائر السعيدة.

اعملوا ناضلوا *** يا جنود العمل

وحدوا جددوا *** يا وفود الأمل

نظموا شيدوا *** تحت ظل البنود

- في صفوف الاتحاد العام للعمال:

وهنا أيضا نلاحظ بأن حدث تأسيس هذه النواة الأساسية في مسيرة الثورة لم يواكبه الشعر بالشكل الكلي أو على الأقل لم نعثر على قصائد قيلت في حينها بالمناسبة، وهذا يبرز إلى مدى اهتمام الشعراء برصد وقع خطوات الثوار في أرض المعركة، وإغفالهم إلى حد ما متابعة تسجيل أحداث سياسة مكملة لملاحم الحرب التحريرية، فلم يتوقفوا كثيرا عند المناسبة لعينها - كما أشرنا من قبل - فالمواقف والبطولات ثابتة راسخة عبر الأيام والأعوام، غير أن المناسبات "العابرة" مهما كانت عظيمة، سرعان ما تمسح آثارها مناسبات أخرى موالية متتالية.

امتزاج الحبر بالدم

وكان لابد من أن تلتف الجماهير حول هـذه الثورة، وأن تلتحم بها جميع فئات هذا الشعب الذي ذاق مرارة ويلات الاستعمار طوال ليل ثقيل طويل، فإذا الجموع المؤمنة بحتمية الانتصار تصارع الأعداء، وتصارع للالتحاق بالجبال والوهاد، حيث للبطولة والشهامة، والشهادة.

لم تكن الثورة يوما ما من ابتكار أو صنع جماعة دون غيرها، فمن لم يستطع تقديم الكثير هو قادر على توفير القليل المفيد، ومن لم يجابه العدو بقوة السلاح، لن يتوالى عن الإسهام بأسلحة وأدوات أخرى قد لا تقل أهمية وخطورة. وهكذا كان، وصار الحال مع هذه الثورة الجبارة التي أفادت، واستفادت من انصهار القوى الوطنية في بوتقتها، فاندفعت الجموع متماسكة الصفوف متشابكة الأيادي إلى ميادين المعركة، باختلاف مواقعها وظروفها، لدفع عجلة الثورة دوما إلى الأمام.

لم تعد القضية تعني مجموعة محددة دون أخرى، وكيف لا وقد اكتوى الجميع بنار الاستعمار، فكان من الضروري أن يشارك الجميع كذلك، كرجل واحد، في محاربة الاستعمار ومقاومة المستعمرين. وكتاب الثورة الذي لا زال مفتوحا، حافل بأشكال وأنواع البطولة والشهامة والتضحية والشهادة... فحتى الذين لم يولدوا بعد يحفظون عن ظهر قلب سطور هذه الملحمة الخالدة.

وإذا كان المثقفون الوطنيون قد مهدوا السبيل القويم لاندلاع شرارة الثورة في فاتح نوفمبر 1954 م وسارعوا لاحتضان القضية، ورفع شعار ثورة التحرير عاليا، فإن أبناء الجيل الجديد الذي فتح عينيه على لهيب المعركة، وجد هو الآخر في هذا الحدث العظيم فرصة مواتية للبرهنة على ولائه للوطن المفدى، وحبه للحرية الغالية.

ومن هنا، كان النداء قويا، وكانت الاستجابة أقوى، فقد عقد الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في أواخر مارس 1956 مؤتمره الثاني وأعلن أن "كفاح الشعب الجزائري كفاح عادل وشرعي، ويساير تيار التاريخ".

وفي عز التحضير لامتحانات آخر العام، وجد طلبة الثانويات والمعاهد الجامعية في نداء جبهة التحرير الوطني فرصة مناسبة لترك مقاعد الدراسة والالتحاق بإخوانهم المجاهدين في الجبال والوهاد، في القرى و المدن فكان يوم 19 ماي 1956 يوما مشهودا في التاريخ الجزائري الحديث.

ومن خلال النماذج القليلة التي سجلت هذا الحدث العظيم، يقف الشعر مباركا هذه الخطوة الجبارة، من شباب صغار، كبار في آن واحد تركوا أقلامهم ودفاترهم وأسئلتهم وأجوبتهم، ليلتحقوا بالمعركة المقدسة التي ستصفع لهم ذلك الغد المنير الذي يحلمون به، ويعملون لتحقيقه.

والشاعر صالح خباشة كان من السباقين لتحية "أولئك الطلبة المضربين عن الدراسة في كامل أنحاء الجزائر، وفي كل بلد تستقر فيه المدارس الحكومية الاستعمارية، تضامنا وكفاحا مع جيش التحرير الوطنى وجبهته القومية". وقد خص هذا الحدث العظيم بقصيدته "أخي الطالب" التي كتبها في ماي 1956 بتونس، وضمنها ديوانه "الروابي الحمر" حيث يقول في مستهلها:

خض في الجزائر ثورة حمراء *** ودع المدارس والكتاب وراء
ثر غاضبا في وجه من سلب البلا *** د حقوقها فأضامها وأساء
ثر للتحرر والاخوة والمسا *** واة، التي رفعوا بهن لواء
وتبجحوا في العالمين بصنعهم *** ثم انثنوا لشعارهم أعداء

فالشاعر هنا يدعو بوضوح العبارة وبساطة الكلمة، الطالب الجزائري إلى الانصهار في بوتقة ملتهبة متأججة، يرمز لها بلون الدم والثأر، وليترك وراءه مقاعد

الدراسة وكتب المعرفة، عليه أن يثور في وجه من سلبوه البلاد والعباد، حقوقا مشروعة، وتنكروا لشعاراتهم المرفوعة عن "الحرية والأخوة، والمساواة" وكان الأجدر بهم أن يتركوا تلك الشعارات لأهلها المدافعين عنها، المكافحين من أجل تحقيقها لفائدة الجميع.

ثم ينتقل الشاعر خباشة إلى استخلاص العبر من استجابة الطلبة للنداء الوطني، إذ ماذا ستفيدهم الشهادة العلمية في ظل استعمار غاشم، جائم، وشعب يستغيث، فأعظم شهادة هي أن نموت شهداء في سبيل الوطن، ومن أجل الحرية، وأبلغ درس هو الذي نتعلمه بين أحضان الجبال، فللحرب أسلحتها، وللسلم أدواته.

ماذا ستغنيك الشهادة والجزا *** ئر تستغيث تعاسة وشقاء
ليس الشهادة صفحة نحظى بها *** إن الشهادة موتنا شهداء
لتكن معاهدك الجبال فدرسها *** أجدى وأرسخ في الحياة بقاء
فالبس لسلمك لبسه والبس لحر *** بك ذرعه فتحير البلغاء

وشاعر الثورة مفدي زكريا صاغ من بلاغة الحدث "النشيد الرسمي لاتحاد الطلاب الجزائريين" والذي ضمنه ديوانه المعروف: "اللهب المقدس". حيث يتحدث باسم طلاب الجزائر فيقول:

نحن طلاب الجزائر
نحن للمجد بناة
نحن آمال الجزائر
في الليالي الحالكات
كم غرقنا في دماها
واحترقنا في حماها
وعبقنا في سماها
بعبير المهجات

فهؤلاء الطلاب، بناة المجد، وآمال الجزائر سارعوا لتلبية النداء، مسترخصين حياتهم من أجل عزة بلادهم، ضاربين أروع مثال يحتذى في التضحية و نكران الذات. وفي هذا الصدد يضيف الشاعر.

فخـــذوا الأرواح منـــا
واجعلـــوهـــا لبنـــات
وخذوا الأفكار عنـــا
واعصـــروا منها الحياة
وابعثوا منها الجزائـــر
نحن من لبـــى نداهـــا.
عندما اشتـــد بلاهـــا
واندفعنـــا لفداهـــا.
والمنايا صارخات

وهنـاك شـاعر آخـر هـو محمـد الـشبوكي - صـاحب نـشيد جزائرنـا يـابلاد الجدود- ألهمه الحدث بقصيد أغفل تاريخ كتابته، بعد أن نشر في كتاب "الثورة في الأدب الجزائري" الذي جمع نماذجه صلاح مؤيد، والقصيدة بعنوان "الشباب الجزائري الثائر" فيبرز بعض معاني ودلالات تلبية النداء الوطني، حيث راح الشباب يسمو بعزم وثبات إلى المعالي، بإرادة فولاذية، من أجل حياة حرة كريمة. فيقول:

راح يسمو إلى المعالي بحـزم *** واصطبار يفل عزم الحديـد
فهو يبغي الحياة حرا ويأبى *** ذلة العيش تحت عبء القيود
ثائر يملأ الوجود كفاحا *** وينيـر الحيـاة بالتجـديـد
صادح يملأ الفضا لحونـا *** ويـهـز الحيـاة بالتفـريـد

ورغـم تـوفر تلـك النمـاذج الـشعرية القليلـة علـى مـساهمة الـشباب الجزائـري في المعركة، تلبية للنداء الوطني، فإن الحدث بقيمته وعظمته يكاد يكون غائبا عن قرائح الشعراء الذين أغفلوا - كما أشرنا من قبل- مسألة التاريخ للأحداث والانفعال

بها والتعبير عنها، فجاءت النماذج المتوفرة قليلة، دون عظمة الحدث، بمعانيه السامية ودلالاته العميقة، وعذر هؤلاء الشعراء في ذلك، أن بلاغة الحدث أقوى من بيان الشعر.

- صمود الصومام:

وتمر الأيام والأسابيع والشهور مثقلة بالأحداث المتتالية، الصغيرة منها والكبيرة، إلى أن يتوقف الزمن من جديد في منتصف صيف 1956 يشهد الحدث البارز العظيم "مؤتمر الصومام" الذي جاء بدوره ليخلد ذكرى هجوم 20 أوت 1955، وليعطي دفعا جديدا لعجلة الثورة قبيل احتفالها بذكراها الثانية.

كان المؤتمر بظروف انعقاده ونتائجه محطة فاصلة حاسمة في مسيرة الثورة التحريرية، حيث كان له الفضل الأعظم في إرساء قواعد القيادة الجماعية على أسس حكيمة سليمة، وتحديد خطط الثورة وأهدافها بكل دقة ووضوح.

ويكاد يمر هذا الحدث التاريخي هو الآخر دون أن يوليه الشعراء كبير اهتمام. تلك مسألة تحتاج إلى بحث من شتى الجوانب، ذلك أن الجانب الإعلامي والتاريخي للأحداث الكبرى كثيرا ما كان غائبا عن هموم الشعراء، و الأدباء عامة.

لذلك، لا عجب أن تجد هنا قصيدة وحيدة منشورة لها سبقها وإفرادها في تسجيل هذا الحدث العظيم، وهي للشاعر صالح خباشة، وقد ضمنها ديوانه "الروابي الحمر" تحت عنوان "مؤتمر الصومام" مع تقديم صغير جاء فيه ما يلي :

"كان يوم 20 أوت 1956 موعدا لاجتماع قواعد الثورة الجزائرية الظافرة، لتنسيق مختلف أجهزة الكفاح على أسس جديدة، فاستطاعت مخابرات العدو أن تعلم مكان الاجتماع وزمانه، ولكن مخابرات الثورة كانت أكثر يقظة، إذ صادف أن التقط أحد المناضلين السر من فم ضابط فرنسي مخمور في إحدى الحانات، فغير الثوار المكان إلى واد الصومام في آخر لحظة فأسقط في يد العدو".

وتتفاوت هذه القصيدة في تسجيل الحدث، من التلميح إلى التصريح، ومن جمال الوصف إلى خطاب المباشرة، وإن ظل الحماس الوطني هو القاسم المشترك بين أبياتها وألفاظها ومعانيها.

فالشاعر يترصد خطوات قادة الثورة وهم يقطعون تخوم الصحراء وأسلاك الحدود، وصخور الجبال، تحت ستر الظلام، مستبشرين مهللين بلقاء عظيم يجمع شملهم وخططهم بواد الصومام.

قطعوا تلك الفيافي والحدود الشائكه ••• هتكوا ستر الظلام
فالروابي في مداها والجبال السامكه ••• عبروها بسلام
لا ترى غير نجوم في سماها الحالكه ••• كل ما في الكون نام
غير أبطال بلادي، والسرايا الفاتكه ••• بأساطيل اللئام
زحفت للملتقى مستبشرات ضاحكة ••• ملتقى "واد الصومام".

وبعد أن يشير الشاعر إلى ظروف انعقاد المؤتمر، يصل إلى بيان نتائجه التاريخية التي بلورها "ميثاق الصومام" فأضحى دستور الثورة، ونبراس لسيرتها المظفرة.

نسق المؤتمر الثورة في الجبال ••• والسهول الناضرة.
سن دستور نضال، سن توحيد الشمال ••• بقواه الزاخرة
جبهة التحرير والجيش غدت خير مثال ••• للجيوش الثائرة.

ولعل وجود قصيدة وحيدة يتيمة تسجل لهذا الحدث البارز والمنعطف الحاسم في مسيرة الثورة يطرح أكثر من علامة استفهام حول الأدب والتأريخ للثورة، ومع ذلك قد تكون هناك بعض القصائد التي قيلت حول هذا الحدث آوذاك، ولكنها بقيت بين جوانح أو في "جيوب" أصحابها، ولذلك ضاعت وغابت عن جيل الاستقلال الذي لازال متشوقا لمعرفة الكثير عن أدب الثورة، وثورة الأدب وتلك قضية حيوية، أخرى، لاتزال في حاجة ماسة إلى إضاءة مختلف جوانبها لإعطائها حقها من الدراسة والاهتمام.

وقائع . . ومواقف

مع تعاقب الشهور والأيام اتسعت وقعة الثورة التحريرية، وامتدت جذورها في أعماق التربة، واشتدت أغصانها وفروعها، فإذا هي كثيفة متشابكة تعطي الظلال والثمار، وما انفكت الجماهير تلتف - عن إيمان واقتناع- حول هذه الشجرة المباركة، فتسقيها بدمائها الطاهرة، وترعاها وتحرسها بحمل السلاح وعزيمة الكفاح. وتمثل السنة الثالثة من عمر هذه الصورة، بداية المنعرج الحاسم في هذه السيرة المظفرة نحو النصر الأكيد، فقد دخلت الجماهير الشعبية بكل ثقلها في المعركة، لا فرق بين سكان المدن، وسكان الأرياف بعد أن استح ميدان القتال، ليشمل الوطن الجزائري كله.

وقد جاءت المناسبة مواتية للتعبير عن هذا الالتحام، عندما وجه جيش، وجبهة التحريري النداء الوطني إلى الشعب للتعبير العملي عن التضامن الفعلي مع إخوانهم المكافحين في السهول والجبال، فقد نهضت هذه الجماهير العريضة عن بكرة أبيها للقيام بذاك الإضراب الأسبوعي التاريخي من 28 جانفي إلى 4 فيفري 1957 بمناسبة مناقشة القضية الجزائرية في منظمة الأمم المتحدة.

- الإضراب العام :

وقد سارع عدد من الشعراء وقتئذ إلى تسجيل هذا الحدث التاريخي الذي كان بمثابة صفعة قوية على وجه أولئك الذين تجاهلوا ثورة الجزائر ونضال شعبها الأبي.

وتفاوتت درجة حرارة القصائد التي قيلت أو كتبت بالمناسبة، بين هذا الشاعر أوذاك، تبعا لمعاناة كل منهم ومدى تمكنه من أدواته الفنية وإن تميزت تلك الأشعار عموما بأنها ولدت خارج دائرة الحدث.. وشتان ما بين هذا الذي يساهم في صناعة

وصياغة الحدث، وذاك الذي يصوره من بعيد.

فهذا الشاعر أبو بكر مصطفى بن رحمون، يسجل الحدث بقصيد: "الإضراب الجزائري" الذي نشر بكتاب الثورة في الأدب الجزائري، حيث يصف الجزائر، وقد شلت الحركة في أرجائها أثناء الإضراب، تجسيدا لمدى الالتحام الثوري بين الجماهير وطليعتها المناضلة.

إن الجزائر أعلنت إضرابها ⁂ ولسان ثورتها يبين جوابها

أننت لدعوة جيشها وتألفت ⁂ صفا تضم كهولها وشبابها

أمضت ثمانية من الأيام لم ⁂ تفتح إلى أعمالها أعتابها

لم تخض صولة دولة قدصويت ⁂ لأذى الجزائر جيشها وحرابها

ويصف الشاعر أبو القاسم سعد الله هذا الإضراب التاريخي "بالتحدي والإصرار الجبار" من خلال قصيد له بعنوان "إصرار" كتبه من وحي المناسبة يوم 7 فيفري 1957 أثناء تواجده بالقاهرة، ونشر ضمن مجموعته "ثائر وحب"، فهناك أبواب موصدة وشعار في كل الدور، رغم إنذار الطغاة الظالمين لقمع ثار أسبوع كامل.

وتحدى الشعب الثائر

إنذار النازي الجائر

إصرار جبار

أبواب موصدة وشعار

في كل الدور المغسوله

شاي ـ أكدس بنادق

وثغاء نعاج سهرانه

وخيال يتقدم

أبطال ونعاج سهرانه

في أراضي المنتصره

ثلـج... مطـــر... جــوع

لا سوق تسعــة أيــام

قمة ثأر تسعة أيام

أما الشاعر صالح خرفي في قصيدته "أنهج خيم السكون عليها" التي ضمنها مجموعته "أطلس المعجزات" فيقدم وصفا "فوتوغرافيا" لإحدى المدن الجزائرية، وقد خيم عليها السكون، وهمدت وماتت الحركة في أنهجها ومرافقها أثناء الإضراب العام الذي تحدى غدر الذئاب الجائرة.

أنهج خيـم السكـون عليـــهـا *** وأناس بين المنـازل خـــرس

سكنت لا سكون عليها وكانت *** كعباب الخضم تطفو وترسو

غيـر دار (ومتريـــات) تـــدوي *** وذئاب سطت تجور وتقســـو

وهناك شاعر آخر هو حسن حموتن اغتنم الفرصة ليسجل الحدث من خلال قصيدته "الإضراب الأسبوعي" المنشورة بكتاب "الثورة في الأدب الجزائري"، حيث يحدث صديقه عن هذا الإضراب الخالد، ليصور بطش المستعمر في محاولات بائسة لتحطيم جدار التحدي..

وعلى المتاجر صب جام زعافـه *** وعلى ذويها صب سوط عذاب

تركوا المتاجر خلفهم مفتوحة *** منزوعة الأقـــفـال و الأبــواب

بقيت مدى الأسبوع تنهب دائما *** بل ملتقى السراق و النــهــاب

- خذلان المنظمة الدولية:

وكان من نتائج هذا الإضراب التاريخي أن سمع العالم أجمع بقضية عادلة لشعب مكافح، خلال عرض القضية الجزائرية أمام منظمة الأمم المتحدة في دورتها الثالثة عشرة، في بداية فيفري 1957.

وعالج الشاعر مفدي زكريا في قصيدته "وتعطلت لغة الكلام" التي تضمنها

ديوانه "اللهب المقدس" نتائج هذا الإضراب، وخذلان المنظمة الدولية في طرحها للقضية الجزائرية مبرزا بأن السلاح أصدق لهجة، والنار أبلغ حجة.. مستعيرا ببيان أبي تمام، وبلاغة فطاحل الشعراء..

نطق الرصاص فماأبياح كلام *** وجرى القصاص فما يتاح ملام
السيف أصدق لهجة من أحرف *** كتبت فكان بيانها الإبهام
إن الصحائف للصفائح أمرها *** والحبر حرب والكلام كلام
خير المحافل في الزمان جحافل *** رفعت على وحداتها الأعلام

ويكاد نفس المعنى يتكرر في قصيدة صالح خرفي "الدار هي الحكم" ضمن مجموعته "أطلس المعجزات" التي كتبها بالمناسبة، داعيا إلى مواصلة الكفاح بدلا من استجداء عواطف المجمع الدولي، فحرية الأوطان تنتزع بقوة الحديد والنار.

المجمع الدولي في(أوراس) لا *** في عالم يرعى عواطف من ظلمهم
حرية الأوطان يا عشاقها *** في النار في الرشاش في تلك القمم
المجمع الدولي في تلك المغا *** ور، حيث تنطلق الرصاصة كالنغم
صفحاته جثة العدا و يراعه *** رشاشنا والحبر من دمع ودم

- استشهاد بطل:

وبعد إخفاق منظمة الأمم المتحدة في معالجة القضية الجزائرية، يعود المستعمر إلى استعمال شتى الوسائل القهر و القمع، فيلقي القبض على البطل العربي بن مهيدي في 25 فيفري 1957، ويتعرض في زنزانة العدو لأبشع أنواع التعذيب والتنكيل إلى أن يستشهد هناك على يد الجلادين بقيادة بيجار السفاح.

ولا نكاد نعثر على قصيدة سجلت وقتئذ حدث استشهاد البطل العربي بن مهيدي رغم كثرة القصائد التي قيلت من طرف معظم الشعراء لتخليد ببطولات الشهداء، وقد كانت قصيدة "الذبيح الصاعد" للشاعر مفدي زكريا أروع قصيدة

خلدت استشهاد أحمد زبانا أول بطل يدشن المقصلة الاستعمارية ليلة 18 جوان 1956، حيث نظمها الشاعر بسجن بربروس في الهجيع الثاني من الليل أثناء تنفيذ حكم الإعدام علي المرحوم أحمد زبانا، وقد استحقت هذه القصيدة الرائعة عن جدارة أن تتصدر ديوان "اللهب المقدس".

قام يختال كالمسيح وئيدا ‎*** يتهادى نشوان يتلو النشيدا
شامخا أنفه جلالا وتيها ‎*** رافعا رأسه يناجي الخلودا
اشنقوني فلست أخشى حبالا ‎*** واصلبوني فلست أخشى حديدا
أنا إن مت فالجزائر تحيا ‎*** حرة مستقلة لن تبيدا

- مأساة القصبة:

ويواصل المستعمر جبروته طغيانه، وتشهد جبال الجزائر ووهادها بطولات الثوار المكافحين، وتتزايد عمليات الفدائيين، داخل المدن، ويقيم المستعمر "خط موريس المكهرب" قبيل محاصرة حي القصبة بالجزائر العاصمة في أكتوبر 1957، وتفجير القنابل التي تسببت في استشهاد عدد كبير من السكان، من بينهم البطل المعروف "علي لابوانت".

وسجل الشاعر صالح خباشة في قصيدته "مأساة القصبة" التي ضمنها مجموعته "الروابي الحمر" هذا الحدث منددا بوحشية الطغاة معيدا إلى الأذهان وعيد وتهديد عمرو بن كلثوم الجاهلي حيث يقول:

أعاصمة الجزائر خبرينا ‎*** من (القصباء) والمستعصمينا
وماذا بيتو للحي ليلا ‎*** فأصبح مدفنا لساكنينا.
محال أن تمسوا من قوانا ‎*** فتيلا أو تروعوا الثائرينا
إلى التحرير شئتم أوأبيتم ‎*** ففجر النصر لاح لنا مبينا

وقد كان حي القصبة من أقدم الأحياء العربية في الجزائر، يمثل تلك القلعة الحصينة للأعمال الفدائية إبان الثورة، ولذا كان هدفا للغارات والمجازر الفرنسية الوحشية، وقد صوّر الشاعر صالح خرفي بدوره هذا الغدر الاستعماري في قصيدته "مأساة حي القصبة" حيث النار والأنقاض والتحدي والإصرار.

فحي القصبة التهمته نار *** فبات المرء والمأوى رمادا

فتلك القصبة المصلاة نارا *** فزادت نار ثورتنا اتقادا

فهل بجبروتها أطفأ لهيبا؟ *** وهل بلغوا بقسوتهم مرادا؟

غير أن تلك المجازر والأعمال الوحشية الاستعمارية، لم تزد الشعب إلا إصرار على مواصلة الكفاح حتى النصر الأكيد، فهبت الجموع من جديد لتناصر الثورة والثوار، لا فرق بين رجل وامرأة، فلكل منهما دوره الفعال في المعركة.

جميلات . . وراء القضبان

ساهمت الثورة في خلق إنسان جديد، سماته الصمود، والشهامة والشجاعة، وحولت المرأة الجزائرية من مجرد ربة بيت، أو عاملة في مكتب، أومعلمة في مدرسة، أو ممرضة في مستشفى، إلى رفيقة نضال وكفاح، تشارك الرجل ـ حسب طاقتها ـ في أرض المعركة جنبا إلى جنب، وتحولت من ليلى العاشقة أوالمعشوقة إلى جميلة أوفاطمة المناضلة والمكافحة، تتعرض مثل رفيقها الرجل للسجن والتعذيب، والتنكيل والاستشهاد، لتظل رمز خصب النضال وإبداع النصر.

وقد عبر جل الشعراء وقتئذ ـ إن لم نقل كلهم ـ عن هذا التحول الكبير في حياة حواء الجزائر، فنقلوا إلينا مشاركتها الحميدة والفعالة في الكفاح التحريري، وما تعرضت له من قمع، واضطهاد، منوّهين ببطولاتها، وقدرتها على التضحية والتحدي.

وقد سارع الشاعر محمد الصالح باوية في قصيدته "إنسانة الطريق" التي ضمنها مجموعة "أغنيات نضالية" إلى تصوير انتفاضة المرأة، وهي تحطم الأغلال لتمضي لحمل السلاح، مشجعا إياها على معانقة البندقية بين الروابي والحقول، حيث يقول:

لم تعودي خمرة للظلم ـ أختي *** لم تعودي زفرة الكوخ الذليل
عانقي المدفع والريح فطفلي *** يرقب الثدي مع النصر الجميل
أنت للمدفع، للراية، للثأر *** هنا بين الروابي والحقول
أنت شلال رهيب وشروق *** يحضن البعث مع النصر الجميل

وقد ساهم اندماجها في قلب المعركة في رفع معنويات الثوار، وأكسبتهم الثقة في قرب ساعة النصر، ويجسد الشاعر أحمد عروة هذه المشاركة الفعالة في قصيدة "نشيد الثائرات" المنشورة بمجموعته "ذكرى وبشرى".

قلدتك الثورة الكبرى وسام الثائرات

ورأيناك تجوبين الجبال الشاهقات

فشهدنا النصر خفاقا بأرض المعجزات.

والشاعر مفدي زكريا ينظم نشيد "بنت الجزائر" بسجن بربروس في شهر أوت 1956 كما يشير في ديوانه "اللهب المقدس" حيث يبرز أشكال ومجالات كفاح المرأة على لسانها، ومعاني ودلالات نضالها الذي حير الرجال.

في صفوف القتال *** أنا ألهب نارا

من أعالي الجبال *** أنا أدعو البدارا

في معاني النضال *** أنا كنت المنارا

وتركت الرجال *** في جهادي حيارا

وساهمت الثورة التحريرية في تقييم واقع المرأة الجزائرية، فهي: مجاهدة، ومكافحة وفدائية وممرضة، إلى جانب إخوانها الثوار. تتعرض مثلهم للاعتقال والتعذيب والتنكيل والاستشهاد. فقد كانت الجميلات، والفاطمات عنوان التحدي والصمود، ومطلع قصائد عدد من الشعراء هنا وهناك الذين بهرتهم بطولات الجميلات الثلاث... جميلة بوحيرد، وجميلة بوباشا، وجميلة بوعزة.

ولذلك لا عجب أن نجد شاعرا مثل صالح خرفي وقد وهب "حبه قربانا وبايع الجزائر- بعد أن أمسى الحب ثورة بين الحنايا، واستحال الورد شوكا ودما وضحايا" كما يقول في قصيدته "نداء الضمير" التي غنتها وردة الجزائرية من تلحين الأستاذ رياض السنباطي، في أوج أعوام الثورة. هذا الشاعر يهزه إقدام المستعمر على إصدار حكم الإعدام على "جميلة" الذي ضمنه ديوانه "أطلس المعجزات" فيتمنى لها أن تموت على يد الجلادين، فاستشهادها نصر مبين لهذا الشعب المكافح، وويل وسكين للعدو المتغطرس.

حية أنت، فديت الشعب، فأفديه قتيله

صرخة منك على مشنقة الظلم النذيلة

سكتــة منك على مقصلة الغدر الذليلة

سوف تعلي صرخات الشعب في عيد البطولة.

والشاعر أبو القاسم سعد الله يكتب وقتئذ قصيدة "حقل الزيتون" المنشور بمجموعة "ثائر وحب" ليحكي أسطورة فتاة وطنية واجهت الاستعمار لتصنع الحياة الجميلة الزاهرة، والمزدهرة.

يا غنوة حقلي

شدى الأوتار المرخية

واحكي للصخر وللنخل

أسطورة أنثى وطنية

عاشت في الحقل وللحقل

عصفورة حب رفرافة

نسجت للحقل أمانيه

وشدت للكون أغانيه

في رجة مدفع

في طعنة خنجر!

والشاعر صالح خباشة يطلق على جميلة المضطهدة اسم اللبؤة الجزائرية ليصدر قصيدته المنشورة بمجموعته "الروابي الحمر" مندداً بوحشية المستعمرين الذين هاجوا وارتكبوا أكبر الفظائع، ولم تسلم حتى بناتنا من الحكم بالإعدام.. فأصبحت المرأة الجزائرية رمز الفداء والبطولة.

أصبحت يا بنت الجزائر للبطو *** لة والفدا علما من الأعلام

ورسمت للبنت الأبية لوحــة *** من مثلها عجزت يد الرسام

لا تيأسي فالفجر لاح ضياؤه *** أمع الضياء بقية لظلام!

وللشاعر محمد بلقاسم خمار قصيدة جميلة عن "جميلة" البطلة كتبها بدمشق يوم 6 أوت 1959 وضمنها مجموعته "إرهاصات سرابية".. فهي عنده نضال وعزة وبطولة، وقد سجدت عند راحتيها الرجولة...

يا جميلة وما عهد نساك إلا *** دعوات للجهاد جميلة

لمي الجرح فالنهـار تجلـى *** والربيع الندي أرض ظليلـه

لك من حولنا رفيقـات عهـد *** جئن يحملن للعلا أكليله

كل بنت منهن أمضى من السهم *** وللحرب والفخار سليلـه

تلك هي ملامح وقسمات الجميلات والفاطمات، وقد تزينت بالشهامة والبطولة متحدية عذاب وتعذيب السجون والزنزانات.. وقد رسمت البطلة جميلة بوحيرد صورة لمعاناة زميلتها جميلة بوعزة في مقال لها نشر بمجلة "كل العرب" بتاريخ 7 نوفمبر 1984، حيث تقول عنها: ".. لم تكن أقل جرأة عندما اختتمت محاكمتها بقولها: "أنا لست مجرمة وما فعلته إنما فعلته باعتباره مثلا أعلى" وتحملت بعد ذلك بهدوء وبرباطة جأش كالأخريات الإقامة في زنزانة المحكومين بالإعدام".

- سجون .. وتعذيب :

إذا كان القهر الاستعماري لم يفرق بين هذا وذاك، بين تلك والأخريات، فإن الثورة التحريرية قد ضمت إلى صفوفها جميع الوطنيين المخلصين، من الرجال والنساء... حتى الأطفال ولدوا كبارا، وكان لهم إسهامهم حسب حدود طاقتهم.. لقد ساهمت كل أسرة جزائرية بنصيبيها في معركة التحرير فكان من بين أبنائها الشهداء والمعطوبون والمسجنون والمجاهدون الأبطال.

قد رسم معظم الشعراء الجزائريين بما يملكون من أدوات فنية متفاوتة من حيث درجة الجودة، نماذج حية من صور البطولة والشهامة والشهادة... بل أن أغلبية قصائدهم لا تخلو من التفاتة إلى مثل تلك الموضوعات التي وجدت لدى الشعراء الأرضية الخصبة، والمنبع الفياض، لأدبهم الثوري الذي يتجاوز حدود المناسبات العابرة، ليمتد إلى المواقف النضالية والإنسانية الصادقة.. وهل هناك أبلغ من السجن كمدرسة للثوار والمناضلين والوطنيين المخلصين..

فالشاعر أبو القاسم سعد الله يخص "الثائر الأسير" بعنوان قصيدته العمودية

التي نشرها ضمن مجموعته الأولى "النصر للجزائر" ... وقد كتبها بالقاهرة في 29 ماي 1953 وفيها يخاطب هذا الثائر البطل الأسير، فدماء وجهه نور به تسير الجزائر ... وناره تلهب العزم، فتضمحل الأخطار...

دماء وجهك نور *** به تسير الجزائر

وخفق قلبك لحن *** يهز فيها المشاعر

ونارك حقل لتشوى *** وجوه تلك المناظر

وتلهب العزم فينا *** فتستلذ المخاطر

والشاعر مفدي زكريا يكتب قصيدته "أنا ثائر" أثناء فراره من السجن في طريقه إلى المغرب الأقصى في مارس 1959 فالثائر يزلزل القهر والرعب، هنا وهناك، في الحنايا والزوايا لا يخشى المنية، يناجي البندقية، وينشد الحرية

قام كالمارد.. يرتاد المنايا
وتهادى
يملأ العالم بشرى
وتمادى
يغمر الأكوان عطرا
ومضى يبني على هام الضحايا
وتنادى
يلهم التاريخ سفرا.

وقد عانى الشاعر الكبير محمد العيد آل خليفة من ويلات الاستعمار، حيث ألقي عليه القبض، بعد اندلاع الثورة، وزج به في السجن، وامتحن بتجربة استعمارية قاسية، قبل إطلاق سراحه بعد محاكمته، فألزم، بالإقامة الإجبارية في بلدته الوديعة "بسكرة" وحرم من حق الاجتماع، وطوق برقابة شديدة إلى انتهاء الثورة وبزوغ فجر الاستقلال.

وأثناء تلك الإقامة الإجبارية نظم قصيدته "أبا المنقوش" التي يضمها ديوانه الكبير

وفيها يناجي الجبل "بومنقوش" القريب من بسكرة، بالجنوب الشرقي الجزائري ويبثه حاله وأحواله ويكبر فيه علوه وصموده في وجه العواصف..

أبا المنقوش هل تدري بحالي *** فأنت اليوم جاري في الجبال
ببسكرة النخيل حططت رحلي *** وأنت بأرضها حامي الرحال
رماني حول سفحك موج دهري *** أسيرا بعد أحداث طوال
أخال إقامتي جبر كقبر *** حلمت إليك كالجثث البوالي
يعيش الحر مثلك وهو حر *** يلاقي كل عصف وهو عالي

لقد كان الاستعمار الفرنسي يلقي القبض على كل شخص متهم بالوطنية، وقد أصدر قانونا خاصا بهذا الشأن، يحمل رقم 80 في ربيع 1955 يخول للسلطات الاستعمارية إلقاء القبض على كل فرد "مشبوه" بكونه من الثوار أو المتعاونين وتسليط العذاب عليه وتركه في السجن، والشاعر أحمد الطيب معاش يصور ظاهرة إلقاء القبض على الوطنيين المشبوهين، وسلبهم أموالهم وممتلكاتهم، وتعرضهم لشر العذاب، وذلك من خلال قصيدته "مشبوه." التي نشرت بجريدة "البصائر" بتاريخ أول أفريل 1955 وضمنها ديوانه "التراويح ... وأغاني الخيام".

قالوا خذوه فإنه مشبوه
وامضوا لما في البيت فانتهبوه
ما ناله بالكدح قد سلبوه
وإذا تأبى للردى وهبوه
لن يرحموه . . فإنه مشبوه
ساقوه للبلاد حيث يعذب
شر العذاب لأجل شر الاغتراب
في كل سوط وازدجار مطلب
يسعى به للذنب من غير اقتراف
فيدان؟.. ذلك لأنه مشبوه

وهكذا كان يواجه المستعمر الوطنيين، والثوار بالاعتقال، والتعذيب في ظلام السجون والمعتقلات كمحاولة يائسة لتحطيم عزيمة المكافحين المخلصين. وقد "كان السجن في تاريخ الثورة الجزائرية، كما تقول الدكتورة نور سلمان في كتابها: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير(ص371)، ميدانا آخر من ميادين المقاومة، والرفض والشهادة، فهو محراب الضحايا ومثواهم، في حنايا الأسود، وفيه المجد التليد... ويشكل شعر السجن نسبة ملحوظة من الشعر الذي نظم خلال الثورة، وهو يعكس حضور الشعراء الثورة ومساهمتهم في النضال، مما عرضهم كسائر المناضلين لظلمات السجن وآلامه، واستمروا ينظمون فيه شعر الصمود والتأمل الحزين".

والشاعر صالح خباشة يتحدث باسم السجن في قصدته "الصامدون" التي ضمنها مجموعته "الروابي الحمر" متحديا جلاده الذي أخفق في تعذيبه، ولم يثنه عن عزمه مواصلة الكفاح وسط الجموع الزاحفة.

إن ضاق سجني لم يهن فؤادي *** لا يسترق الحر بالأصفاد
أخفقت في التعذيب يا جلادي *** ما كنت يوما خائنا بلادي.
لا أنثني يوما من الكفاح *** أو يستبين مشرقا صباحي
لا تطلقوا - إن شئتم - سراحي *** زحف الجموع في غد مفتاحي.

وهكذا ظل السجن ميدان مقاومة وصمود، فرغم عذاب الزنزانات فقد استمر النضال مكملا لتأجج الكفاح... وقد وجد معظم الشعراء في موضوع السجن والمعتقلات التعذيب والتنكيل مادتهم الأساسية في كثير من قصائدهم النضالية. ولعل أبلغ القصائد الثورية للشاعر مفدي زكريا هي التي نظمها داخل سجن بربروس الرهيب، وسجل من خلالها ما كان يتعرض له السجناء من أصناف التعذيب على الطغاة الجلادين.

إلتحام حتى النصر

إنها الملحمة الكبرى، يبدعها الإنسان الجزائر، وهو يكافح المستعمر الفرنسي من أجل انتزاع حقه المشروع في الحرية والسيادة والكرامة، فكل رقعة من أرض الوطن، شهدت أروع صور البطولة والشهامة، كل شجرة باسقة في الجبال والتلال والوهاد، سقيت جذورها بدماء الشهداء الأبرار.

الأعوام تمضي وتمضي، وعنفوان الثورة يشتد، ومهما بلغ الشعر من سحر البيان، فقد ظل عاجزا عن الوصف، والمتابعة والانصهار، وأن حاول الشعراء وقتئذ أن يلتحموا بالثورة المعجزة وإن يستعيروا منها مفرداتهم وكلماتهم، لتكوين قاموسهم الشعري الذي طفت عليه "مصطلحات" المرحلة الكفاح، الجهاد، القتال، النضال، البسالة، الشجاعة، الشهامة، البطولة، الصمود، الاستشهاد، الثورة، البندقية، القنيفة، الرشاش، النار والحديد، اللهيب، التعنيب، التنكيل، السجون، المعتقلات.. الخ

قد حرص شعراء الثورة على بساطة اللغة، وعفويتها رغم ما بها من رنين، وأنين الألفاظ المنمقة، وأسلوب الخطابة المباشر، فقد خفت الهمس أمام ضجيج المعركة، ولم يعد التلميح كافيا لتبليغ تصريح الثورة وإسماع صوتها بين الأمم وظل هؤلاء الشعراء على فلتهم وقتئذ، حريصين علي تسجيل صور البطولة، والشهامة، متعمدين على ما تسعفهم أدواتهم التصويرية من جودة لفظ، ودقة معنى، وإن أغفلوا في أغلب الأحيان تسجيل المعارك والأبطال والشهداء بأسمائهم، ومتابعة وقائع الثورة بجانبيها العسكري والسياسي، الداخلي والخارجي.

عدوان ساقية سيدي يوسف

لقد فوضت الثورة الجزائرية بكفاحها البطولي، وبعدالة قضيتها احترام ومؤازرة الأشقاء والأصدقاء من الشعوب المحبة للحرية والعدالة والتقدم، فكانت أيام وأسابيع التضامن تقام هنا وهناك مخلدة اسم الجزائر المكافحة.

وانصهرت وقتئذ وحدة أبناء المغرب العربي، في بوتقة الكفاح ضد الاستعمار، واختلطت دماء الأشقاء على الحدود المشتركة، وقد جاء العدوان الغاشم على قرية ساقية سيدي يوسف على الحدود التونسية الجزائرية ليبرز حقيقة المستعمر، ليدعم أواصر التضامن والإخاء، وسيظل يوم 8 فيفري 1958 عنوان صفحات خالدة كتبت بدماء أبناء الشعبين الشقيقين.

ولعل أبرز قصيدة قيلت بالمناسبة، هي تلك التي كتبها الشاعر صالح خباشة تحت عنوان "مأساة الساقية" وضمنها مجموعته "الروابي الحمر" حيث يصف همجية العدوان الاستعماري على هذه القرية الوديعة بدعوى أنها مركز لانقضاض جيش التحرير الجزائري على القوات الفرنسية.

خطوا لساقية الدماء صحائفا ••• بيضاء وأخرى للعدا سوداء
واستنزلوا اللعنات فوق المعتدى ••• كم حكموا في حقنا الأهواء
لوشمت سرب الطائرات صغيرة ••• فوق المنازل تمطر البلواء
لو رأيت هولا فاجعا ومآسيا ••• تدمي القلوب تمزق الأحشاء.

ثم يصف الهول الفاجع، فهذه الحرائق تحجب وجه السماء، وهذا شيخ لم تمهله القنبلة ليتم صلاته وعبادته، وذاك طفل رضيع يصف بين أحضان أمه تمزقها القذائف، وصغار مدرسة أبيدوا تحتها من غير أن يدعو الأم أو الأب. وبعد ذلك، يلمح الشاعر إلى الكفاح المشترك لأبناء الشمال الإفريقي، لشعوب المغرب العربي التي

وقفت في السراء والضراء كالرجل الواحد، قوة وصلابة.

كل "الشمال" مراجل تغلي عليـ *** ك، أيا فرنسا قد نزلت بلاء

إن "الشمال" تلاحمت أعضاؤه *** من مس جزءا ثور الأجزاء

إنا وقفنا دون بغيك جبهة *** تفري الحديد عزيمة و مضاء

لا نرتضي إلا الجلاء فكيف ير *** ضى المستقل بأرضيه دخلاء

لقد مني الغدر الاستعماري بالفشل الذريع، وتحطمت وسائله الجهنمية على صخرة الصمود والتحدي، وانكشفت للعالم حقيقة المستعمر بعد أن تهشم القناع.

- حكومة الثورة:

وكان النضال السياسي مكملا للكفاح العسكري، حيث نشطت جبهة التحرير الوطني في التعريف بعدالة القضية الجزائرية، وحق الشعب في الحرية والسيادة مثل جميع أمم الأرض.

وما أن حل يوم 19 سبتمبر 1958 حتى كانت إذاعات ووكالات أنباء العالم تنقل خبر ميلاد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وتتوالى إثرها مباشرة الاعترافات، والتأييد من حكومات الدول الشقيقة والصديقة، وقد سارع الشاعر صالح خرفي إلى تسجيل الحدث التاريخي في قصيدته "عهد جديد" التي ضمنها مجموعته "أطلس المعجزات" مهنئا أبناء الشعب الأبي بميلاد حكومة الجزائر.

يا ابن شعبي تبوأ اليوم شمسا

لا تطأطئ أخي إلى الأرض رأسا

فدع الأرض والثرى لفرنسا

أنت تحيا مواقفا ليس تنسى

يوم زفوا إليك أغلى البشائر

بتبني "حكومة" للجزائر.

والشاعر صالح خباشة يعود بدوره ليمجد المناسبة، في قصيدته "الحكومة الحرة للجزائر" التي ضمنها مجموعته "الروابي الحمر" فهو يعتبر هذه الحكومة صوت الشعب المعبر عن إرادته وطموحه..

حكومة "جبهة التحريــر" دوت *** فأسمعت الكنائس والقبابا
لقد بعثت على الأعدا كموســى *** على فرعون هما وانتخــابا
فما كحكومة التحرير كفو *** يفاوض عن إرادته مهــابا
قد انبثقت من الشعب الــمفدى *** كما تلد السماوات الشهابا.

إنه نصر مبين حققه الشعب الجزائري ليدعم كفاحه البطولي وليرفع معنويات الثوار المكافحين، متحديين جبروت الاستعمار وعساكره، وعتاده وأسلاكه الشائكة، وألغامه المبثوثة، فلهيب الثورة في كل مكان في الجبال والمدن والأرياف، وامتدت شرارته إلى أعماق التراب الفرنسي نفسه.

- ديغول في الجزائر:

لقد جن جنون المستعمر، ولم تجده أو تفيده نجداته المتوالية، ولا دعم الحلف الأطلسي، فقد الرئيس الفرنسي ديغول صوابه، وسارع إلى جولة في الجزائر لجس النبض، من 3 إلى 7 ديسمبر 1958، تزامنت مع مبادرة جيش التحرير الوطني بإطلاق سراح 8 عسكريين فرنسيين، ولأول مرة أرغم الجنرال ديغول في خطابه بالجزائر على التلميح إلى "الشخصية الجزائرية".

وقد ندد الشعب وقتئذ بهذه الزيارة المشؤومة، وبرزت ملامح هذا الموقف بين ثنايا عدد من قصائد الشعراء الذين ربطوا دوما اسم ديغول بالاستعمار والبطش والقهر فهذا الشاعر أحمد الطيب معاش في قصيدته "هذيان ديغول" ضمن ديوانه "التراويح وأغاني الخيام" يخاطب الرئيس الفرنسي ليسمعه صرخة الثوار المصممين على انتزاع النصر..

دوغـــول اسمـــع مـــن ثـائـــر *** كل الجزائرمنه كالبركان

قد هب كالإعصارينسف غادرا *** ويدك صرح الظلـم والعـــدوان

لن تستطيع اليوم يا ديغـــول أن *** تأتى بما ينجيك مـــن نـيـــران

طغيانك المأثور ليس يخيفنـــي *** بل ذاك يذكي فـــورة الغليـــان

والشاعر مفدي زكريا يخاطب ديغول من خلال قصيدته "اقرأ كتابك" المنشورة "باللهب المقدس" ليبرز بأن إرادة الشعب تجلت يوم أعلنها ثورة تحريرية عارمة، وقـال: لا للاستعمار. إنه اختيار شعب يوم "الاقتراع"..

واستفت ديغـــول شعبـــك إنـه *** حكم الزمان فما عسى أن تصنعا؟

شعب الجزائر قال في استفتائه *** لا.. لن أبيح من الجزائـــر أصبـــعـــا..

واختار يوم "الاقتـراع" نفمبـــر! *** فمضى و صمـــم أن يثـور ويقـــرعـــا.

- في الأمم المتحدة:

لقـد فرضـت الثـورة التحريريـة صـوتها، وصـيتها في الـداخل والخـارج وسمـع بأحـداثها، وحوادثهـا القريـب والبعيـد، وانتقـل اللهيب مـن أعـالي الجبـال والتلال إلى أغوار شوارع وسـاحات المـدن والقـرى، وانطلقـت الشـرارة إلى عمـق الـتراب الفرنسي ذاته، وفرضت القضية الجزائرية نفسها على الأمم المتحدة في دورتها المتوالية، لتسمع صداها، ولتمتحن رغبتها وعزيمتها، ومصداقية مواثيقها وأعمال لجانها.

والشاعر صالح خرفي تابع من بعيد عرض القضية في الأمم المتحدة، فهو يرى بأن "المجمـع الـدولي في أوراس، لا في عـالم يـرى عواطـف مـن ظلـم. فحريـة الأوطـان، ياعشاقها، في النار، في الرشاش، في تلك القمم". وقد أفرد للحدث قصيدتين: "النار هي الحكم" و"الأمم المتحدة"..

"كواليس" بها وئد الضمـــي *** رفيا دنيا إلى أين المسيـــر؟

قفي في "المجمع الدولي" وهنا *** ففي إرجائه انتحـر الشعـــور

فيا "جمعية الأمم" استجـارت *** بك الدنيا، فهل صدق المجير؟

والشاعر مفدي زكريا لا يترك المناسبة تمر عابرة دون أن يترصد وقائع مناقشة القـضية الجزائريـة، خـلال الـدورة الرابعـة عـشرة للأمـم المتحـدة المنعقـدة في خريف1959، والتي سفرت عن تواطؤ دول الحلف الأطلسي على خذلان اللائحة الإفريقية الآسيوية، فسجل الحدث، الواقعة من خلال قصيدتي "أكذوبة العصر" و"أهدافنا في العالمين صريحة".. حيث يقول في الأولى:

يا للحماقات في "نيويورك"كم حفظت *** فيها الجزائر لـلأجيال من عـبـر

مهازل تضحك الأحجـار جاء بـه *** قوم، قلوبهم قدت من الحـجـر!

أن يطلبوا السلم في الدنيا فهل ذكروا *** أن الجزائر ترمي الكون بالشـرر؟

أو يعقدوا "ندوة الأقطاب" هل علـمـوا *** أن البرايا من الأقطاب في ضجـر؟

ويختم الشاعر قصيدته بتمجيد ثورة الشعب الجزائري الذي عقد العزم على أن ينتزع حريته ويقرر مصيره بالدم الغالي:

وفي الجزائر شعب ثار مندفـعا *** للمجد يسخر بالأحداث و الغير

لا نرتجي العدل من قوم سماسرة *** خير البرية منهم غير منتظـر

مصيرنا بالـدم الغالي نـقـرره *** في محفل الموت لا في عقد مؤتمر

وبالفعل فرض الشعب إرادته بحد السلاح، وبمواصلة الكفاح، فانصاعت الأمم المتحدة، بعد ذلك، لإرادته في تقرير مصيره ونيل حريته.

- مناورة في الصحراء:

لكن وغم مؤامرات العدو ومناوراته ودسائسه ظل الكفاح مستمرا يحقق الانتصار تلو الانتصار، ويكبد المستعمر الهزائم النكراء، فقد عقد الشعب العزم على أن يواصل ثورته المظفرة حتى يحقق حريته وسيادته على كامل التراب الوطني. وعندما عجزت القوات الاستعمارية عن إخماد لهيب الثورة، شرعت في استخدام

أساليبها الدنيئة لفصل الصحراء عن أرض الوطن، بعد اكتشاف كنوزها وخيراتها الباطنية الوفيرة، وأهمية موقعها الإستراتيجي في القلب الإفريقي.

وهكذا قامت بأول تجربة نووية في "رقان" بالصحراء في 13 فيفري 1960 تبعتها بتجربة ثانية في أول أفريل من نفس السنة غير مبالية بتنديد ممثلي الثورة الجزائرية، ولاحتجاجات الرأي العام العالمي. وقد سارع الشاعر مفدي زكريا في "سبق أدبي" إلى تسجيل حدث تفجير فرنسا لقنبلتها الذرية بالصحراء الجزائرية صبيحة يوم السبت 13 فيفري 1960 كما يشير في تقديمه لقصيدة "وليد القنبلة الذرية"[1] المنشورة باللهب المقدس.

ما دهاه؟.. ويل أمه... ما دهاه؟ *** ويلتاه من جيل ويلتاه

ما له في الحياة يولد أعمى؟ *** لم تر الكون باسما مقلتاه؟

ما له لم تزل تهدهده الأ *** م... ولم تستمع لها أذناه؟

ألهذا الوجود جاء وحيدا؟ *** أم له في زمانه أشباه

والشاعر صالح خرفي يغتنم المناسبة ليبرز فضل المستعمر في الجبال، واتجاهه لتخويف الثوار من خلال تفجير القنبلة الذرية المجنونة بأعماق الصحراء والقفار، وجاءت قصيدته "الجنون الذري" بديوانه "أطلس المعجزات" لتصور عواقب الواقعة...

فشلت في الجبال قنبلة البطـ *** ش، فراموا تفجيرها في الصحاري

إن تكن قسوة الجبال جليدا *** إن بطش القفار لفحة نار

من يته في مجاهل "الأطلسي" الوعـ *** ـر، فصحراؤه بغير قرار

ويقارن الشاعر صالح خباشة بين ما وقع لمدينة هيروشيما باليابان من جراء تفجير القنبلة الذرية الأمريكية سنة 1945 وما يحدث اليوم بعمق الصحراء الجزائرية في سنة 1960 فيكتب قصيدته "القنبلة الحمقاء" - مجموعة الروابي الحمر- ليفضح المتلاعبين بالنار والدمار، فهذا "إنذار للبشر المهدد بالفناء الجماعي، إن لم يثر في وجه التجارب النووية التي ما تزال بعض الدول تتباهى بها"، غير أن إرهاب الطغاة لن يفزع الثوار المكافحين.

لن تخمد النار في دنياك يا بشر *** ما دامت اليوم في الصحراء تتفجـــر

ألا فسل (هيروشيما) إنها عبـر *** لو كان ذا الأنس بالتاريـخ يعتبـــر

قالوا يروعهم تفجير ذرتنـــا *** فيرفعوا كفهم ـ عجزا ـ كما أمروا

لا يا طغاة، فلا إرهاب يفزعنا *** حتى ولو أرضنا من بطشكم سقر!

وهكذا يبرهن الاستعمار الفرنسي البغيض على همجيته وقساوته في حق الأرض الجزائرية ومن عليها، فيفجر قنبلته اللعينة في صحرائنا الشاسعة، قبل أن يرحل عنها وإلى الأبد.

مظاهرات التحدي والحرية

وسار موكب الثورة الجزائرية شاقا طريقه إلى الأمام تضيء سبيله الانتصارات المحققة، بعد أن اتسعت رقعة المعركة لتشمل بقاع الوطن كله، فكل أسرة جزائرية دفعت بين أفراده جنديا أو فدائيا، أوشهيدا في ساحة الشرف.

وبدأت تلوح أنوار النصر مع أواخر سنة 1960 عندما خرجت الجماهير الشعبية الغفيرة في صبيحة يوم 11 ديسمبر من نفس السنة، في مظاهرات عارمة صاخبة تجوب الشوارع والساحات في كبريات المدن، تظللها الأعلام الوطنية، وهي تنادي بأعلى صوتها، نريد حرية واستقلالا لا نرضى بغيرهما بديلا.. عاشت الجزائر حرة مستقلة.

كانت تلك المظاهرات التاريخية دليلا قاطعا على التفاف الشعب حول ثورته، وصفعة أخرى لديغول وأعوانه بمناسبة زيارته وقتئذ للجزائر، لإقناعه بعدم جدوى الحلول الوسطى، وحتمية التفاوض مع ممثلي الثورة، مع جبهة التحرير الوطني.

غير أن السلطات الاستعمارية لم تكن لتتغافل هذا الحدث الذي هز كيانها، وضعضع صفوفها، فلجأت عادتها إلى القمع والبطش، والقتل الجماعي على مرأى ومسمع من الملأ جميعا. ولم يتخلف الشعراء على قلتهم يومئذ عن تسجيل هذا الحدث وتصوير وقائعه باعتباره منعرجا حاسما عجل بانتصار الثورة الجزائرية. والشاعر أحمد عروة يصف هذه المظاهرات في قصيدة بعنوان 11 ديسمبر 1960 ضمن مجموعته "ذكرى وبشرى" فالجماهير الغفيرة تتصدى لرصاص العدو منتزعة حريتها انتزاعا.

نزل الشعب للشوارع يبدي *** لرصاص العدو صدر الفداء

كتب المجد أحرفا خالدات *** عن رصيف مخضب بالدماء

أيها الشعب قد نزعت من الموت *** حياة العلا ففز بالبقاء

أجل، لقد كانت مظاهرات 11 ديسمبر 1960 تلك القوة الدافعة لقافلة الثورة

نحو النصر النهائي الأكيد، فحين تدخل الجماهير كل الجماهير أرض المعركة، لا راد يومئذ لإرادتها الفولاذية، وعزيمتها الحديدية التي لا تنثني أو تهون، مهما بلغ بطش الطغاة البغاة.. والشاعر محمد الأخضر عبد القادر السائحي يخص الحدث بقصيدته "زحف الجماهير" التي كتبها بتونس في أول جانفي 1961، كما يشير في مجموعته "الكهوف المضيئة" فالجماهير اندفعت كالسيل المنهمر متخطية كل السدود والحدود، لاترهب الموت أو البطش، تحدو خطاها أغنيات الحرية والسلام

يا أخي كلنا جراح تغني *** للجماهير تشمل البركانا
فترى النار والرصاص هباء *** وترى الحق يدمغ الطغيانا
ازحفي يا جموع شعبي وشدي *** بيد عزمها جمع قوانا
فالسلام الذي نريد كتاب *** قد ملأنا سطوره من دمانا
وعلى زحفك العظيم سمعنا *** أغنيات السلام تحدو خطانا.

وحملت هذه المظاهرات التاريخية تباشير الأمل للفوز بالنصر المبين، بعد كفاح مرير مستميت، وتضحيات جسام، قربانا على مذبح الحرية التي لا تسقى ولا تروى بغير الدماء والدموع... فيا لها من حرية نفيسة!...

وقد واصلت الثورة التحريرية زحفها المقدس، محققة الانتصار تلو الانتصار، سواء على الصعيد العسكري، أو في المجال السياسي، وامتدت الشرارة إلى التراب الفرنسي نفسه، لتحرق الأصابع والأجسام، ولتشوه ملامح صورة بلاد الأخوة، والمساواة والحرية... مما دفع قادة الاستعمار إلى الرضوخ أمام الأمر الواقع، والاستجابة لإرادة الشعب في حقها المشروع لتقرير مصيره، بعيدا عن أي ضغط وبكامل حريته.

وهكذا اضطرت الحكومة الفرنسية وقتئذ، للجلوس على مائدة المفاوضات مع ممثلي الثورة الجزائرية، مع مندوبي جبهة وجيش التحرير الوطني. وتمخضت المحادثات المستمرة، عن وقف إطلاق النار في ظهيرة 19 مارس 1962، والتحضير الجدي لاستفتاء أول جويلية الموالي، حيث عبر الشعب الجزائري برمته عن تشبثه بحريته وسيادته وكرامته، فتحقق ما أراد، فكان يوم النصر العظيم..

من جيل إلى جيل

- ◊ امتداد .. أم انفصام؟
- ◊ ظل أدبا واقعيا
- ◊ منظار إيديولوجي
- ◊ الثورة في الأدب العربي
- ◊ ثلاثيات المثقفين والثورة
- ◊ كيف نكتب عن الثورة ؟

امتداد .. أم انفصام ؟

كان للثورة التحريرية فضل عظيم على الأدب الجزائري الحديث، إذ فتحت أمامه آفاقا رحبة جديدة، ما كان ليحلم بها لولا الدم والنار والحديد، تفجرت نتيجة لذلك القرائح والمواهب بأدب ينبض بالثورة، كلماته ملتهبة، بحروفه مضخمة بدماء الثوار.

وقد أدرك الأدباء الجزائريون أن لهم رسالة مقدسة، نحو وطنهم الغالي، فكانوا جميعهم مدعوين للمساهمة في حرب التحرير، ومسايرة ركب الثورة المظفرة إلى جانب رفاقهم الثائرين في الجبال والتلال، في السهول والوديان، في القوى والمدن، ضاربين بذلك أسمى وأروع مثال يحتذى في موقف الشاعر والأديب من مناهضة الاستعمار، والتصدي لمناوراته الدنيئة، ذلك أن قوى الخلق والإبداع لدى كتابنا وفنانينا - كما يقول الأديب الجزائري محمد ديب- بوقوفها في خدمة إخوانهم المظلومين، تجعل من الثقافة سلاحا حادا من أسلحة المعركة.

ونتيجة لهذا تحولت قصائد الشعراء إلى أناشيد وطنية حماسية تواكب خطوات المجاهدين في الجبال والسهول وترددها الأفواه بأعماق القرى والمدن، ليمتد صداها إلى ما وراء الحدود إلى الآذان والقلوب المحبة للعدل والحرية والسلام وكان من جراء ذلك كله أن اضطهدهم أينما حلوا وارتحلوا، وشردهم ونفاهم، ولم يتورع من التنكيل بهم وقتلهم، وما استشهاد الأدباء الجزائريين: أحمد رضا حوحو، والربيع بوشامة، ومولود فرعون، وعبد الكريم العقون على يد الغدر الاستعماري إلا صورة أخرى عن مدى بشاعة الاضطهاد لرافعي شعلة النضال والكفاح.

وقد احتضن الأدباء وفتئذ هموم الوطن المكافح، وعذابات رجاله المخلصين، فذابت "الذاتية الإبداعية" في بوتقة الروح الجماعية المناضلة، فحتى الحبيبة غابت لتتحول إلى وطن

يحلم الكل بإسعاده وبعد بزوغ فجر الحرية والاستقلال على ربوع الوطن توقف إنتاج بعض الأدباء بانتهاء الثورة الملهمة، ولم يستطيعوا التكيف مع معطيات الحياة الجديدة بمتطلباتها ومتغيراتها ففاتهم الركب وتخلفوا عن المسيرة، وبعض هؤلاء امتصت جهودهم شؤون الإدارة والتعليم، والانهماك في تحضير الشهادات الجامعية، والجري وراء الكسب، والارتزاق بجميع الوسائل والكيفيات، وبعضهم اضطر لمغادرة الساحة الأدبية لأسباب سياسية خاصة، ولذلك صمت معظمهم وأصبح في عداد (العقيمين) وإن ظل بعضهم الآخر يفاجئنا من حين لآخر (ببيضة الديك).

- ميلاد أسماء أدبية شابة:

وسط هذا الجو من الصمت والحيرة و التردد، ومع بداية السبعينات، ولدت وترعرعت مواهب أدبية شابة في ظل الحرية والحياة الجديدة، تحاول أن تبدع وتتطور أدبيا تكتب شعرا وقصة ومقالة. تحبو وتكبو، وتجد أحيانا يد العون، وفي معظم الأحيان تفتقدها تشق دربها بصعوبة بالغة، فهي من جهة تبحث عن أدواتها الفنية من خلال تعرفها وإطلاعها على مختلف الإنتاجات المعاصرة عربية وعالمية.

ومن جهة أخرى لا تجد في الغالب من يتصدى لإنتاجها بالنقد والتقويم لتعرف موطن القوة والضعف في محاولاتها، لذلك نجد أن الكثير من الأسماء تظهر حينا ثم تختفي، لتعقبها أسماء جديدة، وبعض هذه الأسماء اختفى تماما، وقد تكون من بين أسباب هذا الاختفاء أو تلك الاستمرارية سأم أولئك من "لعبة الصغار ينتجون، والكبار يتفرجون".

وإذا كان أدباء الجيل الماضي قد حاولوا وقتئذ، خاصة في الميدان الشعري، رصد حركة ومسيرة الثورة التحريرية من بعيد، فغنوا في الغالب سطحيا وبقوالب تقليدية جاهزة مفاخرها وبطولاتها، أي لم ينغمسوا بعمق بين أحداثها ووقائعها، والآفاق القريبة والبعيدة التي توسمها أمام الإنسان الجديد، غير أن الأمر يختلف بالنسبة للجيل الجديد من الأدباء الشباب، فهو يحاول جهده أن يعبر عن التغيرات الجديدة التي حدثت وتحدث في المجتمع

الجزائري من خلال معانقة الواقع الواهن بتمرد شبابي، منبثق من شعور داخلي بالتغير السريع الذي يحدث في المجتمع. وهذا ما يجعل بعضهم يتأرجح بين عدة تيارات أدبية وفنية تعود بالدرجة الأولى إلى واقعهم الاجتماعي، كما يقول أحمد حمدي.

ومن هنا نجد أن انشغالات واهتمامات الأدباء الشباب تحتضن على العموم هموم وطموحات الجماهير الشعبية في كدها وكدحها من أجل بناء المستقبل الاشتراكي المنشود، ولذلك لا عجب أن نجد قضية جوهرية جماهيرية مثل الثورة الزراعية بكل ما تعنيه من تغيير وجه الريف، وترقية الفلاح الجزائري، وتغيير موازين القوى لفائدة العدالة الاجتماعية والتقدم، إن قضية أساسية مثل هذه تستأثر بحيز كبير من إنتاج واهتمامات الأدباء الشباب شعوا وقصة ومقالة، وهذا الاهتمام نابع من نضج ووعي عقائدي مبكر، وممارسة حقلية عملية من خلال مناصرة مسيرة الثورة الزراعية الشباب أنفسهم.

وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن قضية الثورة الزراعية وحدها أصبحت المعيار لقياس مدى التزام الأديب واكتمال أدواته الفنية، فكم هي الإنتاجات الأدبية التي كتبت حول هذه القضية، وما أقل ما ارتقع منها شكلا ومضمونا إلى مستوى التعبير عن الثورة الزراعية، كفعل وكتغير وكآفاق جديدة نحو مستقبل اشتراكي عادل، ومتقدم.

ولذلك تطرح دوما في الأدب مسألة التزاوج، والتكامل بين المضمون الراقي، ومن هنا تأتي مسألة الشكل الفني، فقد جاء أدب الشباب ليخرج عن القوالب التقليدية والجاهزة، فلم يعد اهتمام الأدباء الشباب منصبا على ترصيع إنتاجه بأنواع من البديع اللفظي والمعنوي، وتقييده بأحجام لا تتلاءم مع متطلبات المضمون وغزارته وعمقه، وإنما أصبح همه الأول هو تطويع الشكل الفني، لينسجم مع قوة المضمون، والأفكار المراد تبليغها بواسطة هذا الوعاء الخارجي، ونتيجة لهذا يحاول هذا الأدب أن يتخلص شيئا فشيئا من ظاهرة السرد والمباشرة لينتصر الإيحاء المعبر والرمز الشفاف في لغة مرنة شاعرية تسعى لتوظيف الأسطورة والتراث الشعبي بالانصهار مع الواقع الجديد ومتطلبات روح العصر.

- مبادرات نحو التجديد :

و قد ظهرت خلال الأعوام الأخيرة للثورة التحريرية بعض المبادرات الشجاعة في مجال تجديد وتطوير الأدب في الجزائر، وخاصة منه الشعر الذي كان وقتئذ المنتوج الأغزر، وظلت مجرد محاولات محتشمة محدودة العدد، غير مكتملة النضج، ومع ذلك فقد كان لها، والحق يقال، فضل السبق والريادة في هذا المجال.

وقد أصبح اليوم لتلك الخطوات التجديدية خاصة في الشعر أنصارها من الشباب الذين وجدوا في الشعر الحر، روح العصر، بما يتيح لهم من قدرة فائقة على إمكانيات التحرك بسهولة ويسر، والغوص في أغوار الواقع الاجتماعي، وتصوير التناقض الموجود داخله، في صياغة فنية تختلف من أديب لآخر، وتظل في مجملها بعيدة عن كل تكلف أو زخرفة خارجية، وإن كانت بعض هذه المحاولات التجديد أصبحت تميل إلى نوع من الغربة والغموض والتجريد، وهي ظاهرة بدأت تغزو الشعر الحديث، وقد يكون لها تأثيرها السلبي حاضرا أو مستقبلا على فعالية وانتشار هذا النوع من الأدب.

وإذا كان الشعر هو المنتوج الأغزر بالنسبة لأدباء جيل الثورة، فإن الأمر يختلف بالنسبة لأدباء جيل لاستقلال، تتوزع كتاباته الأدبية بين الشعر والقصة والرواية والمسرحية والمقالة النقدية، وهذا راجع بالدرجة الأولى لتمكن هذا الجيل، عكس سابقه، من سبل الدراسة المنتظمة، والتفتح على التيارات الأدبية المتنوعة العربية والعالمية.

نعود إلى جوهر الموضوع ونقول:

- ما موضع أدب الشباب ضمن مسيرة حركة شعرنا الحديث ؟
- وهل أدب الشباب يعتبر امتدادا لأدب الثورة ؟

يبقى هذا السؤال الهام ينتظر الحكم الفاصل عن طريق البحوث المنهجية الدقيقة- التي ولاشك ستزيل الإشكال القائم بين الجيلين.

رغم أن هذه الحقيقة تبدو من البديهيات ، إلا أن هناك آراء تطلعنا عن بعض الشعراء الشباب مفادها ، أن تأثرهم بالشعر السابق قليل ودون جدوى، في حين نجد بعض التصريحات أكثر تطرفا وجرأة في المدة الأخيرة تنفي إطلاقا استفادة الشعراء الشباب من التجارب الشعرية السابقة.

ويمثل الشاعر "أزراج عمر" هذا الموقف حيث يقول في حديث صحفي مدرج مع مقالات كتابه "الحضور" حول علاقته بشعر ما قبل الاستقلال : "أجرأ على القول بأن تجربتي الشعرية لم تستفد مطلقا من الشعراء الجزائريين الذين سبقوني، لأن هؤلاء ليسوا أصحاب تجارب إبداعية حقيقية بل هم لا يتجاوزون مدار المحاولات. أغلبهم على الصعيد الفكري يعتنقون التقليدية والسلفوية في تحجرها ومحدوديتها." (ص 225).

وإذا رجعنا إلى رأي شعراء الثورة أنفسهم نجد بعضهم لا يقر بشرعية تجارب الشباب الذين اعتنقوا الشعر الحر.

فأخذ مثلا رأي الشاعر مفدي زكريا حول هذه القضية الشائكة حيث يقول حول تقييم حركة الشعر التي انطلقت منذ السبعينات:

"هناك محاولات لم تجد بعد طريقها المعبد ، فهي تتأرجح بين السطحية والتقليد، خصوصا في ميدان الشعر الذي أصبح بضاعة في المزاد العلني مثقلا بالتبعية العمياء لأساليب جوفاء، مستوردة مقطوعة الرحم بواقع الجزائر وأصالة التراث".

ونحن إذا استثنينا شعراء يؤلفون واجهة صماء ضد محاولات التمييع الفكري، وإجهاض الكلمة الهادفة، هم محمد العيد ، والأخضر السائحي الكبير، ومفدي زكريا، وصالح خرفي، وأبو القاسم خمار، والطاهر بوشوشي، والشاعر الشاب مصطفى الغماري. إذا استثنينا هذه الوجوه العريضة النسب، الناصعة الأصالة وجدنا أنفسنا أمام "إسهال" أدبي يزكم الأنف ويقرف الأسماع، وينال من سمعة الجزائر وقداسة الكلمة الرائدة "الحديث الذي أجريناه معه نشر بعد ذلك في النادي الأدبي للجمهورية بتاريخ 5 نوفمبر 1984م".

من خلال تصريحات الشاعرين أزراج عمر ومفدي زكريا تبرز حدة الخلاف بين الجيلين، ومع ذلك لا نريد أن نعمم لأن هناك مواقف أكثر اعتدالا يمثلها الكثير من شعراء الجيلين:

ويرى بعض الأدباء الشباب أن تأثرهم كان من جيل المبدعين باللغة الفرنسية وخاصة رموزه مثل : محمد ديب، كاتب ياسين، مالك حداد، وغيرهم- ثم لا ينكر هؤلاء الأدباء الكتاب تأثرهم بالتراث الجزائري بصفة عامة. واستغل بعضهم جوانب من هذا التراث في إنتاجه الأدبي

لكن مهما يكن من أمر، ومهما تعرضنا لمختلف الآراء، فإننا نرى أن هناك خيطا رفيعا وقاسما مشتركا يربط بين أدب الشباب وأدب الثورة، يتمثل في تلك الصلة الوثيقة بالتربة الجزائرية والالتصاق بواقع الإنسان الكادح ،والمكافح، واحتضان همومه وطموحاته نحو الغد المشرق. وإن كان هناك من فرق، فهو في التعبير عن الثورة كسلاح للتحرر السياسي من هيمنة الاستعمار، وبين الثورة كوسيلة نحو التحرر الشامل الكامل وبناء المجتمع الاشتراكي العادل والمتقدم

وبعد هنا- هل أظنني قدمت الجواب الشافي الكافي عن السؤال المطروح: أدب الشباب هل هو امتداد لأدب الثورة ؟

لا أعتقد ذلك، فلعل موضوعا كهذا شائكة مسالكه، متشعبة فروعه قد لا تكفيه مقالة، أو محاضرة واحدة وكل ما أرجوه أن أكون قد حاولت الإسهام في رسم الخريطة العامة. ولاشك بأن طرح المشكل كفيل بإضاءة بعض الجوانب، وتحديد الأبعاد وتوضيح التضاريس والمرتفعات والمنخفضات، وهذه مهمة كل المثقفين والنقاد، والمهتمين بشؤون وقضايا الأدب، وتلك دعوة جديدة للنقاش الهادف، البناء[1].

---

1. نشرت هذه المقالة بأول عدد من النادي الأدبي لجريدة الجمهورية بتاريخ 9 مارس 1978 وظلت مثار نقاش واسع لعدة أسابيع متتالية.

ظل أدبا واقعيا

كان للثورة التحريرية في الجزائر فضل عظيم على الأدب إذا فتحت أمامه الآفاق الرحبة الفسيحة، ما كان ليحلم بها من قبل، لولا الدم، والنار والحديد، فتفجرت نتيجة لذلك القرائح والمواهب بأدب واقعي صادق ينبض بالثورة، كلماته ملتهبة متأججة، حروفه من نور ونار.

ووسط لهيب معارك التحرير ظهرت أسماء بارزة في دنيا الأدب، فكان: محمد ديب، وكاتب ياسين، ومولود فرعون، ومالك حداد، ومولود معمري، والبشير حاج علي، ومصطفى الأشرف، وعبد الحميد بن الزين، ورشيد بوجدرة، وآسيا جبار، كمبدعين باللغة الفرنسية. إلى جانب رفاقهم الكتاب باللغة العربية، مثل: محمد العيد آل خليفة، ومفدي زكريا، وأبو القاسم سعد الله، وعبد الله ركيبي، وصالح خرفي، والطاهر وطار، وعبد الحميد بن هدوقة، وأبو العيد دودو، وزهور ونيسي والجنيدي خليفة، وعثمان سعدي.

وقد أدرك الأدباء الجزائريون - مهما اختلفت ألسنتهم ومواقعهم - إن لهم رسالة مقدسة نحو وطنهم الغالي، فكانوا جميعهم مدعوين إلى أن يسهموا بوسائلهم الخاصة، بالشعر الملتهب، بالكلمة المقاتلة في حرب التحرير، مسايرين موكب الثورة المظفرة إلى جانب رفاقهم الثائرين في الجبال والتلال، في السهول والوديان في القرى والمدن، ضاربين بذلك أسمى وأروع مثال يحتذى في موقف الشاعر والأديب من مناهضة الاستعمار، والتصدي لدعاياته المغرضة، ولمناوراته الدنيئة، ذلك إن كل قوى الخلق والإبداع لدى كتابنا وفنانينا - كما يقول محمد ديب - بوقوفها في خدمة إخوانهم المظلومين، تجعل من الثقافة سلاحا حادا من أسلحة المعركة.

ونتيجة لهذا، تحولت قصائد الشعراء إلى أناشيد وطنية حماسية، تواكب خطوات الثوار في الجبال والسهول ورددها الأفواه بأعماق القرى والمدن، ليمتد مداها الفعال إلى ما وراء الحدود إلى الآذان والقلوب المحبة للعدل والحرية والسلام.

وكان من جراء ذلك كله أن اضطهد المستعمر الأدباء وطاردهم أينما حلوا وارتحلوا، وشردهم ونفاهم، ولم يتورع عن التنكيل بهم وقتلهم. وما استشهاد كل من الأدباء الجزائريين: أحمد رضا حوحو والربيع بوشامة، ومولود فرعون، وعبد الكريم العقون، ومحمد الأمين العمودي، والحبيب بناسي، على يد الغدر الاستعماري، إلا صورة أخرى عن مدى بشاعة الاضطهاد لرافعي شعلة النضال، والكفاح للحرف النيّر، والكلمة الملتهبة.

وقد احتضن الأدباء، وقتئذ بصدق وواقعية، هموم المكافح، وعذابات رجاله الثوريين المخلصين، فذابت "الذاتية الإبداعية" في بوتقة الجموع المناضلة، فحتى الحبيبة غابت للتحول إلى وطن يحلم الكل بإسعاده، وإلى قضية يتبناها الجميع، لم يكن هناك صوت ليرتقع عن عنف الثورة الجبارة، ببطولاتها وملاحمها الخالدة.

وبعد بزوغ فجر الحرية والاستقلال على ربوع الوطن المفدى يبدو أن الكثير من أولئك الأدباء الرواد اختفوا وانتهوا بانتهاء الثورة الملهمة، ولم يستطيعوا بإنتاجهم الأدبي التكيف مع معطيات الحياة الجديدة، بمتطلباتها ومتغيراتها ففاتهم الركب وتخلفوا عن المسيرة. وبعض هؤلاء امتصت جهودهم شؤون الإدارة والتعليم والانهماك في التحضير للشهادات الجامعية، والجري وراء الكسب والارتزاق بجميع الوسائل والكيفيات.

وبعضهم اضطر لمغادرة الساحة الأدبية لأسباب سياسية محضة، ولذلك صمت معظمهم وأصبح في عداد "العقيمين" وإن ظل بعضهم الآخر يفاجئنا من حين لآخر

"ببيضة الديك" وان كان الطاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة ورشيد بوجدرة لا يزال عطاؤهم مستمرا في الحقل الأدبي.

وسط هذا الجو من الصمت والحيرة والتردد، ومع أواخر الستينات، وبداية السبعينات، ولدت وترعرعت مواهب أدبية شابة، في ظل الحرية والحياة الجديدة، تحاول أن تبدع وتتطور أدبيا، تكتب شعراء وقصة ومقالة نقدية، تحبو وتكبو، تجد أحيانا يد العون، وفي معظم الأحيان تفتقدها، تشق دربها بصعوبة بالغة، فهي من جهة تبحث عن أدواتها الفنية، من خلال تعرفها وإطلاعها على مختلف الإنتاجات المعاصرة المتقدمة عربية وعالمية ومن جهة أخرى، لا تجد في الغالب من يتصدى لإنتاجها بالنقد والتقييم، لتعرف موطن القوة والضعف في محاولاتها، لذلك نجد كثيرا من أسماء الأدباء الشباب تظهر حينا، ثم تختفي، لتعقبها أسماء جديدة، وهناك بعض هذه الأسماء اختفت الآن تماما، وقد يكون من بين أسباب هذا الاختفاء أوهذه اللااستمرارية قلة إمكانيات النشر، وعدم التشجيع المادي والمعنوي، إلى جانب سأم أولئك من "لعبة الصغار ينتجون، والكبار يتفرجون".

وهكذا ظهرت أسماء عديدة واعدة في الساحة الأدبية وخاصة باللغة العربية، نذكر منها أهمها:

◊ في الشعر: أحمد حمدي، عمر أزراج، عبد العالي رزاقي، أحلام مستغانمي، حمري بحري، محمد زتيلي، عمار بو الدهان، زينت الأعوج، ربيعة جلطي، إدريس بودبية، منور بن يمينة، سليمان جوادي، عبد الحميد شكيل، جمال الطاهري.

◊ في القصة: الأدرع الشريف، الأعرج واسيني، السائح الحبيب، محمد الصالح حرز الله، علاوة وهبي، عمار بلحسن، بقطاش مرزاق، أحمد منور، العيد بن عروس، أمين الزاوي، مصطفى فاسي، خلاص جيلالي، خلف بشير، محمد

مفلاح، عمار يزلي، عبد العزيز بوشفيرات، زهير العلاف، عبد العزيز غرمول، جيدل بن الدين، محمد مرتاض.

◊ في الرواية : بقطاش مرزاق، إسماعيل غموقات، الأعرج واسيني، عرعار محمد العالي، علاوة وهبي.

◊ في المقالة النقدية : أحمد منور، بلقاسم بن عبد الله، عمر أزراج، أحمد حمدي، أمين الزاوي، محمد زتيلي، مخلوف عامر، زهير العلاف.

ورغم كثرة هذه الأسماء أدبية الشابة - كما يبدو - إلا أننا نلاحظ أن معظم هذه الأقلام مازالت لم تطبع لها بعد مجموعة من إنتاجها الإبداعي، رغم أنها استطاعت بالفعل، وعبر سنوات، أن تفرض نفسها على الساحة الأدبية، وقد يكون ذلك راجعا - في الغالب - إلى سعي الشركة الوطنية للنشر والتوزيع إلى الجري وراء الأسماء البارزة اللامعة بمنظور تجاري، لايخدم الحركة الأدبية والتنمية الثقافية.

ونلاحظ هنا بأن عدد الأدباء الشباب المبدعين باللغة الفرنسية يكاد يكون محدودا معدودا على أصابع اليدين، ونشاطاتهم محصورة جدا في بعض الملتقيات والمهرجانات الثقافية، وقلما تقام أمسية أدبية لكاتب بالفرنسية، ونادرا ما نطالع إبداعا واعدا لهم بالصحف والمجلات الوطنية التي أصبحت اليوم في معظمها ناطقة باللغة العربية، فمن بين أربعة صحف يومية، هناك جريدة واحدة بالفرنسية، لا تنشر الإبداع الأدبي إطلاقا.

وهناك قاسم مشترك يجمع بين مختلف الإبداعات والتجارب للأدباء الشباب، مهما اختلفت ألسنتهم وألوانهم، ومواقعهم ومواقفهم، هو احتضان هموم وطموحات الجماهير الشعبية في كدها وكدحها من أجل بناء المستقبل الاشتراكي المنشود.

ولذلك لا عجب أن نجد أن قضية جوهرية جماهيرية مثل الثورة الزراعية، بكل

ما تعنيه من تغيير وجه الريف، وترقية الفلاح الجزائري، وتغيير موازين القوى لفائدة العدالة الاجتماعية والتقدم، أن قضية أساسية كهذه تستأثر بحيز كبير من إنتاجات واهتمامات الأدباء الشباب شعراء وقصة ومقالة، وهذا الاهتمام نابع من نضج ووعي عقائدي مبكر، وممارسة حقلية عملية، من خلال مناصرة مسيرة الثورة الزراعية، بواسطة عمليات التطوع الميدانية التي تقوم بها وتقودها مجموعات الشباب.

وهذا لا يعني، بأي حال من الأحوال أن قضية الثورة الزراعية وحدها أصبحت المعيار الحقيقي لقياس مدى واقعية هذا الأدب والتزامه واكتمال أدواته الفنية، فكم من إنتاجات أدبية كتبت حول هذه القضية، وما أقل ما ارتفع منها شكلا ومضمونا إلى مستوى التعبير عن الثورة الجزائرية، ليس كمجرد شعار جذاب، وإنما بالأساس كفعل ثوري، وكتغيير جذري، وكآفاق جديدة نحو غد اشتراكي منير.

ويتجاذب أدب الشباب عدة موضوعات أخرى مرتبطة بتطور المجتمع، والتناقضات القائمة داخله، ومن تناول قضايا العمال الجزائريين المغتربين في أوروبا، وترقية المرأة الجزائرية، والهجرة الداخلية من الريف إلى المدينة، واستغلال الدين لأغراض شخصية أو سياسية، والتفاوت الطبقي المتنامي في المجتمع، والصراع القائم بين القوى التقدمية والعناصر الرجعية.

كما يحاول الأدباء الشباب أن يطّوروا باستمرار أدواتهم الفنية، من خلال التصاقهم القوي بواقع الجماهير الكادحة، وتشربهم للتراث الشعبي الثري في الجزائر، ومطالعتهم دائمة للأدب العربي المتطور، وتفتحهم المستمر على الفكر الاشتراكي التقدمي.

وقد جاء أدب الشباب ليخرج عن القوالب التقليدية الجاهزة، فلم يعد همّ الأديب الشاب منصبا على ترصيع إنتاجه بأنواع من البديع اللفظي والمعنوي، وتقييده بأحجام لا تتلاءم مع متطلبات المضمون وغزارته وعمقه، وإنما أصبح همه الأول هو تطويع

الشكل الفني لينسجم مع قوة وفعالية المضمون، والأفكار المراد تبليغها بواسطة هذا الوعاء الخارجي. ونتيجة لهذا يحاول هذا الأدب أن يتخلص شيئا فشيئا من ظاهرة السرد والمباشرة، لينتصر للإيحاء المعبر، والرمز الشفاف، في لغة مرنة شاعرية، توظف الأسطورة والتراث الشعبي، بانصهار مع الواقع الجديد، ومتطلبات روح العصر.

وعلى العموم، فقد ظل الأدب الجزائري - ولا يزال - واقعيا ملتصقا بالتربة، ومرتبطا بهموم وآمال الإنسان، ومثلما واكب بالأمس القريب مسيرة الثورة التحريرية المظفّرة يحاول اليوم أن يترصد سطح وأعماق الواقع الجديد في الجزائر، من غير أن يغفل كفاح ونضالات الجماهير في كل مكان، ضد العنصرية والانعزالية، والرجعية والإمبريالية، ومن أجل علو راية الحرية، والسيادة والعدل والتقدم لكل البشر[1].

1. نشرت هذه المقالة بمجلة "النداء" الأسبوعية اللبنانية، في عددها 6907 بتاريخ 13 سبتمبر (أيلول) 1981 ضمن ملف خاص عن "الأدب الجزائري" من إعداد: بلقاسم بن عبد الله بالتنسيق مع أسرة تحرير المجلة، ويمتد عبر 12 صفحة مشتملا على حوارات ومقالات وإبداعات تحاول أن تعكس بعض جوانب الحركة الأدبية في الجزائر.

منظور إيديولوجي

من البداية، هل يحق لنا أن نتساءل: ما علاقة النص الأدبي بالفكر الإيديولوجي؟.. أيهما أسبق وأقدر على التأثير في الآخر، وفي المحيط بشكل عام؟.. كيف يمكن رصد خطواتهما؟.. هل هناك مواكبة وانسجام أم موازاة وابتعاد؟... هل نستطيع نزع فتيل لإيديولوجية عن قنبلة الأدب - إن جاز هذا التعبير- ؟.. وهل للأدب طعم ولون مغاير لنوق الفكر... هل هو كالماء يتلوّن حسب لون الإناء الذي يحويه؟.. أم يستلهم لون عيون الحبيبة وخضرة الطبيعة وزرقة البحر، وحمرة الشفق؟ ثم ما مدى فعالية كل من الخطاب الأدبي ولخطاب السياسي؟.. هل يمثل الأدب إيديولوجية محددة، أم هو نفسه واجهة لإيديولوجية معينة؟... وهل يمكن أن يبدع الأديب بمعزل عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية؟... مل يمكن أن نتحدث عن إنتماء الأدب وحزبيته وتحزبه... وأيهما أحوج إلى الآخر، الأديب العالم أم السلطان الحاكم؟... وهل يستطيع الأديب أن يكون عقلا وقلبا، وضمير الجماهير التي نبت في تربتها المعطاءة ؟..

تلك بعض التساؤلات التي يثيرها المحور العام لهذا الملتقى الهام حول الأدب، والإيديولوجية الذي يعكس انشغالات واهتمامات كتابنا، ومدى احتكاكهم بالجماهير، وارتباطهم بالواقع، واحتضانهم لهموم المرحلة، خاصة وأن هذا الملتقى يقام عشية الاحتفال بالذكرى التاسعة والعشرين لاندلاع شرارة الثورة، وقبيل انعقاد المؤتمر الخامس لحزب جبهة التحرير الوطني، مؤتمر العمل والصرامة لضمان المستقبل.

عندما ننظر إلى الأدب الجزائري بمنظار إيديولوجي، ما عسانا نرى؟ـ ماموقع وموقف الأدب من مناهضة الاستعمار والانحياز للتحرر والتقدم؟. كيف ندد بالليل الاستعماري المظلم؟ـ وإلى أي حد ارتبط بحركة الرفض والمقاومة؟ـ وكيف شارك في إبداع ملحمة الثورة الخالدة؟ـ وإلى اي حد يساهم في إنجاز مهام البناء الوطني بعد الاستقلال؟ـ وكيف جسد المنجزات الجديدة والتغيرات الجذرية من خلال عملية الخلق والإبداع؟ـ

- الأدب وقضايا المجتمع :

ما كان الأدب إلا نتاجا حيا لواقع معين، وانعكاسا صادقا لقضايا مجتمع محدد، يتفاعل بعمق مع هموم وطموحات الجماهير، فيتأثر وتساهم في التأثير فالأديب وهو ابن بيئته، أقدر الناس على احتضان الواقع بأفراحه وأتراحه وعلى الالتحاق الدائم بالجماهير وهي تكد وتكدح، تعاني وتفرح، في سعيها الدؤوب لبناء الغد المشرق والمنير.

ولعل إحساس الأديب بحجم وعنف الحدث أو المأساة دفعه إلى أن يدق أبواب الغيب، ليستشف معالم المستقبل، فيرتفع إلى مستوى النبوءة، وفي هذا الصدد يقول الناقد غالي شكري في كتابه "أدب المقاومة" موضحا قيمة الأدب المقاوم: "لقد آن الأوان لأن نفرق بين الأدب الذي(يقاوم) قبل حدوث المحنة، وهو الأدب الذي يرتفع إلى مستوى النبوءة والأدب الذي يقاوم(أثناء) المعركة وبعد الهزيمة أوالنكسة، والأدب الذي(يؤرخ) للأزمة بعد انتهائها بوقت طويل أو قصير".

وفي محاولة البحث عن الإطار الإيديولوجي للأدب الجزائري، ينبغي أن نلتفت إلى الداخل بالدرجة الأولى، لنترصد مدى تفاعل هذا الأدب مع الواقع الوطني، والنضال الجماهيري ضد جميع مظاهر الظلم والقهر والاستغلال والاستعمار، طوال قرن وثلث قرن من الاستعمار الفرنسي البغيض استعمل فيه المحتل كافة أنواع القهر

والبطش وانتزع الأراضي والممتلكات من يد المواطنين الأبرياء، وامتدت أياديه الآثمة لطمس معالم الثقافة الوطنية بجذورها الأصيلة والرافضة، ولكن هيهات فقد ظلت هذه الثقافة رافضة لكل أشكال الطمس والذوبان والهيمنة، وكان أدب بأنواعه وألوانه واجهتها الأمامية، بما يتميز به من عمق الارتباط بجوهر الأحاسيس الإنسانية.

هل يمكن لجحود أن ينكر قيمة الخطاب السياسي للشعر الشعبي أوالشعر الملحون أو مدى عمق احتضانه لإرادة الجماهير وهي تكد وتكدح، وتناضل وتقاوم الاستعمار؟.. لقد تحول هذا النوع الأدبي بفضل أصالته، وصفاء ينبوعه إلى أغنية رائعة ترددها الجموع في السراء والضراء، في العلانية والخفاء.

وهل ننكر لهذا الأدب الشفوي فضل تدوين الانتفاضات الشعبية المقاومة للاستعمار وتسجيل الأحداث الكبرى، بصدق وعفوية حتى تظل محفورة على الجبين، منقوشة على ذاكرة التاريخ ؟..

أما الأدب المكتوب، سواء بالعربية أو بالفرنسية، فقد ساهم هو الآخر بقسط وافر حسب حدود إمكانياته ووسائله الخاصة -في احتضان آلام وآمال الجماهير، هاديا ومنيرا لها سواء السبيل، فتصدى الأدباء - باختلاف ألسنتهم ومشاربهم، وتحت تأثير قناعات فكرية وطنية، للتنديد بالظلم والاستعمار والدعوة إلى النضال والكفاح، بنبرات فنية تتفاوت بين الانفعال والحماس والتفاعل، نتيجة لتأثير الثقافات المكتسبة، وتبعا لظروف المرحلة، وإن ظل عنف الواقع وأعظم من بيان الفن.

ولا ننكر تفاعل هذا الأدب مع حركة الواقع، واستفادته من الأحداث الكبرى التي ساهمت إلى حد كبير في بلورة شكله واتجاهه الفكري العام، ففي غمرة ذاك الواقع المتغير والمتفجر، نبت هذا الأدب بخصوصياته المميزة، وأزهر وازدهر قبل حلول الربيع، متبنيا بكل جوارحه وقرائحه قضية الجزائر العادلة، بكل مداها

وعمقها، وبجميع دلالاتها وأبعادها، فعاش وعايش قسم كبير من الأدباء حركة المقاومة وثورة التحرير.

وقد خلفت الحركة الوطنية وحركات الأحزاب السياسية، باختلاف إيديولوجياتها ووسائلها وغاياتها، بصماتها الواضحة، على معظم الأدباء الجزائريين، فهذا فريق من الشعراء في طليعتهم مفدي زكريا يهلل لميلاد نجم شمال إفريقيا. وفريق آخر رأى في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين البصيص والأمل، فعندما أعلنت عن مهاجمتها للأحزاب القائمة عبر الشاعر محمد العيد عن هذا الموقف بقوله:

سامح بلادك واعف عن أحزابها ❖❖❖ واقبل طوائفها على علاتها.

لقد ظل هذا الأدب المكتوب باللغة العربية يحوم في غالب الحركة الإصلاحية فلم يستطع ملاحقة الأحداث بل تخلف عنها، كما وقع مع أحداث 8 ماي 1945 م، حيث لزم الشعراء الصمت فترة من الزمن، معبرين عن اندهاش والانبهار.

ونتيجة لغياب إيديولوجية وطنية واضحة قبل الثورة انعكس ذلك على مضامين هذا الأدب خلال تلك الفترة، فاكتفى بالتلميح والتعميم، وغلب عليه طابع اليأس والخيبة والتشاؤم والكآبة، فخف توهجه، وقل تأثيره وسط الجماهير.

وقد شكل التراث العربي الإسلامي أهم مورد للأدباء الجزائريين المبدعين باللغة العربية، من خلال حرصهم الشديد على صيانة معالم الشخصية الوطنية الجزائرية قوية متماسكة والتصدي لمحاولات الطمس والذوبان والاندماج، وقد يعود ذلك لضيق أفق ثقافة هؤلاء الأدباء، وعدم إطلاعه وتفاعلهم مع التيارات الفكرية المتقدمة السائدة وقتئذ في العالم.

في حين نجد أن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية حاول جهده أن يستفيد من لغة المستعمر، ويشكل منها الوعاء الذي يستوعب أفكار ومشاعر الجماهير، في كدحها اليومي، ونضالها ضد المستعمر.

وقد استفاد كتاب هذه اللغة من تيارات الفكر العالمي، مما انعكس على إبداعاتهم التي تخطت شهرتها حدود الوطن، ودخلت أرض العدو غازية مطمئنة، وأقرب الأمثلة إلينا: "ثلاثية" محمد ديب، و"نجمة" كاتب ياسين، و"هضبة" مولود معمري، و"دروب مولود فرعون" و"رصيف" مالك حداد.

ومع ذلك، فقد ظل أدب هذه اللغة، رغم صدقه ووطنيته، أسير منفاه الفرنسي، وعبر عن هذا الهم بكل وضوح مالك حداد، حين قال: "أنا أرعن ولاأتكلم، إن في لغتي لكنة، إنني معقود اللسان أنا لا أغني، لا أغني، لوكنت أستطيع الغناء لقلت شعرا عربيا".

- الأدب والروح الوطنية:

وهكذا نلاحظ أن الأدب الجزائري - باختلاف ألسنته ومشاربه - ظل وفيا للروح الوطنية متمتعا بحصانته الذاتية ضد الأفكار المتخلفة والانهزامية، مجسدا لقناعات فكرية واضحة، نابعة أساسا من بعد وطني حضاري، فكان أن امتد أفقه إلى قضية العرب الأول قضية فلسطين ليتقاسم مع إخوانه آلام الجراح.

لقد أدرك الأدباء منذ البداية أن لهم رسالة مقدسة يحملونها بأمانة وإجلال نحو وطنهم الغالي، قد لا تقل أهمية وخطورة عن سلاح الجندي الثائر "فالأديب" - كما يقول الزعيم هوشي منه - مقاتل بالكلمات في حرب التحرير، فكانوا جميعهم مدعوين للإسهام الفعال بوسائلهم الخاصة، بالشعر الملتهب، بالكلمة المناضلة، في معركة التحرير استطاعوا إلى حد بعيد أن يسمعوا الملأ جميعا صوت الجزائر المكافحة ضاربين بذلك أسمى وأروع مثال يحتذى به في صلابة موقف الأديب من مجابهة الاستعمار، ذلك "أن كل قوى الخلق والإبداع لدى كتابنا - كما يقول محمد ديب - بوقوفها في خدمة إخوانهم المظلومين، تجعل من الثقافة سلاحا حادا من أسلحة المعركة".

وكان من جراء ذلك، أن اضطهد المستعمر الأدباء، محاولا جهده إسكات أصواتهم المجلجلة، فطاردهم أينما حلوا أو ارتحلوا، وشردهم ونفاهم، وعذبهم أبشع تعذيب، في أعمال السجون والمعتقلات، فخرج صوتهم من وراء القضبان قوي النبرة شديد الفعالية، مثلما كان الحال مع مفدي زكريا الملقب بشاعر الثورة الجزائري الذي كتب معظم قصائد ديوانه "اللهب المقدس" في سجن بربروس الرهيب، وكذا الشاعر محمد العيد آل الخليفة الذي ذاق مرارة السجون. كما يقول مالك حداد في ديوانه الشقاء في خطر. وعرف ظلام الأقبية لأنه ارتقع إلى مستوى اللغة الغاضبة.

وأكثر من ذلك، لم يتورّع المستعمر عن ملاحقة الأدباء الوطنيين، والتنكيل بهم وقتلهم، وما استشهاد كل من أحمد رضا حوحو، والربيع بوشامة، ومولود فرعون وعبد الكريم العقون، ومحمد أمين العمودي، وغيرهم من ذوي الأقلام الجادة، الحادة، على يد الاستعمار الغادر، إلاصورة جلية عن مدى بشاعة الاضطهاد لرافعي شعلة النضال بالحروف المنيرة، والكلمة الملتهبة.

فأمام الواقع الجديد الذي انصهر بفعل عنف الثورة التي أسقطت الأساليب التقليدية القديمة في طبيعة الصراع مع المستعمر، سارع الأدباء إلى تغيير أدوات التعبير لديهم، ففرضت الثورة عبر تلاحم الجماهير حولها ورسوخ مبادئها، ووضوح أهدافها أسلوبا آخر أحدث نقلة نوعية متقدمة في الأدب السياسي.

- الأدب وإيديولوجية الثورة:

لقد شقت ثورة نوفمبر الخالدة أمام الأدباء طريق إثبات الذات، فعادوا من جديد إلى واقع وطنهم يغترفون من منبعه الفياض، ويلتمسون من خلاله معالم الشخصية الجزائرية التي حاول الاستعمار جهده أن يطمس شخصها ويقوض مقوماتها الراسخة الجذور، الأصلية أصالة هذا الشعب الأبي.

وهكذا عرف الأدباء طريقهم المرسوم نحو جماهير شعبهم التي ثارت لتستعيد حقها المشروع في الحرية والكرامة والسيادة، فوضعوا على عاتقهم مهمة الإضلاع بمسؤولياتهم الجسيمة التاريخية، فحاولوا جهدهم حمل المشعل وإنارة قناديل أخرى على درب نوفمبر. ومن خلال معايشتهم حدث الثورة والتحامهم بجنودها الأبطال أتيح لهؤلاء الأدباء الاستفادة من تجربة إنسانية عميقة وعظيمة، ذلك أن أدب الثورة لايتوهج إلا في قلب المعركة نفسها، حيث يعانق المقاتل وجدان الأديب وهو يساهم عن كثب في معركة التحرير دفاعا عن الوطن والحرية.

لقد فرضت الثورة على الأدباء السيّر في مسالكها الوعرة، وانتهاج إيديولوجيتها الواضحة، من خلال الالتصاق بهذه التربة الخصبة، واحتضان بطولات وملامح الثوار، والتعبير عن هموم ومطامح الجماهير التي ثارت ضد الاستعمار والظلم والتخلف والاستغلال، من أجل حقها الكريم في الحرية والسيادة والتقدم، والتغني أيضا بكلمات الحب والحق، والفرح الإنساني مثل كل البشر.. فالشعب الجزائري عندما ثار - كما يقول جان سيناك- إنما يطالب بحقه المشروع في الحرية وقول الشعر.. "وقد كان برنامج الثورة واضح الأهداف.."

من هنا، حمل الأدباء الجزائريون عن قناعة راسخة هذه الإيديولوجية الجديدة، وحاولوا جهدهم أن يكونوا صوت الثورة، ولسان حال مفجريها وفاعليها الأبطال، ودعامتها في الداخل والخارج، وإن كانوا قد استقبلوا أحداثها وبطولاتها أحيانا بنوع من الانبهار والاندهاش، فقد كان فعل عنف الثورة أقوى وأبلغ من بلاغة الكلمات.

لذا، جاء هذا الأدب في كثير منه في لحظات انفعال أمام حدث عظيم وإن كان له فضل الريادة في ترصد مسيرة الثورة، والإشادة ببطولات رجالها، فحاول أن يلهب الحماس في نفوس الجماهير لتواصل زحفها المقدس.

غير أن قيمة هذا الأدب تتفاوت من حيث المعاناة والعمق والجودة من كاتب لآخر، ومهما ارتفع أحيانا، فقد ظل بعيدا عن السمو إلى مستوى عظيمة ملحمة الثورة الخالدة.

وهكذا يمكننا القول: أن الأدب الجزائري باختلاف السنة وأمزجة كتابه، شكل "إيديولوجيته" ضمن الإطار الوطني النضالي، من خلال معانقته لقضايا الواقع، واحتضانه لهموم الجماهير، والتصاقه بالتربة والتحاقه بحركة الثورة، مما أكسبه خصوصيته المميزة، ومناعته وقناعته الذاتية، فرفع لواء رفض القهر والظلم والتنديد بالاستغلال والاستعمار، مع الدعوة المستمرة للإصلاح والثورة من أجل التحرر والتقدم والرفاهية.

ولعل من الصعب تحديد الملامح الإيديولوجية للأدب ما بعد الاستقلال، في مثل هذه العجالة، خاصة وأنها مرحلة هامة شهدت في فترة قصيرة من عمر الزمان إنجازات ضخمة وتحولات جذرية، مع تحقيق مكاسب وطنية عديدة لفائدة الجماهير الشعبية. من أبرزها الثورة الزراعية، التسيير الاشتراكي للمؤسسات، مجانية العلاج، ديمقراطية التعليم إلى جانب مشاركة القاعدة النضالية في مناقشة وإثراء أمهات القضايا الوطنية، قبيل معالجتها والمصادقة عليها من طرف اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني في دوراتها المختلفة.

وقد يكون من أبرز سمات هذه المرحلة في الحقل الثقافي تعدد وسائل النشر، واختفاء أو انزواء عدد كبير من أدباء الثورة، لأسباب دراسية أو وظيفية، أوالظروف شخصية أوسياسية، إلى جانب ظهور أسماء جديدة عديدة من جيل ترعرع في أحضان الثورة، واشتد عوده وتفتقت وتفتحت قرائحه في ظلل الاستقلال، فوجد نفسه بالضرورة في موقع وموقف محدد، منحازا لهموم المرحلة، بصفة أو بأخرى، مدافعا عن المكاسب الجماهيرية، وخاصة منها الثورة الزراعية لمنهج جديد، دخل عن جدارة

قاموس أدب السبعينات واستحوذ على كتاب هذه المرحلة في الشعر والقصة والرواية والمسرحية كما في الأدب الشعبي الشفوي.

وقد جاء الميثاق الوطني في جوان 1976 ليبلور الإدارة الشعبية الجماعية، وليقدم دعما كبيرا ودفعا جديدا للإيديولوجية الوطنية، ثم سرعان ما اكتملت معالم اللوحة وملامح الصورة، لدى الأدب والمثقف بشكل عام، بعد استكمال بناء مؤسسات الحزب والدولة وعقد المؤتمر الرابع الاستثنائي لحزب جبهة التحرير الوطني، بمقرراتهما ووثائقهما المكملة لمواثيق الإيديولوجية الجزائرية.

ولعل أهم ميزة لأدب هذه المرحلة، تكمن في تنويع أشكاله ومضامينه، من خلال استلهام التراث العربي الإسلامي، مع التفتح على الأفكار العالمية المتقدمة، ومحاولة استيعاب مهام البناء الوطني، وكذا الاجتهاد قدر الإمكان فيفهم نصوص ومواثيق الإيديولوجية الوطنية، النابعة أساسا من الميثاق الوطني، وتفسيرها إبداعيا حسب تنوع الأمزجة والمشارب في جو من الحرية، وتحت تأثير نوع من الرقابة الذاتية، في إطار منظور إيديولوجي وطني هام.

ومعذرة عن هذا التقصير في إعطاء الأمثلة والنماذج، وفي متابعة أدب مابعد الاستقلال من منظور إيديولوجي، فذلك موضوع متشعب الفروع والجذور، ويحتاج إلى وقفات وجلسات، لن يتسع لها المقام والمقال[1].

1. قدمت هذه المداخلة، خلال ملتقى المثقف والإيديولوجية الذي أقيم بالجزائر العاصمة يومي 2 و 3 نوفمبر 1983 تحت إشراف اتحاد الكتاب الجزائريين.

الثورة في الأدب العربي

هل يمكن أن نقول بأن سنة 1984 تميزت ببلادنا في المجال الأدبي والثقافي بكثرة وتنوع الملتقيات والمهرجانات المخلدة للذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة التحريرية؟ لكن، إلى أي حد يتوفر عنصر الانسجام والتنسيق والتكامل بين جميع تلك الملتقيات والمهرجانات؟ هذا هو السؤال الكبير الذي يفرض نفسه دوما بإلحاح.

من أجواء وهوامش ملتقى - الثورة الجزائرية في الأدب العربي - الذي أقيم بالجزائر العاصمة خلال الفترة الواقعة ما بين 20 و23 نوفمبر 1984، ننقل مجموعة من اللقطات الصغيرة ذات الدلالات الكبيرة، حتى تتضح معالم الصورة لدى القراء الكرام.

- محاضرات وأمسيات شعرية:

يمكن حصر حصيلة أشغال هذا الملتقى الذي نظمه اتحاد الكتاب الجزائريين في إلقاء خمس محاضرات متبوعة بمناقشة عامة مع كل من الأساتذة: الدكتور عثمان سعدي من الجزائر عن المنهج الميداني في جمع التراث الشعري الخاص بالثورة الجزائرية، والدكتور حسين الأعرجي من العراق - عن الثورة الجزائرية في شعر الجواهري والسياب - والدكتور حسن فتح الباب من مصر - عن أصداء الثورة الجزائرية في الشعر المصري المعاصر - والدكتور محمد الصالح الجابري من تونس - عن الثورة الجزائرية في الشعر التونسي - والدكتور عبد الرحمن الكيالى من فلسطين - عن علاقة الثورة بالأدب.

وإلى جانب ذلك، هناك قراءات شعرية بالمناسبة شارك فيها كل من الشعراء: سليمان العيسى من سوريا، وجيلي عبد الرحمن الكيالى من فلسطين، وحمري بحري من الجزائر، وحسين الأعرجي من العراق.

- ما عذر الجمهور؟:

جمهور قليل حضر وتابع أشغال هذا الملتقى وقد ظل في أحسن الأحوال لا يملأ سبع قاعة ابن خلدون الفسيحة، بمقاعدها المريحة.

علق أحدهم: ماذا سيكون الأمر لو أقيمت حفلة فنية من الدرجة العاشرة؟ هل ستكفي القاعة على سعتها لاحتضان الجمهور الغفير وقتئذ؟

ترى، هل السبب يعود إلى نقص الإعلام والإشهار؟، أم إلى انشغال المهتمين بأشياء أخرى أهم؟ علما بأن قاعة ابن خلدون تقع على بعد - مسيرة - خمس دقائق فقط من الجامعة المركزية.

- دمعة.. سليمان العيسى:

صفق الجمهور الحاضر طويلا الشاعر الكبير سليمان العيسى صاحب مجموعة - صلاة لأرض الثورة - وهو يقدم قصيدته الجديدة المعنوية - من يذكر الدمعة الحري؟ وقد قدم لها بالكلمة التالية:

.. قبل ثلاثين عاما، في قبوى المتواضع بحلب تلقيت نبأ الرصاصة الأولى، نبأ انطلاق الثورة الجزائرية، كان بين يدي طفلي الصغير وفي عيني دمعة، ومنذ ذلك المساء، مساء الميلاد البطولي العظيم، عشت مع الثورة وعاشت معي، تلهمني وأكتب، أكتب وتلهمني، ثلاثون عاما والعاشقان القديمان، وقصيدة بعنوان، من يذكر الدمعة الحري؟.. أهديها إلى الفاتح من نوفمبر إلى الدرس العظيم!..

- الجديد .. عند البياتي :

عبد الوهاب البياتي الشاعر العراقي المعروف كان له حضور كبير على هامش الملتقى، وخاصة في الجلسات المغلقة مع رفاق الكلمة وعشاق الشعر.

سألته عن اتجاهه الأخير لترجمة شعره إلى اللغة الإسبانية: فأشار بأن ذلك من شأنه أن يمدد رقعة الفتوحات الشعرية العربية إلى إسبانيا - الأندلس سابقا - وإلى أمريكا اللاتينية التي يجمعنا بها قاسم مشترك وهو العالم الثالث.

ثم طلبت منه الجديد لديه، فقال: هناك مطلع لمشروع قصيدة قد لا تكتمل، كتبته هذه الأيام فجاء كالتالي: بصلعته العارية أطل على الهاوية، وألقى قصيدة راكبا بغلة القافية، وضحك الجميع وسكت الشاعر.

- أكثر من 300 قصيدة عن الثورة :

أكثر من 300 قصيدة من العراق وسوريا لشعراء تفاعلوا عم الثورة الجزائرية تلك هي الحصيلة التي جمعها الدكتور عثمان سعدي وقدم نماذج منها في محاضرته القيمة عن المنهج الميداني في جمع التراث الشعري الخاص بالثورة الجزائرية.

ترى- كم سيبلغ الرقم لو جمعنا كل القصائد التي كتبت عن هذه الثورة بمختلف البلدان العربية؟ ألا يكون هذا المجموع الضخم عدة مجلدات فخمة من "ديوان الثورة الجزائرية"؟

ثم ماذا لو كنا عمليين وكونا لجانا مختصة في جمع وتصنيف جميع القصائد التي قيلت عن الثورة، لإخراج المشروع إلى حيز التنفيذ؟ وبذلك فقط نقدم أكبر خدمة لأجيالنا الصاعدة ولأبناء الأحفاد[1].

---

1. نشرت هذه التغطية الصحفية الأدبية في حينها بجريدة الجمهورية ليوم 27 نوفمبر 1984م

ثلاثيات المثقفين والثورة

شتان ما بين الحقيقة والخيال، بين الواقع والحلم، لقد كان الطموح كبيرا في البداية، ثم سرعان ما بدأ يتضاءل ويتلاشى شيئا فشيئا، إلى أن كانت المفاجأة. هكذا أعلن الدكتور عبد الملك مرتاض خلال الجلسة الإفتتاحية لملتقى المثقفين والثورة.

لقد تقرر إقامة هذا الملتقى رسميا فيما أذكر أثناء انعقاد الدورة الأخيرة للجنة المديرة لإتحاد الكتاب والصحافيين والمترجمين يوم 9 فيفري 1986، وانطلقت التحضيرات "السرية والعلنية" بعد ذلك، إلى أن حدثت المفاجأة يومي 2 و3 جويلية 1986. ما الذي حدث؟. ثم ماذا بعد كل هذا؟.

- ثلاثة في ثلاثة :

ثلاث مداخلات، وثلاث قراءات في ثلاث جلسات. تلك هي الحصيلة العامة بلغة الأرقام لملتقى المثقفين والثورة. ثلاث جلسات. هي صباح ومساء الأربعاء، مع صباح الخميس، بمعدل ثلاث ساعات في كل جلسة.

وثلاث مداخلات لكل من: يحي الشيخ صالح من جامعة قسنطينة، وشايف عكاشة من جامعة تلمسان، وبشير بويجرة محمد من جامعة وهران. وثلاث قراءات ادبية، لكل من: عمار بلحسن. محمد مرتاض. مصطفى الغماري.

- ثلاث اتهامات :

لكل جلسة من تلك الجلسات الثلاث، بطل تمحور حوله الأشغال أووضع تحت الأضواء الكاشفة، إن لم نقل وضع في قفص الاتهام

بطل الجلسة الأولى، شاعر الثورة الجزائري، مفدي زكريا، حيث استمر النقاش طويلا - نسبيا - حيث طرحت مسألة: من الذي أدخل مفدي السجن الاستعماري: شعره أم نضاله؟. واستقر الرأي - نسبيا كذلك - عليهما معا، ولايزال الباب مفتوحا أمام الاجتهادات والإضافات.

بطل الجلسة الثانية الأديب المبدع بالفرنسية: مولود فرعون. فبعد 24 سنة من رحيله طرحت مسألة ولائه وانتمائه وانضمامه للثورة وارتفعت الأصابع لتتهمه بالخيانة، مستشهدة "بيومياته" أو "مذكراته" التي تؤرخ لفترة ما بين أول نوفمبر 1955 - أي بعد سنة بالضبط من اندلاع الثورة، وبداية مارس 1962 أي قبل أيام فقط من "استشهاده أووفاته".

وبطل الجلسة الثالثة، ثلاثة هم: الطاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة ورشيد بوجدرة. حيث ارتفعت بعض الأصوات لتحاكم الشخصيات في روايات كل منهم. من خلال تساؤل "مدهش": هل هي بالفعل واقعية؟ وراح أحدهم يتحدث بأسباب عن بطل إحدى الروايات و"ماذا يكسب وماذا يحسب؟".

- ثلاثة طموحات:

بعد ثلاث جلسات انفض الملتقى ليخلف وراءه ثلاث طموحات.

1. أن يعقد سنويا وبانتظام.

2. أن ينتقل إلى أي ولاية تضمن له الحد الأدنى من النجاح.

3. أن يستغل لتكريم المبدعين والمنتجين في الحقل الثقافي، خلال نفس السنة.

.. وما ضاع مشروع وراءه طالب مجد.. وأن غدا لناظره قريب.

- الحسناء.. والخطاب:

.. إنها فتاة حسناء.. كل منا يخاطبها، ويخطب ودها بطريقته الخاصة، وسيظل خطابها يتكاثرون، ولن تكون من نصيب واحد.. فهي حسناء، ومهرها لا يقدر بثمن.. لأنها ملك للشعب كله.

- هل عرفتم من عساها تكون هذه الحسناء؟..

- هكذا لخص الأديب العربي دحو موضوع المثقفين والثورة خلال الجلسة الختامية.

- ملتقى.ندوة:

وختاما.. احتار المشرفون المنظمون على التسمية.. هل هو ملتقى.. أم ندوة؟.. ولذلك تكررت التسميات.. وظل "الآخرون" يبحثون عن تسمية ثالثة...

فهو من حيث المحاضرات أو المداخلات التي ألقيت.. أو تلك التي احتفظ بها أصحابها في محافظهم أو حقائبهم.. يرقى إلى مستوى الملتقى.

وهو من حيث الحضور المخجل.. حتى لا نذكر الرقم.. لا يرقى حتى إلى مستوى "الندوة".

والاجتهاد المطروح والمطلوب حاليا: لماذا لا ننظم ملتقى عن "الملتقيات".

كيف نكتب عن الثورة؟

عقارب الساعة تسرع وتسرع، والزمن يمضي ويمضي وها نحن اليوم نعيش غمرة الاحتفال بالذكرى الثلاثين لاندلاع شرارة الثورة التحريرية. ترى ماذا نكتب عنها، وكيف نبدع ونجيد؟. وهل يحق لجيل ولد في خضمها أن يكتب عنها الآن بعد أن تجاوز سن الرشد؟. ماذا تمثل لوحتها اليوم بالنسبة لكتاب ما بعد الاستقلال؟ .. هذه التساؤلات المتتالية تبدو مشروعة الآن بعد مرور ثلاثين سنة على اندلاع لهيب أعظم ثورة كاسحة يعتز بها ابن القرن العشرين، وهي في الوقت ذاته، تساؤلات ملحة تعرض نفسها على جميع الكتاب والمثقفين والمهتمين.

كيف نكتب عنها الآن؟. هل تتحمل القصيدة أو القصة القصيرة برقعتهما الضيقة؟. وهل تتسع الرواية أو المسرحية بلباسهما الفضفاض؟. أم هل تستطيع المقالة الأدبية أن تتخلى عن "مساحيق التجميل" لتعوض بهدوء أعصاب ورباطة جأش ما فات بقية الفنون الأدبية الأخرى؟ .

الحق نقول: إن البيان والشعر مهما بلغا من السحر لا يرقيان لبلوغ قمة الواقع، بجمالياته وامتداداته بعنفوانه ومتفجراته، والثورة الجزائرية هي واقع وفعل وانفجار أصدق وأبلغ من الحلم والخيال، وأعظم سحرا وشعرا من البلاغة والبيان. هل معنى ذلك أن ننكمش داخل ذواتنا، ونتقوقع وسط شرنقتنا الهادئة، نمزق الأوراق، ونكسر الأقلام، ونلعن الظلام لنعيش في سلام؟. أم نعود - والعود أحمد - من جديد لنملأ الدلو من معين هذه الثورة الصافية المعطاء؟

هناك من يقول بأن الأدب الثوري الحقيقي هو الذي يحس بحجم وعنف الحدث أو المأساة، قبل الوقوع، فيندفع إلى الأمام ليدق أبواب الغيب، ويستشف معالم المستقبل، يحلم بالثورة، ويمهد لها قبيل وقوعها، فيرتفع إلى مستوى النبوءة.

وهناك من يردد: بل هو ذاك الذي يأتي أو قد لا يأتي بعد مرور فترة من الزمن، قد تطول أو تقصر، حسب مقتضيات الظروف والأحوال، بعد أن تستقر الأوضاع، وتتضح الأمور، وتختمر الأشياء والأفكار في الذاكرة، وتنمو تلك البذرة الطيبة فإذا هي شجرة مباركة جذورها في الأرض، وفروعها في السماء..

وهناك من يرى بأدب الثورة هو الذي يعيش معها ويعايشها عن قرب، ملتحما بلحمها وعظمها يحتضن همومها ومكاسبها يواكب عن كثب أحداثها ووقائعها، يغمس قلمه في دمها ولهيبها.

ما شأننا الآن بكل هذه الآراء والأقوال... هل نقف اليوم مكتوفي الأيدي، نتأمل في صمت وإجلال وانبهار لوحة الثورة، أو ما تبقى من ملامح صورتها في الأذهان ؟... ننكمش كالقنفوذ تحت قشرتنا ونردد في أعماقنا: يكفينا الانتظار لنعد إلى الديار، لقد فاتنا القطار. هل يمكن أن نلحق به الآن؟.. وبأي سرعة..؟ وهل نستطيع..؟

ومع هذا وذاك، هناك أعمال أدبية على قلتها وعلتها كان لها فضل الريادة في الحلم بالثورة، والدعوة لها، تلميحا أو تصريحا، أي أنها تنبأت بصفة أو أخرى بهذه الثورة، وهي تتململ تحت قشرة التربة الجزائرية. ولا ننكر مدى مواكبة الأدب بوجه عام، والشعر بوجه خاص لمسيرة الثورة التحريرية مترصدا لأحداثها ووقائعها، محتضنا لعذابات وطموحات الجماهير الشعبية، وهي تساهم بكل ثقلها مساهمة فعالة في إبداع ملحمة ثورية خالدة.

وهل ننسى أيضا تلك المبادرات الفردية الرائدة، لبعض كتاب جيل الاستقلال لتخليد عظمة هذه الثورة المظفرة؟.. من منا لم يقرأ ويتفاعل مع "لاز" وطار، مثلا ليطل من خلاله على صفحات مطوية من هذا المجلد الضخم الفخم ؟

لكن .. ماذا يفعل الكتاب من جيل الاستقلال، أولئك الذين حرموا من شرف الكفاح المسلح ولم "يتمتعوا بحرقة اللهب المقدس"؟.. ماذا يكتبون عن ثورة جبارة

نعيش في بؤرة الشعور، وعلى هامشه في آن واحد؟.. كيف يكتبون ويبدعون؟.. هل يستجدون بشهادات وتصريحات مجاهدي الأمس؟.. هل ينقبون بين الأوراق والكتب المتناثرة هنا، وغالبيتها هناك من وراء البحر؟.. أم يعتمدون على صور خلفية مترسبة بقاع الذاكرة، وأخرى ترسمها المخيلة في لحظة اتزان وإشراق ؟..

الواقع أن كل الأزمنة تؤدي إلى بقعة الثورة الجزائرية، كما أن كل الأمكنة تمر على رقعة التربة الجزائرية، كل الطرق والوسائل ممكنة تسعى إلى هدف تخليد ملحمة هذه الثورة الجبارة.

هناك خلفيات، وتحتيات، وأصداء، وظلال عشرات، وعشرات الموضوعات التي تكتب نفسها بنفسها، عندما تجد قدرة الفنان المبدع:

- الفلاحون الذين تذمروا من الإقطاع والاستغلال، فتمردوا على الجبروت والطغيان، واندمجوا في الثورة كوسيلة للتشبث بالأرض، وكهدف للخلاص والانعتاق.

- الطلبة المثقفون الذين تركوا كتبهم وحبهم جانبا، ليلتحقوا بإخوانهم ورفاقهم في السهول والوهاد، في التلال والجبال.

- ذلك المسبل الذي يضع قدميه علي قنبلة موقوتة، حتى إذا ما مر من معه من مجاهدين، انفجرت القنبلة ليسجل اسمه في قائمة الشهداء الخالدين.

- وتلك البنت الكريمة التي يقتل العدو والدها العزيز أمام ناظريها في مشهد رهيب تتقطع له الأكباد والأفئدة.

- وذاك الثائر الذي دشن المقصلة الاستعمارية، أطلق في وجه جلاديه صرخته المدوية بحياة الحرية.

- وهذا المجاهد الذي تقطع يده، فيضرب بها عدوه، ويسقط رفيقه بالقرب منه، فيحمله على كتفه، ولا يستسلم أويتراجع..

- وتلك البطلة المحاصرة من طرف جيش الأعداء، تبحث لها عن منفذ أومخرج، ولما لم تجد ترمي بنفسها في بئر عميق، حتى لا تقع أسيرة بين أيدي المستعمرين.

- وذاك الأب الذي يبيع بقرته الوحيدة ليتبرع بثمنها للمجاهدين بعد أن منعه مرضه العضال من رفع السلاح، والإسهام المباشر في الكفاح.

- وأولئك المجاهدون الذين تجمعوا في المساء بعد عياء، وعناء يوم كامل، حول صحن واحد لاقتسام لقمة العيش.

- وتلك العائلة التي يتجمع وينام أفرادها السبعة في غرفة ضيقة ليتركوا الغرفة الباقية لإيواء المجاهدين المعطوبين الذين يقتسمون معهم الخبز والملح والطعام.

- وهؤلاء المجاهدون الذين يقفون أمام العلم الوطني المرفرف، بإجلال وفي خشوع المتصوفين، ماذا ينشدون في سريرتهم؟ وماذا تحقق من أحلامهم وطموحاتهم؟..

إنها بالفعل لحظات إنسانية ثابتة، ومواقف بطولية خالدة، انصهرت في بوتقة هذه الثورة العظيمة، ولا تتطلب الكثير من الجهد والبحث، بقدر ما تحتاج إلى قليل من المعاينة والمعاناة، حتى تجسد في أعمال أدبية ناصعة البياض، تقدم إضافة نوعية متقدمة للإبداعات المتوفرة في هذا المضمار، حتى تتضح ملامح ملحمة ثورية خالدة، يعتز بها أبناء الأحفاد أبد الدهر.

وتلك مسؤولية جسيمة تقع على عاتق كل ذي قلم أنيق شريف، ولا شك أن عقارب الساعة تسرع وتسرع والزمن يمضي ويمضي، وها نحن اليوم نعيش غمرة الاحتفال بالذكرى الثلاثين لاندلاع شرارة الثورة التحريرية.. فهل من مستجيب لصرخة أول نوفمبر الخالدة[1]؟

---

1 نشرت هذه المقالة بملحق النادي الأدبي لجريدة الجمهورية بتاريخ 12 أكتوبر 1984، وقدمت كمداخلة في أواخر نفس الشهر ضمن أشغال ملتقى "الأدب والثورة" الذي أقيم بمدينة سكيكدة تحت إشراف فرع اتحاد الكتاب الجزائريين.

من أدباء الثورة

- ◊ أحمد رضا حوحو أول أديب شهيد
- ◊ العمودي شهيد الأدب والصحافة
- ◊ مفدي زكريا تحدى سجن المستعمر
- ◊ محمد العيد شاعر الوطنية
- ◊ صالح خرفي غنى للوطن والحرية
- ◊ السائحي شاعر الإصلاح والنضال
- ◊ وطار رائد القصة الثورية

أحمد رضا حوحو أول أديب شهيد

تحل ذكرى استشهاد الأديب أحمد رضا حوحو على يد القوات الاستعمارية يوم 29 مارس 1956 بقسنطينة، فكان بذلكم أول أديب جزائري يقدم حياته ثمنا لحرية وطنه ويسجل اسمه في قائمة الشهداء.

ولد أحمد رضا حوحو سنة 1911 في بلدية سيدي عقبة(بسكرة)، ونشأ وتعلم ماتيسر من مبادئ الإسلام واللغة العربية، وتتلمذ في المدرسة الابتدائية الفرنسية على المعلمين الرسميين، إلى أن تحصل على الشهادة الابتدائية، وانتقل إلى سكيكدة ليتابع دراسته التكميلية بالفرنسية. وعاد لبلدته ليعمل موظفا بسيطا في البريد والمواصلات.

أما في عام 1934 فسافر إلى الحجاز مع والدته وإخوته، نتيجة صراع بين أبيه الذي كان رئيس قبيلة وبين باشاغا المنطقة المستبدين في ذلك العهد، واستقرت العائلة في المدينة المنورة، حيث أتم أحمد رضا حوحو تعليمه في المعهد الحر للعلوم الدينية إلى أن أصبح مدرسا ثم موظفا بإدارة البريد والمواصلات في مكة المكرمة التي قضى فيها أكثر من عشر سنوات.

وبدأ أحمد رضا حوحا نشاطه الأدبي والفكري في سنة 1937 فكتب أول مقال له بمجلة "الرابطة العربية" التي كانت تصدر بالقاهرة، عنوانه "الطرقية في خدمة الاستعمار"، مما يدل على أن أديبنا كان على اتصال وثيق ودائم بما يجري داخل وطنه، حيث كان يدور الصراع بين الطرقية والإصلاح. ليواصل بعد ذلك الكتابة في مختلف الصحف والمجلات وخاصة مجلة "المنهل" الصادرة بالمدينة المنورة، حيث كانت تنشر له آراءه الأدبية وأفكاره الاجتماعية كما كان يترجم لها ما يعجبه من الأدب الفرنسي إلى اللغة العربية ففتح أمام قرائها نافذة للتعرف على الأدب الغربي

وفي سنة 1947 رجع من الحجاز بعد وفاة والديه مارا بمصر التي أقام بها شهرا ثم باريس باحثا ومستطلعا قبل يحل بالجزائر ويستقر بقسنطينة، حيث انخرط في جمعية العلماء، فعلم وأدار بعض مدارسها في قسنطينة، ثم عين كاتبا عاما لمعهد ابن باديس بعد إنشائه عام 1947 وانتخب عضوا عاملا في مكتب لجنة التعليم العليا التي تشرف على مدارس الجمعية للتعليم العربي الحر بعد تكوينها سنة 1948.

وأثناء العطلة الصيفية لعام 1950 قام أحمد رضا حوحو برحلة إلى الاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وإيطاليا وفرنسا مرة أخرى، وكتب عدة مقالات عن رحلته هذه نشرت في جريدة "الشعلة" التي يتولى إدارة تحريرها بقسنطينة تحت عنوان: "عدت من الإتحاد السوفياتي"، ابتداء من العدد 40 إلى أن تتوقف الجريدة في العدد 50 وبذلك توقفت سلسلة مقالاته عن هذه المرحلة.

وكان رضا حوحو يواصل الكتابة في جريدة البصائر، لسان حال جمعية العلماء قبل جريدة "الشعلة" وبعدها نشر مواضيع أدبية واجتماعية وسياسية متنوعة حتى اشتهر بين أبناء وطنه كأديب قدير وصحفي لامع وناقد اجتماعي بصير يجيد اختيار موضوعه والكتابة فيه وإلى جانب ذلك، نشط في المجال الفني حيث كان يدير فرقة للتمثيل والموسيقى تدعى "المزهر القسنطيني" يؤلف لها التمثيليات والمسرحيات بالفصحى والدارجة ويشرف على إخراجها وتمثيلها بمشاركة بعض الفنانين منهم الدكتور ابن دالي.

وقد خلف أحمد رضا حوحو مجموعة من الأعمال الأدبية والفكرية وهي تشهد على مكانته المرموقة في الأدب الجزائري المعاصر كرائد للقصة العربية في الجزائر.

ومن أهم تلك الآثار سواء المطبوعة أو المخطوطة نذكر منها على سبيل المثال "غادة أم القرى" "مع حمار الحكيم" أحاديث قصصية، صاحب الوحي قصص قصيرة، نماذج بشرية صور قصصية إلى جانب مؤلفاته، "أدباء المظهر" و"في الأدب

الاجتماعي" وعشر سنوات في الحجاز" وغيرها.

هذا وقد استشهد الأديب أحمد رضا حوحو وهو في قمة شبابه وعطائه الأدبي، في السنة الثانية من اندلاع الثورة التحريرية على يد قوات الغدر الاستعماري بقسنطينة إثر انفجار مهول بمقر البوليس الفرنسي اهتزت له المدينة كلها، وخاصة السلطات الاستعمارية وأودي بحياة رجال الشرطة الفرنسية وترك خسائر مادية جسيمة، وكالعادة في مثل هذه الحالات، هبت السلطات الاستعمارية لتسلط غضبها وحقدها على المواطنين في المنطقة التي وقع فيها الحادث بدون تمييز لتنتقم من المثقفين وبعض الشخصيات التي تقف صامدة لمساندة مسيرة الثورة، وكان من بين الذين أخذوا في ذلك اليوم من منازلهم ولم يعودوا إلى أهلهم وذويهم أديبنا الشهيد أحمد رضا حوحو الذي اغتالته عصابة "اليد الحمراء" تلك المنظمة السرية التي تمثلت فيها وحشية الاستعمار الفرنسي بأبشع الصور.

هكذا استشهد أحمد رضا حوحو في يوم 29 مارس 1956 كما استشهد بعد ذلك كل من الأدباء: الربيع بوشامى ومحمد الأمين العمودي وعبد الكريم العقون ومولود فرعون والعربي التبسي وغيرهم. وقد خلف استشهاد الأديب الكبير أثرا بالغا في الأوساط الأدبية، عبر عنه صديقه الشاعر صالح خباشة في قصيدة يقول فيها:

كنت للقطر يراعا منتضى *** رجفت منه قلوب الدخلا

نم قرير العين يا أحمد قد *** فزت فانعم بحياة الشهدا

لقد استشهد هذا الأديب الجزائري الذي سخر قلمه لخدمة قضية وطنه وقدم حياته قربانا على مذبح الحرية. ولعل خير خدمة نقدمها لتخليده هو إعادة طبع ونشر جميع أعماله الأدبية والفكرية حتى يطلع عليها جيل الاستقلال[1].

1. نشر هذا المقال بجريدة الشعب ليوم أول أفريل 1982 تخليدا للذكرى السادسة والعشرين لاستشهاد الأديب أحمد رضا حوحو.

العمودي ـــ شهيد الأدب والصحافة

ـ وماذا يعرف أبناء اليوم عن أدبائنا الشهداء الذين ناضلوا وكافحوا بأدبهم وضحوا بأرواحهم من أجل حرية وطنهم المفدى؟.. تساؤل منطقي واجهني وأنا بصدد الكتابة عن أديبنا الصحفي الشهيد: محمد الأمين العمودي، في ظل إحتفالنا الثقافي بخمسينية الإستقلال.

قليلة هي المعلومات والكتابات عن هذا الشاعر والصحفي، لذا نضطر إلى الاستعانة والاستفادة من دراسة هامة للأستاذ: حمزة بوكوشة، منشورة بالعدد السادس من مجلة الثقافة لجانفي 1972 ودراسة مطولة للأديب: أحمد بن نياب بالعدد 86 من نفس المجلة، بتاريخ مارس 1985 وكذلك من الكتاب القيم الذي ألفه شاعرنا محمد الأخضر عبد القادر السائحي بعنوان: محمد الأمين العمودي الشخصية المتعددة الجوانب، وقد ظهرت طبعته الثالثة سنة 2006 في حدود 130 صفحة من الحجم المتوسط عن دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

ولد محمد الأمين العمودي سنة 1890 بواد سوف بالجنوب الجزائري، تعلم مبادئ العربية والدين قبل أن يلتحق بالمدرسة الإبتدائية بمدينته، وفي السادسة عشرة من عمره إلتحق بمدرسة قسنطينة الفرنسية الإسلامية، وهي ثالث ثلاثة بعد مدرستي الجزائر وتلمسان لتخريج القضاة والمترجمين ورجال المحاكم الشرعية وأعوان الإدارة الأهلية. اشتغل في عدة وظائف من بينها: كاتب عدالة في بلدة فج مزالة، ثم مساعد الترجمان الشرعي ببلدة برلين، وادي الماء حاليا، ثم وكيل شرعي بمدينة بسكرة، قبل أن يتولى نفس المنصب بالجزائر العاصمة.

تولى مهمة أمين عام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في السنوات الخمس الأولى من تأسيسها، أي من 1931 إلى 1936، وقد ساعده تمكنه من اللغتين العربية

والفرنسية. كما ترأس جمعية شباب المؤتمر الإسلامي الجزائري التي أسسها جماعة من الشباب لتحافظ على مبادئ المؤتمر الإسلامي ومنهم الشيخ الفضيل الورتلاني.

قام محمد الأمين العمودي بدوره الفعال في ميدان الصحافة، فقد أصدر جريدة: الدفاع باللغة الفرنسية، وجريدة الجحيم باللغة العربية، وكتب في أغلب الصحف الوطنية الأخرى مثل: النجاح في عهدها الأول خلال العشرينات، وجريدة: الإقدام المزدوجة اللغة، ثم جريدة الجزائر الجمهورية باللغة الفرنسية، ولم تكن صحف الجزائر فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية تخلو من كتابات العمودي.

ظهرت قصائده الأولى في الجزء الثاني من كتاب: شعراء الجزائر في الوقت الحاضر للمرحوم الهادي السنوسي الزاهري. وقد صدر سنة 1927 بمطبعة النهضة بتونس. وكان معظم شعره ذاتيا تطغى عليه نغمة الحزن واليأس في مرحلة شبابه، يعكس بعمق مدى معاناته مع الفقر والبؤس. وغالبا ما كان ينشر كتاباته بالصحف المذكورة بأسماء مستعارة مثل: سمهري، وديك الجن، وجساس.

وظل العمودي ناقما على الإدارة الفرنسية منذ أن كان يتعلم في مدرسة قسنطينة حيث يبرز ذلك بكل وضوح في إحدى قصائده:

في قسنطينة قضيت شبابي *** في عناء ومحنة وعذاب

وخطوب تحل بعد خطوب *** ومصاب يجيء بعد مصاب

عفت أحوال كل مدرسة مذ *** قل مالي وخانني أصحابي.

ويستوحي شاعرنا قصائده على العموم من وضعيته المزرية ونقمته على الواقع الاجتماعي، وغالبا ما يميل إلى حلو الدعابة والسخرية، كما تبرهن على ذاك الأبيات التي يعالج فيها مشكلة الزواج بالأجنبيات، وقد كتبها يومئذ في طبيب مسلم متزوج بفرنسية وله منها غلام، حيث يقول:

حيي الطبيب ولا تنسى قرينته *** هو سليمان والمدام بلقيس

له غـلام أطـال الله مدتـه *** تنازع العرب فيه والفرنسيس

لا تعذلـوه إذا خـان أمتـه *** فنصفه صالح والنصف موريس

وعن هذه الأبيات البليغة العميقة. يقول الأديب: احمد بن ذياب في دراسة مطولة نشرها بمجلة الثقافة في عددها 86 بتاريخ مارس 1985 م حرفيا: انطلقت هذه الأبيات كالقنبلة الموقوتة في كل الأوساط لسلاستها وصدقها وروعة تصوير ماسي أبناء الجزائر الذين يخدعهم المظهر الحضاري في الأوروبية، أو تحدو بهم الأطماع في جاه ومال أو ترقية. ولعل الروعة في قوله: لا تعذلوه إذا خان أمته أوملته. لأن الذنب إنما ذنب الجزائري المخدوع الذي يعلم أن الإسلام يقول: الولد يتبع أباه في الدين و في النسب. والقانون الفرنسي يقول في المستعمرات: إنما يتبع الجانب الأقوى وهو هنا يعني الأم الأوروبية. وكانت هذه الأبيات أشد تأثيرا من أية فتوى يصدرها فقيه. وسدت أبوابا كانت مفتوحة للتجنس مشجعة على الإيغال في الاندماج في العنصر الأجنبي.

ومعظم إنتاجه الشعري مغمور، يحتاج إلى جهود الباحثين لجمعه وطبعه، وما هو متوفر حاليا تم جمع مختارات منه في حوالي عشرين صفحة، من طرف الأستاذ محمد الأخضر عبد القادر السائحي في كتابه الهام عن محمد الأمين العمودي.

أما كتاباته النثرية العديدة كان ينشرها في صحف تلك المرحلة، مثل: النجاح، والإصلاح، والدفاع، وفي المنتقد، والشهاب. كما يشير الدكتور محمد ناصر في كتابه القيم عن المقالة الصحفية الجزائرية. ورغم ما قيل ويقال فإن كتاباته النثرية يغلب عليها الطابع الوطني والإسلامي. حيث يقول العمودي عن نفسه: أما حياتي فحياة كل مسلم جزائري، حياة بلا غاية ولا أمل، حياة من لا يأسف على أمسه، ولايغبط بيومه ولا يثق بغده.

ومثل معظم أدباء تلك المرحلة تعرض محمد المسن العمودي لشتى أنواع المضايقة والتعذيب بالسجن الاستعماري الذي دخله مع بداية الحرب العالمية الثانية في سبتمبر

1939 ثم سرعان ما عرض عليه إطلاق سراحه بشرط أن يعتزل السياسة، فقبل وقتئذ بحجة برّر بها موقفه، وهو أن الظرف وقت حرب وليس زمن مساومات سياسية، وأن الاجتماعات ممنوعة. ثم انتهت الحرب ووقعت أحداث 08 ماي 1945 التي عجلت باندلاع شرارة الثورة المجيدة في فاتح نوفمبر 1954.

حينئذ اندمج أديبنا الصحفي في صفوف الثورة رغم كبر سنه، وغالبا ما كان يعمل في الخفاء، حتى إذا جاء يوم 10 أكتوبر 1957 اغتالته اليد الحمراء الاستعمارية، وعثر عليه مرميا بجانب السكة الحديدية قرب البويرة، لم ترحم شيخوخته وقد ناهز السبعين، ولم تشأ أن تقتله علانية، لأنها كانت تريد أن تتحصل منه على بعض الأسرار الهامة، خاصة بعد أن قام بحرير وترجمة التقرير الذي قدم في ملف القضية الجزائرية للأمم المتحدة عن التعذيب الجهنمي والأساليب الوحشية التي كانت السلطات الفرنسية تستعملها ضد الشعب الجزائري.

وهكذا لم يتورع المستعمر عن ملاحقة الأدباء الوطنيين والتنكيل به وقتلهم، وما استشهاد كل من: أحمد رضا حوحو، والربيع بوشامة، ومحمد الأمين العمودي، ومولود فرعون- وغيرهم من ذوي الأقلام النيرة على يد الغدر الاستعماري، إلا صورة جلية عن مدى بشاعة الاضطهاد لرافعي شعلة النضال بالحروف النيرة والكلمة الملتهبة.

مفدي زكريا تحدى سجن المستعمر

لم يكتب لشاعر جزائري أن ملأ الدنيا وشغل الناس، مثل مفدى زكريا. رغم ما لقيه من أصناف الإجحاف والتهميش من طرف النقاد والباحثين من أبناء وطنه. حياته حافلة بالنضال والأعمال، وتجربته متميزة في الصحافة، وأدبه غزير ومتنوع، وان ظل جله مغمورا مطموسا بين ثنايا رحلة نصف قرن من الزمن. وسنحاول هنا أن نتوقف قليلا عند أبرز مراحل ومحطات هذا الشاعر الوطني الثوري. بالاعتماد على كتابي: شاعر مجد ثورة، وكذلك الدراسات التي كتبها الأديب الباحث الدكتور محمد ناصر حول شاعر النضال والثورة، بالإضافة إلى منشورات مؤسسة مفدى زكريا التي ولدت في بداية أكتوبر 2001.

اشتهر باسمه المعروف: مفدى زكريا وبأسمائه المستعارة: الفتى الوطني - أبوفراس الحمداني - ابن تومرت . غير أن اسمه الحقيقي هو: الشيخ زكريا بن سليمان. ولقبه أحد زملاء البعثة الميزابية التعليمية بمفدى فأصبح يعرف بمفدى زكريا.

وقد ولد يوم 12 جوان 1908 وليس 1913 كما تذكر بعض المصادر الموافق ليوم الجمعة 12 جمادى الأولى 1326هـ ببلدية بن يزقن بمنطقة بني ميزاب أومايعرف حاليا بولاية غرداية.

وهناك تابع دروسه الأولى، فحفظ ما تيسر من القرآن الكريم، وتعلم مبادئ اللغة العربية والفقه الإسلامي. ثم انتقل إلى مدينة عنابة لمساعدة والده في تجارته ولمواصلة تعليمه. وفي سنة 1922 توجه إلى تونس ضمن البعثة التعليمية الميزابية، ليتابع دراسته بكل من مدرسة السلام والمدرسة الخلدونية وجامع الزيتونة.

وأثناء هذه الفترة الخصبة انكب على الدرس والتحصيل والمطالعة المستمرة، وحضور مسامرات الأديب التونسي: العربي الكبادي. وارتبط بصداقة حميمة متينة مع الشاعر الجزائري: رمضان حمود. وكذلك مع الشاعر التونسي المعروف: أبوالقاسم الشابي.

وقد تفجرت موهبته الشعرية مبكرا في أوائل سنة 1925 بمحاولة رثاء "كبش العيد" بمناسبة عيد الأضحى المبارك، متأثرا بالشاعر أبي العلاء المعري كما يذكر ذلك في حواره المنشور بجريدة الشعب الثقافي(5 أوت 1972). وتلتها قصيدته الملتهبة "إلى الريفين" في تمجيد كفاح الشعب المغربي الشقيق بقيادة الزعيم عبد الكريم الخطابي ضد المحتل الإسباني. وقد نشرها بجريدة "لسان الشعب" بتونس بتاريخ 6 ماي 1925 قبل أن تنشر بعد ذلك بكل من جريدة "الصواب" التونسية. وفي صحيفتي: اللواء، والأخبار، بمصر، وظل مفدى ينشد هذه القصيدة. بحماسه المعهود على منبر نادي الحزب الحر الدستوري التونسي. واعتقل من أجلها مدة نصف شهر. ثم أطلق سراحه.

واتصلت حياة مفدى الأدبية اتصالا جذريا بنشاطه السياسي الوطني، ويدل إنتاجه الشعري الذي نشره في سنوات 1927- 1930 بجريدتي: الشهاب. ووادي ميزاب إنه كان متواجدا بالجزائر مشاركا في أحداثها. متتبعا لتطوراتها الاجتماعية والسياسية. ولاسيما في إطار الحركة الإصلاحية. كما يشير الدكتور محمد ناصر في كتابة مفدي زكريا شاعر النضال والثورة ص11.

ومنذ عودته للجزائر سنة 1926 أصبح من الأعضاء النشطين لجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين، وبرز كأحد المنتقدين بشدة للتيارات الاندماجية، ومن المتشبثين بحرية ووحدة المغرب العربي، وتجلى ذلك بوضوح في بيانه المعروف "بعقيدة التوحيد"، وتشتمل على عشرة بنود ترتكز على الإسلام والعروبة، ووحدة الشعوب المغاربية. وقد وضع هذه الوثيقة الهامة واقترحها على الطلبة في مؤتمرهم الرابع المنعقد بتونس

في 2 أكتوبر 1934 ونالت تجاوبا كبيرا من طرف المشاركين. وفي 17 أكتوبر 1936 الف شاعرنا نشيد "حزب نجمة شمال إفريقيا" المعروف: نداء الجزائر روحي ومالي. الذي أصبح نشيدا لتجمع وتوحد المناضلين الوطنيين.

وفي 5 مارس 1937 نشر قصيدته الشهيرة: "بردة الوطنية الجزائرية" بصحيفة الشباب التونسية وتتضمن 43 بيتا مع كلمة تقديم بليغة بقلم الشاعر الكبير: بيرم التونسي صاحب هذه الجريدة.

ثم سرعان ما ظهر كأبرز قادة حزب الشعب الجزائري الذي أسسه الزعيم مصالي الحاج يوم 11 مارس 1937 بعد حل نجمة شمال إفريقيا. من طرف السلطات الفرنسية.

وشارك مفدى في عدة تجمعات وتظاهرات نظمها حزب الشعب الجزائري (P.P.A) بصفته رئيس اللجنة التنفيذية "وكان يتميز أثناءها بهندام أنيق يرمز للعلم الوطني. حيث كان يلبس جلابة خضراء مع قميص أبيض وربطة عنق عليها نجمة وهلال، مساهمة منه في النضال ضد الاستعمار الفرنسي والنزعة الاندماجية". كما يشير المؤرخ الفرنسي: كلود كولو Claud Collot في مقاله بمجلة "الغرب الإسلامي" سبتمبر 78(العدد 25)

وفي 27 أوت 1937 أصدر جريدة الحزب باللغة العربية باسم "الشعب" فكان رئيس تحريرها وكتب معظم مواد عددها الأول، قبيل اعتقاله في نفس اليوم صحبة الزعيم مصالي الحاج. وتوقفت هذه الجريدة بعد صدور عددها الثاني في 20 سبتمبر 1937 وهو نفس اليوم الذي صدر قرار منع الجريدة. ومن داخل السجن الاستعماري، نظم مفدى نشيد الشهداء "اعصفي يا رياح." بتاريخ 29 نوفمبر 1937 وساهم في إصدار جريدة "البرلمان الجزائري" التي ظهر عددها الأول في 18 أوت 1939 وصدر منها سبعة أعداد، قبل توقيفها في 27 أوت 1939 من السلطات الاستعمارية.

وعقب خروجه من السجن في أواخر أوت 1939 اتجه فترة للاندماج في الوسط الفني، فتعرف بعميد المسرح الجزائري: محي الدين بشطارزي والممثل القدير محمد التوري، وسخر أدبه للنضال عن طريق الأغنية الوطنية، فكتب كلمات العديد من أغاني تلك الفترة لمطربين معروفين في كل من الجزائر وتونس، مثل: فريد باي قدور السراري، حسيبة رشدي، فضيلة ختمي، عبد الكريم الحبيب ولحن الكثير منها الملحن التونسي المشهور: محمد التريكي.

وقد غنى المطرب الجزائري المعروف: عبد الرحمن عزيز العديد من قصائده، ومن أشهرها: يا رسول الجمال، لماذا الجفا والدلال يا ساقي الإبل، آه يا فاتني، يا طير الهنا، عش يا هزاز..

ومع ذلك، ظلت السلطات الاستعمارية تلاحقه وتضايقه وتزج به في أعماق السجون بدعوى تحريضية على التمرد والثورة. حيث سجنته أربع مرات خلال سنوات (40. 45. 49. 1951).

ورغم المضايقات والاعتقالات، واصل مفدى نشاطه السياسي، وانتمى إلى "حركة انتصار الحريات الديمقراطية" التي تأسست سنة 1947 ثم ما لبث أن ابتعد عن هذا الحزب، محتفظا بحياده، بعد الانشقاق الذي عرفه في بداية الخمسينات مركزا اهتمامه الكلي على النضال الفعلي من أجل استقلال المغرب العربي ببلدانه الثلاثة: المغرب. الجزائر. تونس. ترسيخا لإيمانه القوي "بعقيدة التوحيد".

وما إن جاء الوعد الحق، واندلعت شرارة لهيب الثورة التحريرية حتى باركها وارتمى في أحضانها، بكل إمكانياته الروحية والمادية. وانخرط في أولى خلايا جبهة التحرير الوطني بالجزائر العاصمة ثم سرعان ما ألقت السلطات الاستعمارية القبض عليه في 12 أفريل 1956 ليمكث في السجن مدة ثلاث سنوات إلى غاية أول فيفري 1959.

وأثناء هذه المرحلة القاسية، ومن أعماق سجون بربروس والحراش والبرواقية، ابدع شاعرنا مفدى أروع القصائد والأناشيد التي تمجد ملحمة الثورة المظفرة وبطولاتها الخالدة. وبعد خروجه من السجن، تمكن من الفرار إلى المغرب الأقصى ومنة إلى تونس، ليعالج على يد الطبيب المناضل: فرانز فانون، مما لحقه من آثار التعذيب الاستعماري.

وخلال استقراره بتونس، شارك بقلمه في تحرير جريدة "المجاهد". اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، وأصبح سفير القضية الجزائرية بشعره وكتاباته في الصحافة التونسية والمغربية والمشرقية أيضا، وبنشاطاته المستمرة في مختلف الملتقيات والمهرجانات الأدبية. وكرم في مهرجان الشعر العربي بدمشق بالجائزة الأولى في 23 سبتمبر 1961 بعد إلقاء قصيدته: "رسالة الشعر في الدنيا مقدسة".

واغتنم فرصة تواجده بالمشرق العربي ليزور عدة بلدان عربية، ويقوم بنشاطات أدبية وإعلامية هناك ، وتمكن من طبع ديوانه الأول: "اللهب المقدس" ببيروت بتاريخ 25 نوفمبر 1961 وكرم من طرف الأوساط الأدبية والثقافية.

كما بادرت رابطة القلم الجديد بعد ذلك بإقامة حفل تكريم الشاعر وديوانه بتاريخ 17 فيفري 1962حيث ألقى قصيدته: "أمانا أيها الشعراء" وسط جمع غفير من رجال الأدب والثقافة والسياسة.

وما أن انبلج فجر الحرية في 5 جويلية 1962 حتى عاد إلى وطنه ليستقر بالجزائر العاصمة حيث فتح مكتبا للخدمات الإدارية بساحة الأمير عبد القادر، وألف "دليل المغرب العربي الاقتصادي" مؤكدا في مقدمته دعوته الملحة إلى حتمية اتحاد بلدان المغرب العربي. ثم ما لبث أن رحل إلى تونس ليستقر بها من 1963 إلى 1969 ليجد هناك كل الحفاوة والتقدير. وفي سنة 1969 غادر تونس ليستقر بالدار البيضاء

بالمغرب، حيث استفاد من رخصة فتح مدرسة ثانوية للتعليم وشاحنة لنقل البضائع، وظل يجمع ما بين أعماله التجارية وإبداعاته الأدبية.

وشارك بشعره ومناقشاته في جل ملتقيات الفكر الإسلامي بدعوة من صديقه الأستاذ: مولود قاسم نايت بلقاسم. وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية آنذاك. وتوج هذا النشاط الفعال بإلقاء رائعته الشهيرة "إلياذة الجزائر" بتاريخ 24 جويلية 1972 بمناسبة انعقاد الملتقى السادس للفكر الإسلامي، بالجزائر العاصمة.

كما أنجز شاعرنا مفدى قصيدة مطولة عن حضارة وأمجاد مدينة تلمسان، بتاريخ 10 جويلية 1975 غير أنه حرم من إلقائها أمام المشاركين في الملتقى التاسع للفكر الإسلامي بتلمسان، حيث شعر بالملاحقة والمضايقة ، فاضطر للفرار خفية إلى المغرب الأقصى.

وكانت آخر محطة في حياته بتونس، حيث أدركته المنية يوم 3 رمضان 1397 هـ الموافق لـ 17 أوت 1977 وشيع جثمانه هناك قبل أن ينقل من طرف أهله ليدفن ببني يزقن، مسقط رأسه. وهكذا ودع شاعرنا المرحوم الحياة بعد رحلة نصف قرن من العطاء المستمر في مجالات الأدب والصحافة والنضال. وقد ترك وراءه أربعة دواوين مطبوعة هي:

1. اللهب المقدس. ط1 ضمن منشورات المكتب التجاري ببيروت1961.
2. تحت ظلال الزيتون. ط1 عن دار النشر بتونس 1965.
3. من وحي الأطلس. ط1 عن مطبعة الأنباء بالمغرب 1976.
4. إلياذة الجزائر. ظهرت في عدة طبعات ما بين 1972 و2002.

أما عن انتاجاته الأدبية المخطوطة والمغمورة فهي غزيرة ومتنوعة، وقد أشار إليها شاعرنا مفدى في الحوارات التي أجريتها معه سنتي 1972 و1975، حيث يجيب عن

سؤال حول مشاريعه المقبلة قائلا: "إني بصدد إعداد طبع دواوين شعرية جديدة هي: انطلاقة - في شعر الكفاح السياسي - الخافق المعذب - في الشعر الذاتي.

كما أني - مضيفا - بصدد تنسيق كتاب في أربع مجلدات عن تاريخ الأدب العربي بالجزائر، من الفتح الإسلامي إلى يومنا هذا.. ومجموعة عن الشعر الشعبي الجزائري في مختلف ألوانه وأغراضه، بالإضافة إلى دراسة تحليلية عن تاريخ الصحافة العربية بالجزائر".

وجميع هذه الانتاجات لا تزال مخطوطة مغمورة، وهناك أعمال أخرى مطموسة أو ضائعة كان قد أشار إليها الشاعر مفدي في حواره الهام المنشور "بالشعب الثقافي" سنة 1972. ومن أبرزها:

- سبع سنوات في سجون فرنسا.
- حواء المغرب العربي في معركة التحرير.
- الثورة الكبرى - أوبيريت.
- اليتيم في العيد - رواية.
- عوائق انبعاث القصة العربية.
- الصراع بين الشعر الأصيل والشعر الدخيل.
- مائة يوم ويوم بالمشرق العربي. تحتوي على 29 محاضرة ألقيت بالكويت وقطر عن الثورة الجزائرية. و9 امسيات شعرية بمصر ولبنان".

- وتظل مجموع تلك الأعمال الأدبية والصحافية والفكرية مخطوطة مغمورة تنتظر الأيادي البيضاء الكريمة لتنتشلها من الإهمال والضياع، وبالتالي لتثري مكتبتنا الجزائرية والعربية بزاد وفير. يفيد الدارسين والمثقفين بوجه عام، وتلك مسؤولية جميع المقربين والمعنيين والمهتمين قبل فوات الأوان[1].

---

1. نشرت هذه المقالة في الطبعة الثانية من كتابي عن الشاعر مفدي زكريا والتي صدرت سنة 2003 ضمن منشورات مؤسسة مفدي زكريا.

محمد العيد شاعر الشخصية الوطنية

لعل أفضل وأروع تخليد لعظماء الأمة، من رجال الأدب والفكر والفن، يتجسد في جمع آثارهم ونشرها بين الناس، ومتابعتها بالبحث والدراسة، لتعميم الفائدة.

وإذا كنا نسجل التفاتة طيبة من مدينة قسنطينة حيث أطلقت اسم هذا الشاعر الكبير: محمد العيد على أكبر مجمع ثقافي، بالإضافة إلى المهرجانات السنوية التي تقام بمدينة بسكرة، منذ عدة أعوام، إلى جانب إنشاء مؤسسة محمد العيد. ومع ذلك نؤكد بأن بعض نتاج هذا الشاعر مايزال مجهولا مغمورا إلى اليوم.

وقبل هذا كان الأديب والمؤرخ الدكتور أبو القاسم سعد الله قد أوضح في مقدمة الطبعة الثالثة من كتابه "شاعر الجزائر: محمد العيد آل خليفة" أن "لدى الشاعر مجموعة من شعره السياسي قبل وبعد الاستقلال، والإخواني والشخصي، خصوصا العاطفي، ما زالت لم تر النور، أما رسائله فما زلنا لا نكاد نعرف عنها شيئا، وأن إنسانا مثل محمد العيد لا يمكنه أن يكتب إلاّ ما نشر حتى الآن، ولكن أين بقية إنتاجه المغمور؟".

ومن هنا يختم الدكتور سعد الله مقدمته بقوله "إننا نهيب بأسرته أولا وأصدقائه ثانيا، أن يكونوا غيورين على تركته الأدبية وأن ينشروها على الناس خشية الضياع، إن محمد العيد لم يعد ملكا لأسرة أو جماعة، ولكنه مثل عظماء الرجال، قد أصبح ملكا لشعبه ووطنه ".

وقبل هذا وذاك يجدر بنا أن نقدم نبذة مختصرة عن حياة وأعمال شاعرنا: محمد العيد بالاعتماد على ما ورد في ديوانه الصادر سنة 1967 عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، وكذلك بالرجوع إلى كتاب الشعر الجزائري الحديث للأديب الباحث

الدكتور: محمد ناصر والصادر سنة 1985 عن دار الغرب الإسلامي في بيروت.

ولد محمد العيد في 28 أوت 1904 بمدينة عين البيضاء بمنطقة وادي سوف، وفيها تلقى تعليمه الابتدائي، وانتقل إلى مدينة بسكرة في 1918 إلى غاية 1921 حيث توجه إلى تونس ليدرس بجامع الزيتونة سنتين، عاد بعدهما إلى بسكرة ليشارك في النهضة العلمية والصحافية، وخاصة في جرائد: الإصلاح، صدى الصحراء، الشهاب، المنتقد..

وفي سنة 1927 انتقل إلى الجزائر العاصمة معلما بمدرسة الشبيبة، وتخرج على يده العديد من شعراء الجزائر، وغادر العاصمة في سنة 1940 معلما متنقلا بين باتنة وعين مليلة. وبعد اندلاع الثورة التحريرية ألقي عليه القبض، وفرضت عليه الإقامة الجبرية ببسكرة حتى بزوغ فجر الاستقلال. وقد عاش في بسكرة في عزلة صوفية انقطع فيها إلى نفسه وأصبح قليل الإنتاج.

وفي يوم 2 أوت 1979 توفي المرحوم الشاعر محمد العيد بمدينة باتنة مخلفا وراءه ديوانه الضخم الذي صدر سنة 1967 بالإضافة إلى مسرحية شعرية بعنوان: بلال بن رباح صدرت سنة 1938 كما يذكر ذلك الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه الهام عن شاعر الجزائر محمد العيد آل الخليفة.

ولعل المتأمل أو الدارس لديوان الشاعر محمد العيد سيجده على العموم مرآة صادقة تعكس أوضاع المجتمع، وسجلا أمينا لانفعالات وآراء الشعب في مجريات الأحداث الجسام التي عاشها واصطلى بنارها. كما أشرنا إلى ذلك في مقال مطول تحت عنوان "الثورة في الشعر الجزائري" نشر بمجلة "الجيش" بتاريخ نوفمبر 1971، وأبرزنا من خلاله دعوته المبكرة للنضال والثورة من أجل النصر أو الاستشهاد كما يشير الشاعر محمد العيد في قصيدة مؤرخة بشهر أوت 1937، حيث يقول:

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهــض *** بلا مهل، فقد طال القعود
وقل يا ابن البلاد لكل لــص *** تجلى الصبح وانتبه الرقود
فخض يا ابن الجزائر في المنايا *** تظللك البنود أو اللحود

وبالفعل، فقد قام الشعب ليمسح عن جبينه العار، فإما أن يعيش عزيزا مكرما، أو يموت مثل الشهداء الشرفاء.

وقد كان الشاعر محمد العيد سباقا بشعره إلى احتواء معاني الحرية والاستقلال والعلم الرفراف صراحة ودونما أي تلميح، كما أشرنا في كتابنا عن الأدب والثورة الصادر سنة 2001 ضمن منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين - ص53. حيث يدعو في قصيدته التي نشرها سنة1950 بجريدة "المنار" الجزائرية، إلى توحيد العزائم والآمال، من أجل انتفاضة كبرى لتحطيم القيود والأغلال، بعد أن طال ليل الاستقلال، بما فيه من ظلم وبطش، وقهر ونهب، حيث يقول:

يا قوم هبوا لاتناموا حياتكم *** فالعمر ساعات تمر عجالا
الأسر طال بكن فطال عناؤكم *** فكوا القيود وحطموا الأغلالا
والشعب ضج من المظالم فانشدوا *** حرية تحميه واستقلالا
لا أمن إلا في ظلال مرفرف *** حر لنا عال ينير هلالا
وإذا أراد الشعب نال مراده *** ولو أنه كالنجم عز منالا

ويخاطب شاعرنا عزائم الرجال لأن تضع حدا لما يعانيه الشعب من ظلم وقهر على يد المستعمر المتجبر، داعيا للكفاح لانتزاع الحرية والإستقلال، تحت ظلال العلم الرفراف، فإرادة الشعب لا تقف عند حد، فهي قادرة على صنع المستحيل من أجل نيل المراد ولو كان عاليا وغاليا كالنجم الثاقب اللامع كما ورد في صفحة 54 من نفس الكتاب.

والحديث يطول ويتشعب حول التحام الشاعر بقضايا الجماهير، ويكفيه هنا شهادة رفيقه الشاعر الجزائري مالك حداد في مقدمة ديوانه "الشقاء في خطر" (ص21)، حيث يقول: "أعرف محمد العيد الذي ذاق مرارة السجون وعرف ظلام الأقبية، لأنه ارتقع إلى مستوى اللغة الغاضبة".

وتلك شهادة لها أهميتها من مبدع بلغة ظل يعتبرها منفاه الحقيقي.

وقد يكون من الصعب الإلمام بعدة جوانب من شخصية وشاعرية محمد العيد في مثل هذه الوقفة المتواضعة، فثمة أبحاث جامعية إلى جانب دراسات عديدة تقدم وتنشر هنا وهناك وإن كان للدكتور أبو القاسم سعد الله فضل السبق والريادة بكتابه القيم عن هذا الشاعر الكبير والذي ظهر في طبعته الأولى بالقاهرة في أفريل 1960 وطبعته الثالثة سنة 1984 عن الدار العربية للكتاب، بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للكتاب.

وتفرض علينا المناسبة أن نعود لنلح على ضرورة جمع ونشر ودراسة جميع آثاره وأعماله، المنشورة منها والمخطوطة، المعروفة منها والمغمورة.

ومن هنا، كما ورد في الكلمة الافتتاحية التأبينية التي كتبناها ونشرناها في الصفحة الأولى بجريدة "الجمهورية" بتاريخ 3 أوت 1979 ومما جاء فيها مايلي:

"إن محمد العيد الذي أعطى للشعر الجزائري الكثير والجيد من إبداعه، سيبقى ولا ريب رائد حركة الشعر الجزائري الحديث، رغم أنه ظل لسنوات "بعيدا" عن الساحة الأدبية منذ بدايات الاستقلال إلا أن هذا لا يعني البتة أنه كان كذلك بعيدا عن الشعر والإبداع.

فأكيد أن شاعرا مثل محمد العيد كان ينتج ويبدع في الخفاء والصمت بعيدا عن الأضواء، ولعل قصيدته الرائعة "فرحة عيد" التي حيى فيها الذكرى العاشرة للاستقلال أكبر برهان على الارتباط المتواصل بالشعر والثورة والجزائر.

ومن هنا فقد حان الوقت لجمع آثار وأعمال شاعرنا المرحوم خاصة منها تلك الإنتاجات المخطوطة التي لم تعرف النور لحد الآن، وتحقيقا لذلك تتحمل النصيب الأوفر من المسؤولية شركتنا للنشر حيث يفرض عليها الواجب الوطني اغتنام هذه الفرصة لتقدم "الأعمال الكاملة" لهذا الشاعر الكبير.

كما يفرض الواجب الوطني تخليد الشاعر المبدع التي تغنى بالجزائر عربية مسلمة أيام كان الاستعمار يحرم كل يوم من يلفظ اسم الجزائر، ويكون تلك التخليد عن طريق تخصيص جائزة سنوية باسمه، إلى جانب إقامة مهرجان سنوي للشعر يحمل اسم محمد العيد رائد الشعر الجزائري الحديث.

ولعل في هذا وذاك بعض تحية لشاعرنا الفقيد، واعتراف من جيل مابعد الاستقلال لشاعر الحركة الوطنية والثورة الخالدة[1]

1. نشرت هذه المقالة ضمن مواد كتابي: حرقة الكتابة الصادر سنة 2005 عن منشورات وزارة الثقافة

صالح خرفي غنى للوطن والحرية

... وهل أصابت ذاكرتنا الثقافية عاهة النسيان، فلم نعد نتذكر تاريخ رحيل اعلام ورموز النبوغ الجزائري في عالم الأدب والفكر والصحافة؟.. هكذا تساءلت في قرارة نفسي قبيل يومين من حلول ذكرى وفاة الباحث الجامعي والشاعر الوطني: صالح خرفي الذي رحل عنا يوم الأربعاء 25 نوفمبر 1998 الموافق لـ6 شعبان 1419هـ

صاحبنا وأستاذنا الدكتور صالح خرفي يكاد يلفه الإهمال والنسيان، رغم أنه غنى لحرية وعزة الوطن المفدى في عز أيام ثورتنا المجيدة، وقد غنت له المطربة وردة الجزائرية من تلحين الموسيقار رياض السنباطي قصيدة نداء الضمير التي تختتم بأمل حرية الجزائر..

لك حبي يوم تعلو بسمة النصر ثرانا ●●● وينيب الليل والآلام فجر من دمانا
سوف ألقاك مع النصر وأفراح البشائر ●●● سوف نبني عشنا في ظل تحرير الجزائر

وهذه القصيدة الأغنية ترددت على مسامعنا مرارا وتكرارا، وسكنت أعماق أعماقنا شهورا وأعواما، ومع ذلك نسينا أو أغفلنا صاحبها الشاعر صالح خرفي، رغم غزارة رصيده الأدبي والفكري الذي يضم أكثر من عشرين كتابا في الشعر والأدب والبحث الجامعي، من أبرزها: أطلس المعجزات- الشعر الجزائري الحديث- شعر المقاومة الجزائرية - في ذكرى الأمير عبد القادر - في رحاب المغرب العربي - الأديب الشهيد أحمد رضا حوحو في الحجاز-

أذكر باعتزاز أستاذنا الدكتور صالح خرفي رغم قلة اللقاءات التي جمعتني به أثناء الملتقيات الأدبية، كما يتذكره جيدا طلبة الآداب والصحافة خلال أواخر الستينات وبداية السبعينات، عندما كان يحاضرهم عن فكرة أوجملة استوقفته هنا أو هناك، قبل انتقاله إلى المنظمة العربية للتربية

والثقافة والعلوم سنة 1976، ليتولى بعد ذلك مسؤولية المدير العام المساعد بالمنظمة من 1984 إلى 1990.

وقد تقلد الدكتور صالح خرفي عدة مسؤوليات في مجالات التربية والثقافة والصحافة والسياسة، سواء داخل أوخارج الوطن، كما مثل الجزائر في عدة ملتقيات ومؤتمرات أدبية وثقافية أثناء الثورة التحريرية وبعد الإستقلال، وقد ترجمت مختارات من شعره إلى اللغات: الفرنسية، الإنجليزية، الإسبانية، الروسية.

❖ من غرداية إلى تونس:

ولد صالح خرفي سنة 1932 بالقرارة، ولاية غرداية، وهي نفس المنطقة التي أنجبت قبل ذلك شاعر النضال والثورة: مفدي زكريا، وعميد الصحافيين الجزائريين: أبو اليقظان..

التحق سنة 1938 بإحدى مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة باتنة، ليستكمل دراسته بالقرارة "غرداية" من مدارس الحركة الإصلاحية.

وفي سنة 1953 تابع دراسته بجامع الزيتونة والمدرسة الخلدونية في تونس، لينتقل سنة 1957 لكلية الآداب بجامعة القاهرة، حيث حصل على ليسانس في اللغة العربية وآدابها سنة 1960.

وبنفس الجامعة، ينال بعد ذلك شهادة الماجستير بتقدير ممتاز سنة 1966 برسالة عن "شعر المقاومة الجزائرية"، ثم شهادة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى سنة 1970 بأطروحة عن: "الشعر الجزائري الحديث".

اشتغل أستاذا للأدب الجزائري الحديث بجامعة الجزائر، متدرجا من مساعد سنة 1964 حتى أستاذ محاضر سنة 1973 كما تولى منصب رئيس دائرة اللغة والأدب العربي بنفس الجامعة من 1971 إلى 1976 قبل انتقاله إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

❖ مؤلفاته الأدبية والفكرية :

- صرخة الجزائر الثائرة (شعر) قطر 1958.
- نوفمبر (شعر) قطر 1961.
- أطلس المعجزات (شعر) الجزائر 1967.
- أنت ليلاي (شعر) الجزائر 1974.
- شعراء من الجزائر (أبحاث) القاهرة 1969.
- صفحات من الجزائر (أبحاث) الجزائر 1974.
- الشعر الجزائري الحديث (أبحاث) الجزائر 1975.
- الجزائر والأصالة الثورية (أبحاث) الجزائر 1978.
- شعر المقاومة الجزائرية (أبحاث) الجزائر 1982.
- في ذكرى الأمير عبد القادر (أبحاث) الجزائر 1984.
- في رحاب المغرب العربي (أبحاث) بيروت 1985.
- المدخل إلى الأدب الجزائري (دراسات) الجزائر 1983.
- عمر بن قدور الجزائري (دراسات) الجزائر 1984.
- حمود رمضان (دراسات) الجزائر 1985.
- محمد السعيد الزاهري (دراسات) الجزائر 1986.
- محمد العيد آل خليفة (دراسات) الجزائر 1986.
- الأديب الشهيد أحمد رضا حوحو في الحجاز، بيروت 1981.
- من أعماق الصحراء (شعر)، صدر مؤخرا ببيروت.

❖ شهادات وأوسمة :

- شهادة تقدير من رئيس الجمهورية (الجزائر 1987).
- وسام المقاوم من وزارة المجاهدين (الجزائر 1984).
- الوسام الثقافي من رئيس الجمهورية التونسية (1972).

- ـ جائزة الشعر الأولى من وزارة الإعلام والثقافة (الجزائر 1972).
- ـ جائزة الشعر من المجلس الأعلى للفنون والآداب (القاهرة 1959).

❖ وظائف علمية و إدارية :

- مدير إدارة الثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم منذ 1976 وتولى من1984 إلى 1990 مسؤولية المدير العام المساعد بالمنظمة .
- تولى منصب رئيس تحرير مجلة "الثقافة" التي صدرت عن وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، من أول صدورها سنة 1971 إلى 1976.
- كما تولى منصب مسؤول العلاقات الثقافية بين الجزائر والبلدان العربية في أول وزارة للتربية بعد الاستقلال من 1962 إلى 1964.

❖ النشاط الفكري و الوطني :

- عضو المجلس الإداري لاتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، فرع تونس 1956.
- عضو مؤسسي لاتحاد الكتاب الجزائريين، سنة 1964.
- عضو لجنة إصلاح التعليم العالي في الجزائر، سنة 1971.
- عضو مراسل بمجمع اللغة العربية بدمشق سنة 1986.
- عضو مؤازر بمجمع اللغة العربية الأردني سنة 1989.
- حاضر في جامعات: القاهرة، الكويت، الدوحة، دمشق، الرباط، تونس، بغداد.
- نشر في المجلات والدوريات العربية، مشرقا ومغربا.
- ترجمت مختارات من شعره، إلى الفرنسية والإنجليزية، والإسبانية، والروسية.
- مثل الجزائر في الملتقيات والمؤتمرات الأدبية، أثناء الثورة، وبعد الاستقلال.
- نشر في الصحافة التونسية من 1953 إلى 1957 بكنية "أبو عبد الله صالح".

- في سنة 1961 وبتكليف من وزارة الداخلية في الحكومة المؤقتة، تولى مهمة "التعبئة السياسية" في أوساط اللاجئين الجزائريين في منطقة الكاف، حتى إعلان الاستقلال.

تلك باختصار أبرز العلامات المتميزة في سيرة ومسيرة أستاذنا المرحوم الدكتور صالح خرفي الذي رحل عنا يوم 25 نوفمبر 1998 لتبقى كتبه وكتاباته وأعماله شامخة وشاهدة على النبوغ الأدبي الجزائري.

ولعل أفضل وأروع تخليد لأعلام ورموز حركتنا الأدبية والثقافية، يتجسد في جمع أعمالهم المطبوعة والمخطوطة ونشرها بين المهتمين، ومتابعتها بالبحث والدراسة لتعميم الفائدة[1]

1. نشرت هذه المقالة في ركن: خير أنيس بجريدة الجمهورية بتاريخ 6 جويلية 1992 ثم نقحت ونشرت مختصرة يوم 23 نوفمبر 2006 بجريدتي: الأحرار. والجزائر نيوز.

السائحي . . . شاعر الإصلاح والنضال

.. وهل قيل كل ما ينبغي أن يقال عن شاعرنا المرحوم: محمد الأخضر السائحي بعد حوالي سنة على وفاته في 11 جويلية 2005؟.. ماذا نعرف بالفعل عن حياته ونضاله وأعماله الأدبية المنشورة والمخطوطة ؟ ما صلته وفعاليته ضمن حركة الإصلاح والثورة؟.. وهل صحيح ما قيل عن قصيدته المزعومة في تمجيد أحد رموز الحقبة الاستعمارية؟.. دارت بذهني هذه التساؤلات وأنا أستعد للمساهمة الفعلية في الملتقى الدولي المكرس لتخليد الشاعر محمد الأخضر السائحي.

تركت هذه التساؤلات وغيرها جانبا إلى حين، ورحت أفتش مكتبتي الخاصة، وأعيد تصفح و قراءة مجموعاته الشعرية المتوفرة: همسات وصرخات - بقايا وأوشال - جمر ورماد - إسلاميات، بالإضافة إلى كتابه المتميز: ألوان بلا تلوين.

ومن الوهلة الأولى، لاحظت بأن هذه الأعمال لا تمثل سوى نسبة ضئيلة من مجموع إنتاجاته المبعثرة والمخطوطة عبر رحلة نصف قرن من الإبداع الأدبي. ذلك أن شعره ضاع في أيام الثورة، وفقد معه مجموعة من الصحف والمجلات القديمة التي نشر فيها طائفة منه، كما يسجل الشاعر السائحي بنفسه في كلمة تقديمه لمجموعته: همسات وصرخات، حيث يقول بالحرف الواحد: ضاع نصف تاريخي في تلك القصائد التي ظننت أنها لن تضيع..

ويقف شاعرنا السائحي الكبير في طليعة الشعراء الجزائريين المعاصرين، كما يبرز ذلك رفيق دربه، شاعر الثورة مفدي زكريا في حوار أجريته معه في شهر جويلية 1975 ونشرته في كتابي المعروف: شاعر مجد ثورة. حيث يقول: إذا استثنينا شعراء يؤلفون واجهة صماء ضد محاولات التمييع الفكري وإجهاض الكلمة الهادفة وهم:

محمد العيد آل خليفة، والأخضر السائحي الكبير، ومفدي زكريا، وصالح خرفي، وابو القاسم خمار، والطاهر بوشوشي، والشاعر الشاب مصطفى الغماري، إذا استثنينا هذه الواجهة العريقة النسب الناصعة الأصالة، وجدنا أنفسنا أمام "إسهال" أدبي يزكم الأنف ويقرف الأسماع، وينال من سمعة الجزائر وقداسة الكلمة الرائدة.

وشاعرنا السائحي لم ينل نصيبه الوافي من الدراسة والاهتمام، ولعل أحسن وأروع تكريم وتخليد لهذا الشاعر الفذ يتمثل في العمل الجدي لجمع أعماله المنشورة والمخطوطة وإعادة طبعها وتوزيعها بين الناس على أوسع نطاق. ونعود إلى شاعرنا الكبير في تعريف مختصر، يورده أحد أفراد أسرته الشاعر المعروف: محمد الأخضر السائحي، أطال الله عمره، في كتابه: روحي لكم.

ولد في أكتوبر 1918 بقرية العلية، دائرة تقرت، ولاية ورقلة، وحفظ القرآن على عدة مشائخ بالمنطقة، وأخذ يعلمه للصبيان في قريته مدة سنتين ونصف. التحق بمدرسة الحياة في مدينة القرارة سنة 1933 حيث تتلمذ على يد الشيخ بيوض مدة سنتين، ثم توجه إلى تونس سنة 1935 ليلتحق بجامع الزيتونة إلى سنة 1939 إذ رجع إلى تقرت مطاردا من السلطة الاستعمارية، فزج به في السجن.

حاول أثناء الحرب العالمية الثانية الخروج من المنطقة، ولكن السلطة الاستعمارية أرجعته من مدينة ورقلة مع الأستاذ: علي مرحوم، وأجبرته على البقاء هنالك، فسعى مع جماعة من شباب مدينة تقرت لتأسيس جمعية الأمل، تحت ستار التمثيل، وتأسيس فوج كشافة، ثم إنشاء مدرسة الفلاح، وكذلك مدرسة النجاح.

شق طريقه إلى العاصمة سنة 1952 فعمل منتجا بالإذاعة وأستاذا في ثانوية القبة حسيبة بن بوعلي حاليا، ومدرسا بمدرسة السعادة بحي بلكور ثم انقطع للإنتاج الإذاعي إلى أن جاء الاستقلال فجمع من جديد بين التعليم والإذاعة حتى تقاعد في نوفمبر 1980.

نشر شعره في كثير من الجرائد والمجلات التونسية والجزائرية، واشتهر كذلك ببرنامجه الإذاعي اليومي: ألوان. وهو من الأعضاء المؤسسين لاتحاد الكتاب الجزائريين سنة 1974 وشغل منصب الأمين العام المساعد للاتحاد في الهيئة الثالثة: مارس 1981.

وشاعرنا الفذ: محمد الأخضر السائحي، مثل أدباء جيله، أدرك مبكرا بأن له رسالة مقدسة نحو وطنه المفدى، ولذلك ارتبط بالنضال الوطني في ريعان شبابه عندما كان يتابع دراسته بجامع الزيتونة بتونس إلى غاية سنة 1939 وعند رجوعه إلى مدينة تقرت بادرت السلطات الاستعمارية بالقبض عليه، وإدخاله السجن، لأن ملفه الوطني كان مليئا بما يدل على مناهضته للمستعمر ومناصرته للحركة الوطنية.

ويشير الكاتب التونسي: الدكتور محمد صالح الجابري في كتابه: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، إلى أن الأخضر السائحي يعتبر من الطلبة الجزائريين الرواد الذين ساهموا خلال مرحلة دراستهم بالزيتونة في الحركة الوطنية، وفي الكتابة بأهم الصحف والمجلات المناهضة للاستعمار، فتوطدت بذلك علاقته منذ ذلك الحين بالحركة التونسية، وبرجال الأدب، ومايزال يحظى بتقدير كل من عرف مكانته وفضله على الشعب التونسي، وهو لهذا يعتبر واسطة العقد بين المرحلة الفردية لحركة المهاجرين الجزائريين المتعاطفين مع الحركة الوطنية التونسية، وبين المرحلة الجماعية التي تكاثفت فيها جهود هؤلاء منذ الخمسينات للمساهمة في الإعداد ليوم الثورة المنتظر.

ولذلك لاعجب أن نجد شاعرنا السائحي يقف إلى جانب أوائل الشعراء الجزائريين المهللين لاندلاع الثورة التحريرية في الفاتح نوفمبر 1954 م، حيث يسجل الحدث التاريخي في قصيدته: نشيد الثورة التي أرخها سنة 1954 ضمن مجموعته: همسات وصرخات، حيث يخاطب فرنسا الاستعمارية على لسان الثورة المجيدة:

وثبتنا فلا تطمعي في النجـاة *** وثرنا فلا تحلمي بالبقا

حلفنا سنمحق كل الطغـاة *** ولا بد للشر أن يمحقا

وإذا رجعنا وراجعنا إنتاجاته الشعرية قبل الثورة التحريرية، نجدها منشورة خلال الفترة الواقعة ما بين 1936 و1949 بعدد من الصحف التونسية مثل: الواجهة - الزمان - العمل، ومجلة الأسبوع قبل أن يواصل نشر قصائده بمجلة: هنا الجزائر، من 1952 إلى 1960 بعدما تفرغ للتعليم بالجزائر العاصمة، وللإنتاج الإذاعي.

وقصائد هذه المرحلة على العموم تجمع ما بين الذاتية والبعد الديني، والروح الوطنية، وتجسد كذلك ارتباط شاعرنا بمنطقته الصحراوية في علاقة حميمة دفعته إلى تفجير موهبته الشعرية. كما ذكر شاعرنا السائحي في حوار خاص بصحيفة المجاهد الأسبوعية بتاريخ 12 جويلية 1970 حيث يقول: "أما أسباب ميلي إلى نظم الشعر فإنها عديدة من بينها طبيعة الصحراء، لما لها من قدرة على الإيحاء، وهي ذاتها لوحة وقصيدة شعرية ممدودة النغم تشدو بها ألسنة غير مرئية".

ويعبر الشاعر عن إعجابه بشاعرية الصحراء، كلوحة بديعة تسحر الناظرين في قصيدة بعنوان "الصحراء" تحمل تاريخ سنة 1947 وهي منشورة بديوانه همسات وصرخات. وهذا مطلعها :

أكثب أنت أم سنا و ضياء *** ورمـال أم فتـنـة و رواء

وسكون مخيم ووجـوم *** أم غناء مرجع وحـداء

وبساط ممهد من حريـر *** أم هضاب على الثرى شماء

ويلاحظ الدكتور محمد ناصر في كتابه: الشعر الجزائري الحديث: اتجاهاته وخصائصه الفنية، بأن السائحي يبدو معجبا شديد الإعجاب بجمال الصحراء، المتمثل في هذا الامتداد الرملي الحريري الذي لا ينتهي عنده النظر، مما جعل بصره مفتونا مقيدا بهذه الفتنة، وفي هذا السكون السحري الذي

تحول في سمعه إلى غناء(ص461).

ومن خلال قراءة عناوين القصائد المنشورة بدواوينه المطبوعة، نلاحظ بأن كثيرا من القصائد الثورية للشاعر السائحي الكبير قد ضاعت منه بالفعل، فهناك قصيدة بعنوان: نشيد الطلبة الجزائريين، أشار إليها الدكتور محمد صالح الجابري، نشرت بجريدة العمل التونسية بتاريخ 06 جانفي 1938 ولم تظهر ضمن أعماله المطبوعة.

ومع ذلك ، فقد تدارك شاعرنا الأمر واستهل ديوانه الأول: همسات وصرخات، بقصيدة مطولة بعنوان: قصة ثائر، وكتبها كما يذكر خلال الفترة الواقعة ما بين 1959 و1962 حيث تبرز مدى تشبثه بالأرض، واستعداده للدفاع عنها والاستشهاد من أجل الجزائر الحبيبة:

أنا حر و هذه الأرض أرضي *** سوف أفدي حياتها بحياتي

سوف أبني أمجادها و أروي *** بدمائي مروجها النضرات.

وهذه القصيدة المطولة والمنشورة عبر 14 صفحة من الكتاب، تبرز بوضوح السمة الثورية في شعر السائحي الكبير الذي وقف مع أدباء جيله يتغنى بالوطن المفدى، ويمجد شهداء الثورة الذين ذهبوا إلى الميدان صامتين، لا يعرف عنهم أحد إلا أنهم ماتوا من أجل الوطن، لكي يستطيع شاعر جزائري أن يرفع رأسه، ويغني في اعتزاز وشموخ أناشيده الوطنية، كما يقول الشاعر نفسه في كلمة الإهداء.

والحديث قد يطول عن شاعرنا : محمد الأخضر السائحي الذي لم ينل نصيبه الوافي من الدراسة والاهتمام. ولعل أحسن وأروع تكريم وتخليد لهذا الشاعر الكبير يتمثل في العمل الجدي لجمع أعماله المنشورة والمخطوطة وإعادة طبعها ونشرها بين الناس على أوسع نطاق[1].

1. ألقيت كمداخلة ضمن فعاليات أول ملتقى وطني عن الشاعر السائحي الكبير. أقيم بالمكتبة الوطنية(أيام 9 و10 و11 ماي2006) ونشرت مختصرة بكل من جريدتي: الأحرار، والجمهورية.

وطار.. رائد القصة الثورية

إنها لظاهرة مؤسفة حقا، وهي ظاهرة الفتور و"الاستقبال البارد" من طرف مثقفينا عموما، لكل إنتاج جزائري جديد، في حين لا نزال نسمع بين الحين والآخر، رنة تعلو من هنا وهناك، تشكو من قلة هذا الإنتاج في مكتبتنا الجزائرية.

فمنذ أزيد من شهر أصدرت شركتنا الوطنية للنشر والتوزيع مجموعة لا بأس بها من الكتب الجديدة في شتى مناحي الأدب والثقافة، ومن يومها، أكاد أقول، أسدل عليها ستار النسيان. إذ لم يترصد لها بالدراسة والتقييم إلا القلائل، كان للإذاعة الوطنية - يومئذ - قصب السبق. من خلال برنامجيها: كاتب وكتاب. ودنيا الأدب. إذ قدمت معظم تلك الكتب الجديدة.. وتلتها جريدة الشعب ببعض الدراسات عنها للإخوة أبو القاسم خمار ومحمد سعيدي وم.ع الهواري ومبروك نويس في حديثه مع الطاهر وطار - ثم غير هذا، لم يحرك أحد ساكنا!.. وكان الأمر ينتهي عند هذا الحد بينما كان من المفروض أن يثار نقاش حاد بين مثقفينا حول هذا النتاج الجديد تكون أعمدة الصحافة، وأمواج الأثير مسرحا له، بدلا من هذا الصمت الرهيب الذي يخنق كل محاولة تأليفية، ملقيا بها في غياهب النسيان والإهمال.

لكن لنترك هذا جانبا، لأن الحديث عنه يطول.

المهم أن من بين تلك المجموعة الجديدة كتاب يستحق منا أكثر من وقفة، إذ لعله فتح جديد في دنيا القصة القصيرة في الجزائر. واعني بهذا الكتاب: الطعنات للطاهر وطار الكاتب القصصي المعروف لدى قراء العربية، من خلال ما ينشر من حين لآخر في صحافتنا الوطنية، وكذا مجموعته الأولى المشهورة التي طبعت في تونس تحت عنوان: دخان من قلبي ولقيت يومئذ رواجا منقطع النظير، بالنسبة لباكورة أي كاتب.

وكما صدرت له أخيرا عن شركة "لاسنيد" مسرحية ذهنية في أربعة فصول، تحمل عنوان الهارب وهي تجربته المسرحية الأولى..

❖ دخان من قلبي .. وصمت النقاد!

ومن المعروف أن أسلوب الطاهر وطار يمتاز بالسلاسة والعنوية، ودقة الوصف وانتقاء الكلمات الموحية الأخاذة، زيادة عن تناول الكلمة تناولا فنيا مبدعا، مما يجعل القارئ يشعر بجاذبية قوية تجذبه لأن يلتهم كل مايقع بين يديه من إنتاجه القصصي... إذ الكلمة عنده لها سحر شاعري خاص وإن من البيان لسحرا.

ويجدر بنا القول بأن النقاد لم يكن لهم دورا إيجابي في تناول مجموعة دخان من قلبي بالدرس والتحليل، حتى يكون لهم فضل على القارئ.

فوطار اتصل بقرائه بدون ذلك الجسر الذي يربط عادة القارئ بالكاتب، وهذا الإتصال الذي وقع بين القراء ووطار كان نتيجة لتناول هذا الأخير مواضيع حية تمس القارئ من قريب أو بعيد، وكلها تصف لنا حياة الجماهير الكادحة أثناء الثورة التحريرية. أو تعرض علينا مشاكل اجتماعية، يعاني من شدة وقعها المجتمع الجزائري.

ونتيجة لالتزامها بهذا الخط الذي رسمه الطاهر وطار مسبقا، كان التوفيق حليفه، لدرجة أن مجموعته القصصية الأولى "دخان من قلبي" التي نشرها وسنها لايتجاوز الخامسة والعشرين، قد نفذت طبعتها الأولى، كما أن عددا كبيرا من قصص تلك المجموعة ترجم إلى عدد من اللغات الأجنبية المختلفة.

لقد قيل الكثير بشأن تلك المجموعة فقال البعض: أنها ذاتية صرفة ووجدانية. غير أننا نقول بأنها ملتزمة بالخط الثوري، وملتحمة بالجماهير ومعبرة عن الكادحين من عمال وفلاحين وإن أخذت - في بعض الأحيان - صبغتها الذاتية، إذ لكل قصة من تلك قصص أبعادها الإنسانية، وجذورها التاريخية عندما يتبنى الكاتب قضية الكادحين.

نعود إلى مجموعته القصصية الثانية التي صدرت في المدة الأخيرة عن شركتنا الوطنية للنشر والتوزيع، وتضم مجموعته الجديدة إحدى عشر قصة في حوالي مائتي صفحة من الحجم المتوسط. وهذه القصص. حسب التواريخ المذيلة بها. كتبت في الفترة الواقعة ما بين 1960 و1969 بعضها في تونس ومعظمها في الجزائر. وهي قصص تجعل من كاتب القصة بالإضافة إلى كل التعريفات التي أعطيت له بالوطن العربي. عبارة عن إنسان بإمكانه أن يتنبأ بأحداث ستقع مستقبلا!. أنت تحس من خلال قراءتك هذه المجموعة أن وطار يمضي بك بعيدا إلى ما سيقع. وخاصة إذا أنهيت القصة، تجد تاريخ كتابتها يفرض عليك هذا الإحساس.

والمتتبع لإنتاج وطار القصصي يرى كيف تبلورت الكلمة المناضلة لديه وأصبحت أكثر فعالية ونضجا، بعد أن تبنى قضية الكادحين، من عمال وفلاحين معبرا عن آلامهم وآمالهم، ملتحما بمسيرتهم النضالية في الدروب الوعرة. فقصصه إذن ليست من ذلك النوع الذي يعتمد على الإثارة الجنسية والنزوات العابرة، إذ هي ترتفع وترتفع عن مثل هذه التفاهات والمهاترات.

ولو ألقينا نظرة خاطفة على القصص التي تضمنتها المجموعة لتأكدنا مما قلناه، فكلها ملتزمة بالخط الثوري وملتحمة بقضايا الجماهير الكادحة التي تكد وتكدح لتحصل على خبز يومها من يوميات فدائي. الدروب، السباق، البخار، رسالة اليتامى، الخناجر، وأخيرا رمانة. ومعظم هذه القصص لم يسبق نشرها من قبل.

كما ينبغي أن نلاحظ بأن بعض قصص هذه المجموعة يعتبر امتدادا لقصص سبق أن نشرها كاتبنا وطار في مجموعته الأولى دخان من قلبي وكالأبطال مثلا التي تذكرنا بقصته الأولى "ممر الأيام" التي يحكي فيها عن كاتب يريد كتابة فصل من مسرحية ثم يلقيها في سلة المهملات ليعيد كتابتها مرة أخرى، وهكذا..

ولعل هذا النوع من فن كتابة القصة، استلهمه صاحبنا الطاهر من المسرحية العالمية المعروف (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) للكاتب الإيطالي الشهير: لويجي براند يللو فهنالك تقارب إلى حد ما، بين قصة (الأبطال) والمسرحية المذكورة، ولاسيما من حيث الهيكل العام، وتوزيع مختلف الأدوار على الأشخاص المناطة بهم تلك المهام، وفي ذلك يقول وطار: من الإنصاف والعدل، أن يطلع الأبطال - حقيقيين كانوا أم مزيفين- على مصائرهم قبل أن يبلغوها وأن من لا يعرف دوره، يظل منقوص الخلق.

ورغم الإرتباط الوثيق الموجود بين قصة الأبطال، والقصة الأخرى نستطيع القول: أن الأبطال امتداد للقصة الأولى، إلا أنها مع ذلك مستقلة عنها إلى حد ما، فالكاتب هنا، يتقمص شخصية بطل القصة، يبحلق في الفراغ، ويمتص غليونه بشراهة، وينفث الدخان بدون انقطاع، لعل أسباب الحياة البسيطة تعود إلى أبطال قصته المغضوب عليهم، وفجأة يثور ويلعن من قلبه، أبطال قصته، الذين توقفوا عن العمل فيقول مزمجرا: هؤلاء الأنذال كأنما نسوا، أنني خالقهم وأنه في وسعي بين لحظة وأخرى أن أميتهم الملاعين المتنكرون، نخلقهم، ثم نحار في أمرهم، لا عدمنهم، لاجعلنا خاتمتهم شر خاتمة.

وبعد معاناة طويلة يحكم الكاتب على أن أبطال قصته ليسوا إلا مجرد حروف سوداء مرتبطة ببعض على ورق أبيض، تهدد كل لحظة سلة المهملات. جرة قلم فقط. قرار الخالق. فيمسخون إلى مجرد حثالات عادية، يمضغون الأشواك الجافة، وسط القطيع الأعمى.

ويغوص الكاتب في أحلام لنيذة، تعود له فيها أحداث القصة، فيغرق حتى الأذنين في مشاكلهم، فكل بطل من أبطاله، سواء عمر بن بوجمعة أورهواجة أومعروف بن بادي، يطلب منه بأن يخفف من غضبه عليه فلا يملأ سيرته بالخطيئة،

غير أن الكاتب لا يغيرهم أدنى انتباه، فمعروف بن بادي رجل شارك في معركة "ديان بيان فو" الشهيرة، ورجع إلى وطنه، لكنه بعد فترة، ولظروف خاصة، يعيد لبس الزي العسكري ويدخل في مهمة تفتيش منازل القرية حتى يصل إلى بيت رهواجة القالمية زوجة عمار بن بوجمعة، الذي انطلق نحو الجبل، وفي بيت أبيها، ويرفض معروف بن بادي الخروج من منزل رهواجة ويعمل بجميع الوسائل على إغرائها، وأخيرا ترمي هي في أحضانه ويوافق الأب على الزواج، فيرسل معروف يستحضر صديقه عمار بن بوجمعة في ليلة الزفاف، فتشتد غيرة عمار من هذا العمل، فيقرر إرسال مجموعة المسبلين، التي هي تحت قيادته، لاقتحام القرية، ويقصد المنزل الذي يضم زوجته وعدوه، فيقتلهم هناك. ويحاصر العدو عمارا فيرديه قتيلا، وهنا تتم خطة أحداث القصة، هذه هي قصة الأبطال التي تبدو للوهلة الأولى أنها قصة ذاتية صرفة، ولكنها -في الحقيقة- ملتزمة بالخط الثوري، وما أكثر ما وقعت شبيهاتها أثناء ثورتنا التحريرية فهي -إذن- قصة واقعية إلى حد لو ذكر لنا الكاتب كيف يتم التقاء خائن مع مجاهد، وهذا قد يكون، لكن المهم هو أن الخائن معروف بن بادي بكل تأكيد، يعرف صديقه وزوجته فكيف يرسل لاستحضاره في هذا الزواج غير الشرعي؟ اللهم إلا الجري وراء تعقيد العقدة.

❖ الإزدواجية بين أحداث القصة والأسطورة:

ونتيجة لهذا فهي من حيث الهيكل العام، تبدو لنا قصة ازدواجية، أو قصة داخل قصة، والملاحظ أن أكثر القصص الرائعة عند الطاهر وطار تمتاز بهذه الازدواجية المحببة إلى النفوس، ونفس هذه الطريقة نجدها في قصة "اليتامى" حيث تزدوج الأسطورة الشعبية المعروفة "بيقرة اليتامى" التي يشتاق الأطفال كثيرا إلى سماعها، والمشاكل العويصة التي وقع فيها بطل القصة من جراء انحراف وقع من

طرف مسير المزرعة التي يعمل فيها، فيثور العمال ضده ساخطين متبرمين فيعلن لهم مدير المزرعة بتبجح: (هذه المزرعة لم تعد مسيرة ذاتيا، لم تبق لكم، كما كنتم تتوهمون، لقد تحولت إلى أهلها إلى الذين كانوا يكافحون من أجل تحريرها. ماتأكله العنزة الحواء في الغابة، تلقاه في حانوت الدباغة، هي منذ اليوم لعشرة من قدماء المجاهدين الأبطال).

بينما في الجانب الآخر يواصل الجد حكاياته لأحفاده الذين يصغون إليه في اهتمام متزايد: (بقرة اليتامى) أواه، كانت هي التي يعيشون منها بعد أن حلت محل الأم كانت ترضعهم بحنان وود من ضرعها، حليبا نقيا عذبا). ويترك الكاتب خاتمة قصته هذه، في أحشاء الغد فما عساه يلد من مفاجآت؟.. (فهل ستحقق المعجزة وتحيا بقرة اليتامى) على حد تساؤل الأحفاد أمام الجد الذي يعدهم بإتمام القصة غدا..

ونجد مثل هذا الأسلوب الفني الممتع أسلوب الإزدواجية بين أحداث القصة والأسطورة الشعبية، نجده كذلك في قصة "الدروب" حيث تزدوج أحداث هذه القصة التي تدور حوادثها في منطقة الأوراس، أثناء الحرب التحريرية، مع الأسطورة الشعبية المعروفة "بحباح المرتاح".. إلا أننا نلاحظ بأن هذه الإزدواجية في قصة الدروب لا ترتقع إلى مستوى تلك الإزدواجية الرائعة في قصة اليتامى ومهما يكن من أمر فنحن نهلل لنجاح كاتبنا الطاهر في هذا الأسلوب الفني البكر، الذي لا يستطيع تناوله إلا من له باع طويل في فن كتابة القصة.

❖ حين يكون النضال بالكلمة:

ونلاحظ بأن الالتزام بالخط الثوري، والالتحام بمسيرة الطبقات العمالية يتخذان طابعا أعمق في قصته "اليتامى" ويتجلى ذلك في ثورة العمال على مدير المزرعة الذي كان يستغل جهدهم وعرق جبينهم ليرتع هو وأسرته في بحبوحة من العيش الرغيد..

- ماذا يريد عبد الواحد أن يسمعه للمدير؟

- سيقول له أولا: أننا نحتاج إلى أجرة عملنا. التي لم تقبضها منذ ثلاثة أشهر، والتي بلغنا أنها جاءتنا، لكن المدير فضل أن يسدد بها الديون المترتبة على المزرعة، والتي لا علم لنا بها.

- وسيقول له ثانيا: هذه خمس سنوات، وأنت تشل عملنا بمنعنا من التجمع، وتكوين نقابتنا، والتصرف في شؤوننا أوشؤون مزرعتنا.

- وسيقول له ثالثا: أيها المدير إنك سرقتنا، مع جهازك الحسابي، فعملنا هو هو، لكن مردوده يتضاءل في أوراقك، مهما بذلنا من جهد ومهما تنازلنا عن الساعات الإضافية.

لذا من الأحسن، أن نصفى معك حساباتنا، قبل الإفتراق، لن نضربك لن نقتلك، لن نهين زوجتك، أوابنتك، أوكلبك، ولن نحطم سيارتك، لكننا فقط، لانريد أن نتركك تهرب، قبل تصفية الحساب، نريد جلب خبير من المدينة، ومحاسبتك.

ورغم أن العمال يعرفون النتيجة مسبقا، لكنهم يفضلون أن يتحدى عبد الواحد المدير، وأن يشركه في المصاب بل ويحمله إياه.

وكاتبنا وطار يقف هنا في قصته هذه التي لا أظنها إلا واقعية مساندا قضية هؤلاء العمال الكادحين، ضد الاستغلال الذي حاربوه بالأمس بحد السلاح ولايرضون أن تبقى جذوره في جزائر اليوم.

"فإذا ما استعمل جميع ما لكتابنا وفنانينا من قوى خلاقة - كما يقول الكاتب محمد ديب - في سبيل إخواننا المظلومين، فإن الثقافة والنتاج الفني، يصبحان سلاحا تسترجع به الحرية والكرامة".

❖ الطاحونة... وتحطيم الشكل القديم:

وإذا عدنا إلى قصة "الطاحونة" فإننا نجد بطل القصة الجندي البسيط يلتقي بطفلين يطلبان منه الخبز باستكانة "فالبشر حين يجوعون يذلون، ولو كانوا أحفاد الكاهنة!" فيقدم لهما ما معه من الدراهم بعد أن يتعرف على بعض من قصة هذين الطفلين البريئين، ويؤكد لهما بأنه "سيكثر الخبز- لن يتصدق عليكم به أحد، لكن ستنالونه باستحقاق أنظر إلى هذه الأراضي الواسعة إنها ملكنا جميعا وهي غنية تعطينا إلى الأبد مايكفينا خبزا وخضراوات وغلالا كان الإستعمار يشغلنا عن أرضنا." وقد تبدو هذه القصة بسيطة من حيث محتواها، لكن كاتبنا وطار أضفى عليها شيئا من تجربته الإنسانية، مما جعلها تنبض بالحيوية والنشاط، وكأنه نفخ في أشخاصها روح الحياة!.

"هذه المكاتب الخالية من كل أثر للحياة، تعبر عن نفسياتنا- مسكينة هذه المكاتب، لا تستطيع أن تنظم نفسها بنفسها- الثورة أول مهمة تنجزها- هي تحطيم الشكل القديم للمكاتب."

ذلك هو مفهوم الثورة عند الطاهر وطار، إذ هي "ليست عاصفة هوجاء تقتلع الأشجار، وتخرب السدود وتحطم القرميد إنما السيول يجرف الطحالب والأغصان الهشيمة، ويفني العروق الحية، لتزهر الحياة وتخصب وتثمر".

(والثورة التي تتخذ المثقفين الثوريين سمادا لها ستظل تسير عرجاء). ولعل هذا هو الذي حدا بكاتبنا وطار لأن يهدي حقوق تأليف كتابيه: الطعنات والهارب إلى كل من جبهة التحرير الفيتنامية وحركة التحرير الفلسطينية (فتح) لاقتناع منه "بأن هذه الحركات التحريرية تواجه حروبا جهنمية مادية، ولذا ينبغي مساندتها ماديا أيضا، وليس فقط بعبارات التأييد الكلامي".

* الطعنات.. والأسلوب الخطابي:

وعندما نرجع إلى القصة التي أخذت المجموعة عنوانها، وهي: الطعنات.. فإننا لانجدها - في الحقيقة - ترتفع إلى مستوى القصص السابقة، ذلك أن قصاصنا الطاهر يتخلى - من خلالها - في كثير من الأحيان، عن أسلوبه الساحر الممتع وطريقة تناوله للقصة الأخاذة، إلى أن يغرق في الأسلوب الخطابي الطنان، مثل "أيها الجندي، أيها المسبل، يا أيها الفدائي، أيها الضابط وضابط الصف، أنت لإطار الأمس واليوم.. وأنت إطار اليوم والغد.. أنت الشرارة والشعاع، بل الشمس اليوم وشمس اليوم والغد.. بل والشمس السرمدية، أنت الحياة.. والدم الذي يجري في شرايين الحياة"

إن هذا الأسلوب الخطابي الكلاسيكي، الذي يتكرر أيضا في مقاطع أخرى إنه ولاشك ممل ولاسيما في القصة التي من المفروض أن تكون ذات أسلوب شيق أخاذ يجذب القارئ إلى التهام القصة بنهم وشراهة !..

غير أن هذا الأسلوب الخطابي، يشفع له به أسلوب المنولوج الداخلي الذي يمسح شيئا من غبار الكلاسيكية الذي كاد أن يطمس حيوية القصة ذات المضمون الشيق، بأحداثها تصور حياة أحد المجاهدين القدامى، وجد نفسه بعد الحرب التحريرية في فراغ مخيف، إذ أضحى "كقطعة حبل تجرها المياه الراكدة الخرساء.. أو كسلحفاة عمياء تتبعثر على حافة مستنقع نتن، قذر.." فسقط إذ ذاك في أوحال المجتمع وآثامه، ولم يجد له مفرا غير احتساء كؤوس الخمر باستمرار، يسرح بأحلامه في أمسه المفقود، ونعيمه الضائع.. ومن هنا تتعدد الطعنات لهذه الضحية.. باللجراح يلسعها الملح !.. وفي الأخير، يتأكد أن "الجيفة لا تعنيها الطعنات، وليس غير الرجال يتحسسون الطعنات".

❖ المونولوج وتصوير انفعالات الأبطال:

وقصة "الطعنات" تذكرنا بقصة أخرى تضمها نفس المجموعة، وهي قصة "البخار" إذ يكاد يكون الهدف بينهما واحدا، كما أن الملجأ إليه واحد أيضا وبطل هذه القصة الأخيرة "البخار" عندما يشعر باللامبالاة والفراغ والتقزز من المجتمع الذي يعيش وسطه يلجأ إلى الخمر، يحتسي كؤوسا معتقة، علها تريحه من همومه ومتاعبه ولو للحظات.

وفي قصة "النجار" هذه يكون استعمال الطاهر وطار.

لأسلوب المونولوج الداخلي، قد بلغ الأوج والروعة.

ولعل التجاء كاتبنا وطار إلى أسلوب المونولوج الداخلي الذي يكاد يكون القاسم المشترك بين معظم قصصه، لعلّ هذا الالتجاء كان يهدف تصوير وإظهار مختلف الانفعالات والمشاعر الداخلية العنيفة التي تنتاب أبطال ،وشخصيات قصصه، وقد نجح الطاهر في ذلك إلى حد جعلنا ندرك بوضوح ذاتيات وخصوصيات أبطال قصصه، وكذا متاعبهم واهتماماتهم اليومية النضالية.

❖ رسالة.. ليست ذاتية وجدانية:

ويتجلى أيضا أسلوب المونولوج الداخلي أكثر وضوحا، في قصصه "رسالة" التي قد تبدو للوهلة الأولى أنها من ذلك النوع من القصص التي اعتاد كاتبنا ولوج أبوابه العريضة!

والواقع أن هذه القصة هي الأخرى ملتزمة بالخط الثوري النضالي الذي رسمه الكاتب لنفسه، من خلال مجموع قصصه، فبطل هذه القصة، شخص يدعى المنجي، يعيش في الحياة السرية مطاردا من طرف القوات المحلية، على أعماله التخريبية، ضد الفرنسيين فهو "لا يشتغل بالسياسة، كما قال ذات يوم لصاحبته

ياسمينة(بطلة القصة) لأن هذا منطق بورجوازي، إنما فقط يناضل ولكي يبلغ المرء درجة النضال، ينبغي أن يعرف أولا لماذا يناضل أن يقتنع بعقله وعاطفته.

والقصة عبارة عن رسالة طويلة كتبتها ياسمينة بطلة القصة، تروي فيها الأحداث التي جرت بعد رحيل جارها المنجي بطل القصة، كما تحكي ذكرياتها معه، وما قاست من مرارة في سبيله، لأنها اقتنعت- كما تقول في رسالتها- "بأن الدرب التي اقتيد كلانا للسير فيها، ينبغي أن انطلق فيها كما يحلو لك، لا كما يحلو لي."

وفي النهاية "تلت ياسمينة ما كتبت، شعرت بالخجل، وتذكرت أوامر اليقظة الصارمة، فسارعت لإحراق الرسالة، وهي تتمتم:

-بعد الظفر، أعيد كتابتها، وأروي فيها تفاصيل أكثر".

ولئن كانت "رسالة" هذه، طويلة بعض الشيء، إذ ملأت خمسة وعشرين صفحة من الكتاب، إلا أنها مع ذلك تعتبر- بحق- إحدى روائع مجموعته القصصية هذه.

❖ المرأة رمز :

وتتبلور الكلمة المناضلة لدى الطاهر وطار أكثر، في قصته الأخيرة "رمانة" التي ليس عنوانها، إلا رمزيا، "ويلعب الرمز دورا أساسيا -في معظم قصصه- في تحديد كثير من شخوصها، وتناقضاتهم، وما يحيط بكل منهم من ظروف ذاتية أو طبقية" كما أن المرأة في انتاجات وطار تلعب دورها الثانوي كامرأة ويرمز إليها غالب الأحيان، -كما يذكر هو نفسه- أما إلى العدالة، أو الأمة، أوالقضية أوحتى الثورة- كما في قصتي: "رسالة" و"رمانة". فالمرأة -كما جاءت مثلا في قصة "الخناجر" تساوي الأنانية والأنانية تساوي الملكية الخاصة، والملكية الخاصة تساوي قيدا حديديا في عنق المناضل(.

وفي قصة "رمانة" هذه تصوير دقيق لحياة ومشاكل عينات من المجتمع، تمثل انتماءات اجتماعية مختلفة، فهناك: بوعلام ومجدوب وصالح وخالي ورمانة، يمثلون أمام تاجر التحف، زوج رمانة، الأخير، الذي يرمز إلى الطبقة الجديدة التي تتنعم وسط الخيرات، بينما "الفقراء ميتون من يوم ولادتهم".

وعلى الرغم من أن هذه الحصة طويلة جدا إذ أربعا وستين صفحة، إلا أنها تعد من أنجع أعماله القصصية في المرحلة الراهنة. كما يذكر الأخ الطاهر وطار نفسه إذ هناك أشياء كثيرة يمكن أن تقال بصددها، ومجرد وقفة قصيرة كهذه لا تفي بحقها. وأنا أعجب هنا من صمت الكبار عندنا تجاهها، على الرغم من أنها نشرت منذ أربعة أشهر في مجلة "آمال" الأدبية.

ولعل المجال هنا لا يسمح بتناول قصص "الطعنات" تناولا فنيا أكثر عمقا، فعلى الأقل نرجو أن تكون لهذه الدراسة السريعة ما بعدها. وخلاصة القول، أن تجربة الطاهر وطار في "الطعنات" سيكون لها ولاشك المكانة اللائقة بها في دنيا القصة القصيرة، لا في الجزائر فحسب، وإنما أيضا في العالم العربي[1].

1. نشرت هذه المقالة النقدية المطولة بعناوينها الفرعية بجريدة "الشعب" الوطنية ليوم4 سبتمبر 1970 وأذيعت في حصتين من برنامج دنيا الأدب بالإذاعة الوطنية في نفس الفترة، وقد استأثرت طوال شهرين باهتمام عدد من الأقلام من بينها: محمد سعيدي- أحمد منور- مبروك نويس- محمد علي الهواري وغيرهم. كما دفعت أديبنا الطاهر وطار للرد على مجموع الكتابات السابقة بمقالة مطولة في ست حلقات نشرت بنفس الجريدة ابتداء من28 ديسمبر 1970 تحت عنوان كبير: الطعنات، الخبشات والأستاذ وقراطية.

مصابيح.. وأنوار

المقاومة والبطولة في شعرنا الشعبي

الشعر الشعبي الجزائري غني من حيث غزارة مادته وتنوع موضوعاته، وهو أقرب الفنون الأدبية إلى وجدان الشعب، وقد ظل ولا يزال مرآة صادقة، تنعكس عليها أوضاع الجماهير، وهي تكد وتكدح لضمان مستقبل مشرق منير، كما لعب هذا الفن الأدبي الشفوي دوره الحميد في ظروف العهد الاستعماري،فصور بدقة وصدق مختلف الأحداث التي عايشها الشعب، والمصاعب، والمصائب التي أكتوي بلهيبها كما واكب ملحمة الثورة مجسدا بطولاتها الخالدة.

غير أن هذا الشعر الشعبي لا يزال للأسف مبعثرا مشردا متنقلا بين أفواه الناس، ينتظر الأيدي البيضاء الرحيمة لتقوم بجمع أشتاته وتسجليه ونشره وبحثه، من طرف الدارسين والمختصين والمهتمين من غير أن ننكر بعض الجهود المبذولة هنا وهناك إلا أنها لا تزال كوخز الإبر محدودة الأثر.

من هنا تأتي أهمية أطروحة الباحث السوفياتي فلاديمير سكورو بوغاتوف عن موضوع الشعر الشعبي الجزائري في الفترة ما بين 1830 و1930 والتي تمت مناقشتها في معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم بموسكو.

وتتبع أهمية هذه الأطروحة أكثر إذا ما علمنا بأن صاحبها سبق له أن عمل مدة بالجزائر كمترجم من اللغة العربية وإليها ضمن الخبرات السوفياتية وقد أتيح له من خلال عمله أن يقوم بعدة جولات عبر مدن وقرى الجزائر مما دفعه إلى تخصيص وقت فراغه لدراسة هذا الشعر حتى جنى ثمرة جهده الذي استمر ستة أعوام بتقديم هذه الأطروحة الهامة التي استهدف من خلالها تسليط مزيد من الأضواء على الدور التاريخي الذي لعبه الشعر الشعبي في تصوير الحياة الاجتماعية والسياسية في الجزائر

وعلى اتجاهاته وخصائصه الفنية.

وركز الباحث جل اهتمامه على تحليل إنتاجات هؤلاء الشعراء الذين عبروا بقوة عن المشاعر المعادية للاستعمار مبرزا مدى أهمية قصيدة الشيخ عبد القادر الوهراني عن دخول الفرنسيين التي لعبت دورا كبيرا في خلق وتشكيل شعر المقاومة في الجزائر.

ومما يذكر عن تلك القصيدة الخالدة أنها نظمت في خضم الأحداث المتأججة فكانت تردد في كل أنحاء الجزائر وتلقى قبولا حارا لدى مستمعيها فكانت بذلك نموذجا واضحا للشعر السياسي المعادي للاستعمار وهو الاتجاه الذي احتل مكانة رئيسية في الأدب الشعبي الجزائري بوجه عام.

وأبرز المؤلف السوفياتي قيمة إبداع الشاعر الطاهر بن يحي من خلال دراسته لشعر فترة الانتفاضة الشعبية ضد الظلم الاستعماري، مشيدا بالقيم الفنية والوجهة السياسية لأعمال هذا الشاعر الذي غنى أناشيد خالدة للنضال البطولي تحت قيادة الأمير عبد القادر الجزائري.

ولم يغفل الباحث شاعرا آخر هو محمد بلخير الذي ترك شهادة شعرية بليغة على انتفاضة أولاد سيد الشيخ في سنة 1868 وكذا المداحين المعاصرين للشيخ بوعمامة قائد الانتفاضة الشعبية في عام 1881 هذه الانتفاضة التي كان لها دورها الكبير في إذكاء الروح النضالية لدى الجماهير الشعبية في تلك الفترة.

وقد كان الشعر الشعبي الجزائري خلال تلك الفترة مهتما بصورة متزايدة بالتاريخ العربي وما يحتوي عليه من مآثر الآباء والأجداد ولم يكن اتجاه هؤلاء الشعراء إلى هذا الموضوع من قبيل الصدفة بل ذلك إن حكايات مآثر الأجداد العظماء التي اتفقت والظروف السياسية الجديدة أثناء تلك الفترة التاريخية لتكون

الأمة الجزائرية قد عززت في وجدان الشعب مشاعر الاعتزاز القومي والنبل والكرامة.

وأشار الباحث السوفياتي إلى أن الشعر الشعبي الجزائري قد عكس في فترة الحروب الإمبريالية رد فعل الجماهير التي أجبرت على الحرب بعيدة عن الوطن من أجل مصالح غريبة عنها مبرزا في هذا الصدد بأن الأوبئة الاجتماعية التي كشفت الحرب الستار عنها ، انعكست في الأشعار الهجائية السافرة لسنوات ما بعد الحرب، مما أزاح الستار عن اللعبة الاستعمارية ، وكشف بصورة واضحة الوضع الحقيقي للسكان الأصليين. ومن ناحية الشكل الفني ذكر الباحث بوغاتوف بأن كتابة الشعر الشعبي على نظام البيتين والأربعة أبيات كانت أكثر أنواع تلك الكتابات المحببة التي تميزت غالبا بالتناول الهجائي الساخر للأحداث ومختلف الجرائم الوحشية التي ارتكبها الاستعمار.

وإذ يشيد مؤلف الأطروحة بالدور الهام الذي لعبه الشعر الشعبي الجزائري في الفترة ما بين 1830 و1930 ينتهي إلى القول بأن المستعمرين الذين أرادوا طمس معالم الشخصية الوطنية قد واجهوا حاجزا منيعا يستحيل تجاوزه حيث دافع الشعر الشعبي بقوة وحماس عن الثقافة الأصلية فكان له تأثير كبير وسط الجماهير وبالتالي ساهم بقسط وافر في الحفاظ على الشخصية الوطنية في تلك الفترة الحرجة.

وهكذا يبدو لنا جليا أهمية هذه الأطروحة السوفياتية باعتبارها مساهمة جادة وقيمة في دراسة وتحليل التراث الشعري في الجزائر وهي بذلك تعتبر إضافة جديدة بما تسلط من أضواء على جوانب هذا الموضوع الحيوي الذي لا يزال يكتنف مجالاته الكثيرة من الغموض والالتباس[1].

---

1. نشرت هذه المقالة بملحق النادي الأدبي لجريدة الجمهورية، بتاريخ 19 ديسمبر 1983 ضمن ملف خاص بالأدب الشعبي

صدى الثورة في الأهازيج الشعبية

إلى أي حد يمكن الإعتماد على الأدب الشعبي الشفوي، بفنونه وأشكاله، من شعر وأمثال وأهازيج، في البحث والتأريخ للمقاومة الجزائرية ضد الإستعمار الفرنسي، ورصد خطوات وبطولات ثورة أول نوفمبر 54 المكللة بأوسمة النصر والحرية والسيادة؟.. إنه سؤال جوهري يطرح نفسه بإلحاح أمام قلة الدراسات المخصصة للأدب الشعبي الجزائري، رغم بعض الجهود المحدودة والمعدودة، وخاصة من طرف الباحثين الجزائريين: التلي بن الشيخ - عبد الملك مرتاض- العربي دحو..

ومن هنا تنبع أهمية الأطروحة الجامعية الجديدة عن "صدى الثورة الجزائرية في الأهازيج النسوية لولاية تلمسان" التي نال بها الكاتب والصحفي: عمار يزلي درجة الماجستير بتقدير مشرف جدا من معهد الثقافة الشعبية بجامعة تلمسان، أمام لجنة متكونة من الأساتذة الدكاترة: عز الدين المناصرة- شايف عكاشة- عبد القادر فيدوح- عبد الحميد بورايو.

وإذا كان الأستاذ العربي دحو قد ركز منذ سنوات دراسته الجامعية عن الشعر الشعبي، والثورة التحريرية في دائرة مروانة بولاية باتنة بالشرق الجزائري، فإن بحث الأستاذ عمار يزلي تمحور حول صدى الثورة الجزائرية في الأهازيج النسوية في منطقة ترارا بولاية تلمسان بالغرب الجزائري.

وتعتمد هذه الأطروحة الجديدة على الأهزوجة كشكل فني قائم بذاته، له خصوصيات فنية وأشكال خاصة، متولدة عن الرقص الفلكلوري للقبائل الأمازيغية في الغرب الجزائري، والشرق المغربي، وهذه الأهزوجة المسماة "أحيدوس" لا تخضع لأوزان شعرية، بقدر ما تخضع لطبيعة اللحن والإيقاع، وتؤطر قاموسا لغويا يحمل من

المقاومة، ومن "الحياة والموت" عناصر طبيعية للنضال، وللصراع الدائم ضد "الآخر"، مهما كانت قوته المضادة، كما يشير الباحث.

- المقاومة، البطولة والشهادة:

ويشكل عنصر "المقاومة والبطولة" الهاجس المركزي من خلال لفظتي "المجاهدين" (ومشتقاتها النحوية)، و(الجنود) ومشتقاتها ومرادفاتها، والتي وردتا 18 مرة ضمن 184 أهزوجة.. فالمقاومة تفيد داخليا "طلب الشهادة"، كما تفيد كل من لفظة "الجندي، والجهاد، والجيش..." عنصر المقاومة المسلحة، وهذا يؤدي بنا إلى البحث عن موضع كل لفظة في سياق التعبير والدلالة الصورية للأهزوجة ككل، كما تدل عليه كل من هذه الألفاظ: "الرقبة (الشجاع)- الرايس (القائد)- أصحاب الغابة (أبطال الغابة)- للدلالة على البطولة، وكل هذه المفردات تفيد ضمنيا في سيكولوجية المرسل والمتلقى معا "طلب الحياة".

ضمن هذه التشكيلة من الألفاظ، يورد الباحث أمثلة من الأهازيج بالمنطقة، نختار من بينها النماذج التالية:

1. بلاد الصحرا بعيده *** والجندي دابره الصباط.
2. هو غادي والدم يسيل *** أحليلي، الجندي مسكين.
3. الخاوا لبسوني فرمليه *** باش نداوي ولاد الجنود.
4. الله يعاونكم يا المجاهدين *** العقبة طويلة والسلاح ثقيل.
5. أنت جاهد وأنا نغني *** حتى نتلاقو فالحرية.

ومن خلال تلك النماذج وغيرها، يلاحظ الباحث أن الفكر الديني هو الفكر المؤطر لفعل "الشهادة"، فالإحساس الباطني لا يخلو من الإيمان "بالقدر"، ولكن أيضا بضرورة "الشهادة" باعتبارها "طريق الجنة" أو "مفتاح الجنة" كما يقول الفقهاء،

كما يتجلى البعد الديني في التصور الشعبي للفظة "الجهاد" باعتباره "باب الشهادة" - وهنا تتجلى معادلة الحياة- الموت، أي جدلية، بداية الأمل، ونهاية الأجل.

- الجبل كرمز للسيادة :

رغم أن الجبل يبدو ظاهريا كرمز "للموت" في بؤرة الشهادة، فإن السيكولوجية الاجتماعية تصور "الجبل" كعنوان للحرية والبسالة، وقد يكون هذا نتاجا للمقاومة السيكولوجية التي يحاول المدنيون التسلح بها لمجابهة التحدي العسكري، وهذا أمر وارد في معظم حالات الحرب، حيث تصبح المقاومة النفسية البديل الذي لا بديل له لمقاومة العنف الجسدي والإرهاب العسكري الآلي. كما يشير إلى ذلك الباحث، قبل تقديم أمثلة من أهازيج محلية، نختار منها النماذج التالية:

1. يا الجبل العالي وفيه النوار *** تمة الزعما بناو الدار
2. يا الله نمشيو لجبل أوريس *** نعلمك الحرب والسربيس
3. يا للي قلتو الزيش تخلوا *** فالجبال معيشتو حرة.

فالتعامل مع لفظة "الجبل" تعامل عام ومنطقي، بل أساسي، إذا اعتبرنا أن المقاومة المسلحة كانت متمركزة بالجبال، بل وأن الالتحاق بالجيش قد عوض بتعبير شعبي متداول "أطلع للجبل".. كما أن الجبل هو عنوان "الاستقرار" و"العيشة الحرة"

ويلاحظ الباحث ضمن الأهازيج المتضمنة للفظ "الجبل" تركز على الوضعية الاجتماعية للمجاهدين في الجبل، والتي تؤكد أنها جيدة، مما يؤكد مرة أخرى أن لفظ الجبل في الأهزوجة، وهو عنوان السيادة، ورمز المقاومة الباسلة، والاستقرار، وهذا يعني أن معنويات الجيش على أحسن وجه، وأن هذا سيقود فعلا إلى الانتصار.

وترتبط بالجبل كلمات أخرى متداولة كثيرا في أهازيج المنطقة مثل الكهف والغابة والحدود، والأسلاك الشائكة، وغيرها.

ولعل من الصعب رصد مختلف النماذج من الأهازيج النسوية بمنطقة تلمسان والتي تناولت أصداء الثورة الجزائرية، من خلال هذه الأطروحة الجامعية التي تمتد عبر 240 صفحة مرقونة ومسحوبة على آلة "الستانسيل"، لذا، نتوقف في الختام، عند أبرز النتائج المستخلصة:

1. أن الأهزوجة وإن كانت مقسمة فنيا إلى شطرين، على شاكلة البيت الشعري الكلاسيكي، فإنها هي وحدة متكاملة عضويا، لا تربطها أية رابطة تواصلية، وأي خيط بباقي الأهازيج المرددة.

2. حافظت الأهازيج نسبيا على "نقاوتها" الفلكلورية، المجسدة في رقصة "أحيدوس" لدى قبائل المنطقة مع تأثير ديني عربي ملموس.

3. أن الهاجس المركزي في أهازيج الثورة المسلحة هو هاجس "الموت والحياة"، هذه اللحظة الدرامية تحضر في أغلبية الأهازيج المدروسة (184 أهزوجة)، فالموت والحياة شعور لا يفارق السكان أثناء الحرب، بما في ذلك عناصر "الجهاد، والمقاومة- والمكان، والشهادة" التي تحضر بشكل ملحوظ في غالبية الأهازيج.

فالثورة المسلحة التي ابتدعت نماذج من النضال والكفاح المسلح، كما يشير الكاتب عمار يزلي في ختام بحثه، قد ابتدعت أشكالا أخرى، لم تكن في الحسبان، هي تلك القدرة على التصوير، والتخزين، والترميز، للمقاومة السيكولوجية التي يمكن اعتبارها بحق "خرسانة" الثورة، أمام "ترسانة" الحرب الاستعمارية.

أثر القرآن في الشعر النضالي

ما هي الأسباب التي دفعت بالشعراء إلى الاقتباس من القرآن بهذا الشكل اللافت للنظر..؟ وما هي الجوانب التي استأثرت باهتمامهم أكثر؟.. وما هي الأهداف التي تحققت لهم بهذا الأسلوب؟.. وماذا استفاد الشعر من هذه الظاهرة في نهاية المطاف؟..

تلك مجموعة من التساؤلات التي يطرحها الأستاذ محمد ناصر بوحجام في رسالته الجامعية عن "أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث" التي نال بها شهادة الماجستير في الأدب الجزائري من جامعة الجزائر العاصمة وخصنا مشكورا، بنسخة منها موقعه باسمه..

ترى.. ما الجديد الذي تضيفه هذه الرسالة الجامعية، إلى بعض الكتب الجزائرية التي عالجت الشعر الجزائري الحديث، وخاصة منها مساهمات كل من الدكتور أبو القاسم سعد الله والدكتور عبد الله ركيبي والدكتور صالح خرفي والدكتور محمد ناصر والدكتور يحي الشيخ صالح؟..

لنتصفح معا أوراق هذه الرسالة التي تمتد عبر 411 صفحة من الحجم الكبير، والمسحوبة حاليا على ورق الستانسيل في أعداد محدودة، قبيل إعدادها للطبع.

يحاول الكاتب في التمهيد تقديم مركز عن الحركة الشعرية قبل سنة 1925 لمسايرة التطور الذي حدث في هذه المرحلة، والإشارة إلى مكانة القرآن في نفوس زعماء الحركة الإصلاحية للوقوف على حقيقة التوجيهات التي تلقاها الشعراء.

- القرآن الكريم والمعجم الشعري:

وقد خصص الفصل الأول للحديث عن المعاني القرآنية في الشعر الجزائري، واستلهم الشعراء لتلك المعاني للإفصاح عن مشاعرهم والتعبير عن أفكارهم

بينما تناول الفصل الثاني أثر القرآن في المعجم الشعري ليناقش الأحكام التي أصدرها بعض الدارسين في لغة الشعراء المتأثرة بالقرآن.

أما الفصل الثالث فقد خصصه للصور القرآنية وآثرها في الشعر من خلال تناول عدة أنواع من الصور المعروفة في الدراسات النقدية مستشهدا بنماذج عديدة في هذا المضمار.

ويتعرض الفصل الرابع لأثر القرآن في بناء الرمز الشعري مبرزا هدف الشعراء من أخذ العبرة والدرس من الأعلام القرآنية وهذا المسلك يدخل في مفهوم التوجيه والتربية ووظيفة الشعر عندهم

ولمزيد من معرفة مدى استفادة الشعراء من القرآن تناول المؤلف في الفصل الخامس بعض الصور التي فضحها التكلف نتيجة العجز عن الملائمة بين التجربة الشعرية والمخزون في الذاكرة من هذه الصورة، ولبيان أن الشعراء لم يكونوا دائما موفقين في اقتباسهم

وقد أبرز من خلال الفصل السادس والأخير أن، الشعراء وقعوا تحت تأثير التصوير القرآني قبل أن يقعوا تحت تأثير موسيقاه متعرضا لإيقاع الأوزان القرآنية في إبداعات الشعراء.

وفي خلاصة هذه الرسالة الجامعية استنتج الباحث أن تعامل الشعراء مع القرآن باستلهام روحه والنسج على منواله مكنهم أن يفضحوا كثيرا من دسائس الاستعمار

ومؤامراته وأهدافه التي ترمي إلى طمس معالم الشخصية التي كان يتبعها لقمع الروح الإسلامية العربية في الجزائر وكذا كشف الأساليب الوحشية التي كان يتبعها لقمع أية انتفاضة وإسكات كل صوت يرتفع مناديا أو مطالبا بحقوقه.

- أدب الأرقام :

وقد أفرد الباحث 40 صفحة لذكر المصادر والمراجع إلى جانب فهرس الآيات القرآنية وفهرس الأعلام فهناك 14 مصدرا و49 مرجعا، بالإضافة إلى 16 مجلة أوصحيفة اعتمدت في هذه الدراسة بأعدادها المختلفة، أما فهرس الآيات القرآنية فيشير إلى أكثر من 200 آية وردت في هذا البحث من مختلف سور القرآن الكريم.

وفي مجال الأعلام، يتصدر شاعر النضال والثورة مفدي زكرياء القائمة حيث ذكر في هذه الرسالة الجامعية 169 مرة، يليه مباشرة الشاعر الكبير محمد العيد آل خليفة 152 مرة، ثم الشاعر الدكتور محمد ناصر 62 مرة، والشاعر الدكتور صالح خرفي 25 مرة والأديب وعميد الصحافيين الجزائريين الشيخ أبو اليقظان 24مرة.. وتتوالى بقية الأسماء بعد ذلك.

وإذا كان ولا بد من كلمة ختامية بعد هذا العرض المختصر فإننا نلح على ضرورة طبع مثل هذه الأعمال الجامعية الجادة خدمة لطلاب العلم، ولثقافتنا الوطنية.

نحو كتابة نزيهة لتاريخ الثورة

الزمن يمضي ويمضي، والأيام تتلو الأيام.. ففي 5 جويلية المنصرم، خلد الشعب الجزائري ذكرى مرور 27 سنة على استرجاع السيادة الوطنية وهو في هذه الأيام يعيش الذكرى حوادث 20 أوت 1955 ومؤتمر الصومام 1956، ويستعد الآن للاحتفال في فاتح نوفمبر القادم بالذكرى الـ 35 لاندلاع الثورة التحريرية المظفرة، ببطولاتها العظيمة، وملامحها المجيدة التي تستظل إلى أمد بعيد منقوشة على جبين الدهر.

من هنا تنبع أهمية وضرورة كتابة تاريخ ثورتنا العملاقة بأقلام أمينة نزيهة شريفة. ومن هذا المنطلق، اتصلنا بالدكتور يحي بوعزيز أستاذ التاريخ الحديث بجامعة وهران، وصاحب مجموعة من المؤلفات والأبحاث عن تاريخ الجزائر المعاصر، لنسجل رأيه العلمي النزيه في هذه القضية الحيوية.

عن سؤال يتعلق بأهم الوسائل والإمكانيات التي يجب أن تتوفر لتحقيق كتابة موضوعية لتاريخ الثورة التحريرية يجيب الدكتور يحي بوعزيز:

إن تسجيل أحداث ثورة أول نوفمبر 1954 من المهام العظمى لجيل ما بعد الاستقلال، وقد تأخر إنجازها طويلا، وغاب الكثير من صناعها عنا، والتحقوا بربهم، وحملوا معهم ما يعرفونه، وما صنعوه بأنفسهم من الأحداث، وإذا لم نتدارك ذلك، فإن هذه الثورة سيحدث لها ما حدث لانتفاضاتنا وثوراتنا المسلحة في القرن الماضي.. حيث انكب الضباط الفرنسيون على تزييف وتزوير أحداث ووقائع تلك الانتفاضات والثورات، ونعاني اليوم كثيرا في سبيل تصحيحها، وإزالة الغموض الذي يكتنفها وكانت تجربتنا في إعادة صياغة أحداث ثورة 1871 وبعض وقائع ثورة الأمير عبد القادر خير نموذج في هذا المجال.

ونعتقد - كما يضيف - أن ذلك ينبغي أن يكون درسا بليغا لنا، حتى نتأخر عن تسجيل أحداث ثورة أول نوفمبر، خاصة وأن الطرف المقابل، ونعني به الفرنسيين، قد "قتلوا" هذه الثورة بالبحث والدراسة والتحليل، لكل أحداثها ووقائعها، ولكن ومن وجهة نظرهم، وفي إطار التأريخ لهم ولجيشهم وإداراتهم الاستعمارية. إن كل واحد من الفرنسيين شارك في مقاومة هذه الثورة، بأية وسيلة كانت، وبأي أسلوب كان، وفي أي ظرف من الظروف، إلا وكتب عن تجربته، وتحدث عنها، وصورها كما يحلو له، وظهرت إلى الوجود مئات الكتب والمجلدات عن هذه الثورة، وصارت مصدرا للكتاب والباحثين في معظم أنحاء العالم. وهذا في حد ذاته يمثل خطرا كبيرا على هذه الثورة وأحداثها، لأن الذين يعتمدونها كمصادر لهم في أبحاثهم سوف يقعون في نفس الأخطاء والأغلاط التي تعمدها الفرنسيون، وتتكرر نفس الصورة التي حصلت لتاريخنا قبل ثورة أول نوفمبر 1954.

- وسائل كتابة التاريخ :

ويشير الدكتور بوعزيز إلى أن كل الظروف والعوامل تستلزم وتستوجب الإسراع بتسجيل أحداث هذه الثورة، وصياغتها بأساليب أمينة وصادقة، لتكون نبراسا للأجيال القادمة، ومصدرا لكل الباحثين في جميع أنحاء العالم، بدلا من مصادر الطرف الثاني وحده، وذلك سيكشف التزوير والتدجيل، ويسمح للحقيقة أن تبرز وتثبت وترسخ.

أما وسائل وإمكانيات كتابة تاريخ الثورة، فيوجزها الدكتور: يحيى بوعزيز كمايلي: أولا : القيام بجمع وثائق هذه الثورة من مصادرها المختلفة داخل الجزائر وخارجها، وبأشكالها المختلفة، المسجلة والمكتوبة، والمصورة والمنقوشة، وغيرها.

ثانيا : الاتصال بكل الذين شاركوا في هذه الثورة، أو شاهدوا أحداثها وأخذ مذكرات منهم، مكتوبة أو مسجلة، ويمكن أن يتم ذلك على الشكل التالي:

تقسيم البلاد إلى عدد كبير من الأقسام والدوائر، وتسجيل الحوادث من أفواههم، وتسلم ما هو مكتوب لديهم، وتصوير ما يمكن تصويره من الأحداث في عين المكان، كالمعارك والمخابئ، والمخازن والأدوات، وأجهزة الحرب، والخطط والحواجز، وغير ذلك.

إن هذه العملية مكلفة حقا - كما يضيف - ولكنها مفيدة، وسوف تسمح بالتعرف على أشياء كثيرة من أحداث وخلفيات هذه الثورة العظيمة، وقد قامت بهذه التجربة ليبيا الشقيقة، واستفادت منها كثيرا، فجند مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي بطرابلس مئات الشبان الباحثين، وزودهم بأدوات التسجيل والتصوير، وبالسيارات، ووزعهم في مختلف جهات البلاد الليبية، طولا وعرضا، فقاموا بمسح البلاد مسحا كاملا، وجمعوا كل ما أمكن جمعه من وثائق وصور وغيرها، وسجلوا أحاديث طويلة للذين عاشوا الغزو الإيطالي أو عاصروه أو سمعوا عنه، وألفوا من كل ذلك مصادر هائلة ومتنوعة للمقاومة الليبية ضد الغزو الإيطالي، وشرعوا بعد ذلك، يسجلون ويكتبون، وبدأت تظهر إلى الوجود بعض هذه الكتابات.

ومن خلال هذا المثل، يستنتج محدثنا أنه يمكن للجزائر أن تقوم بهذا العمل وتستفيد من هذه التجربة، ولا شك أن مثل هذه الجهود عظيمة الفائدة، وهذا لا ينفي وجود بعض الجهود في هذا المجال.

وهنا لا بد أن نسجل بارتياح - كما يضيف الدكتور بوعزيز - ما قامت به المنظمة الوطنية للمجاهدين منذ أواخر شهر أكتوبر 1981 عندما أشرفت على تنظيم الملتقى الوطني الأول لكتابة تاريخ الثورة، ودعت إليه ما يقرب من ألف مجاهد ومناضل، وأفسحت المجال لهم في قصر الأمم ليدلوا بما عندهم من أحداث وتصورات، سواء

ماقاموا به بأنفسهم أو علموا به من غيرهم، وتم تسجيل كل ذلك، وتوالت بعد ذلك هذه الملتقيات كسنة حميدة ستعطي ثمارها في مستقبل الأيام.

إن أسلوب عقد المؤتمرات والملتقيات والندوات الجهوية لجمع المعلومات هام جدا، ويجب استغلاله، وقد لمسنا فعلا فائدتها، ويجب عدم تضييع الوقت، من أجل الاستفادة من الأحياء قبل مغادرتهم لهذه الدنيا.

- ما كتبه الفرنسيون عن الثورة :

وحول سؤال عن القيمة العلمية لما كتبه الفرنسيون عن تاريخ الثورة يؤكد الدكتور يحي بوعزيز على ضرورة الإطلاع على كل ما كتب عن هذه الثورة بالخارج والاعتكاف على دراسته وفرزه وغربلته وتصنيفه، حتى نعرف ماذا قال الطرف الثاني وماذا كتب، ونقارنه بما عندنا من أحداث ومعلومات، حتى نتمكن من كشف الزيف والتزوير، والتعرف على الأخطاء المتعمدة والعفوية، وتصحيحها.

إن ما كتبه الفرنسيون ينبغي أن نكون حذرين منه، ولكنه مع ذلك سوف يبقى لأمد بعيد أحد المصادر الأساسية لكتابة تاريخ الثورة. أحببنا أم كرهنا، لأنهم سبقونا إلى التسجيل والتأريخ، وتماطلنا نحن، وعلينا أن نجني الثمار الحلوة أو المرة..

وعن سؤال يتعلق بأهمية جهود الباحثين الجزائريين في هذا المجال، يشير الدكتور بوعزيز إلى ضرورة تجنيد عدد كبير من هؤلاء الباحثين المتخصصين، وتفريغهم للعمل عدة سنوات، وتشجيعهم ماديا وأدبيا، وتمكينهم من الوثائق، أوالوصول إليها، ليستفيدوا منها، ويستخلصوا ما بها من أحداث وتصورات ونتائج. لصياغتها بعد ذلك بأسلوب علمي أمين وهادف كل في حدود اختصاصه.

وبالطبع فإن ذلك لن يتم بسهولة ويسر وفي وقت قريب، ولكنه عندما يتم سوف يكون في صورة جيدة تشرف الباحثين الجزائريين، كما شرفت الثورة الشهداء والمجاهدين والمناضلين، والمواطنين بوجه عام.

- أساليب الكتابة عن الثورة :

وحول سؤال عن التقسيم الذي وضعه الباحث الجزائري الدكتور أبو القاسم سعد الله حيث طرح ثلاثة أنواع من أساليب الكتابة عن هذه الثورة: الكتابة الرسمية والكتابة الأكاديمية والكتابة الشعبية.

يرى الدكتور يحي بوعزيز أن هذه الأساليب التي ذكرها المؤرخ سعد الله مفيدة ومتكاملة مع بعضها البعض، ويجري العمل بها في كثير من البلدان.

فالتاريخ الرسمي يعبر عن رأي الدول والحاكمين بها، وفيه قدر كبير من الصحة والحقيقة، ولكنه محصور في فئة معينة، وله أهميته المحدودة.

والتاريخ الأكاديمي هو الأقرب إلى الحقيقة والواقع، لأنه يتحرى الدقة ما أمكن، ويعتمد على الوثيقة، ويبحث عنها، ويجري وراءها. ويتحمل كافة الصعوبات للحصول عليها، والإطلاع على محتوياتها حتى يأمن مزالق الخطأ، وكثيرا ما يتوقف عندما تعترضه مشاكل، وتتحداه صعوبات مادية أو بشرية.

والتاريخ الشعبي هو أسهل وأكثر الأساليب شيوعا في كثير من البلدان لأنه يعتمد البساطة ويهمه فقط تسجيل الحوادث وتدوينها، بأي أسلوب كان.

- الكتابة الشعبية :

وإجابة عن سؤال يتعلق بتطبيق تلك الأساليب في كتابة تاريخ الثورة، يرى الدكتور بوعزيز أنه في مثل وضعنا نحن بالجزائر، ينبغي تشجيع الكتابة الشعبية ما أمكن، وتدعيمها حتى يمكن تسجيل أكبر عدد ممكن من الأحداث وضمان عدم ضياعها.

ويأتي بعد ذلك التاريخ الأكاديمي الذي يقوم بعمل التصفية والتدقيق والتمحيص والغربلة، وهو ما تم حتى في فرنسا نفسها، بالنسبة لموضوع الثورة نفسه المشترك بيننا

وبينهم للظروف التاريخية، ويدخل التاريخ الرسمي بين الأسلوبين لتطعيم ما يمكن تطعيمه.

ويختم الدكتور يحي بوعزيز حديثه قائلا:

إن أفضل أسلوب في نظرنا، في هذه المرحلة المستعجلة، هو إعطاء الفرصة المواتية لكل من يريد أن يكتب عن هذه الثورة، وتوفير ما يمكن توفيره من وسائل الطباعة والنشر، حتى يتمكنوا من نشر ما كتبوا، فتحفزهم الهمم للتصدي بالكتابة والرد والتصحيح وإكمال النقص، وملء الثغرات والفجوات وبذلك تبرز إلى الوجود مجموعة كبيرة من الأحداث والوثائق ويجد الباحثون المتخصصون مادة خصبة لأعمالهم وأبحاثهم الأكاديمية الكبرى[1].

1. نشرت هذه المقلة بمجلة المجاهد الأسبوعية، بتاريخ 18 اوت 1989.

مصطلحات الثورة الجزائرية

.. وماذا يعرف أبناء جيلنا الحاضر عن ثورتنا الجزائرية الجبارة وعن مصطلحاتها ومفاهيمها وسر إنتصارها على قوات الاستعمار الفرنسي؟.. لعل هذا التساؤل الهام والمثير هو الذي دفع بعدد من الأقلام الوطنية لمضاعفة الاهتمام بثورتنا الخالدة، ذلك أن الكتابات الجزائرية عنها ومن وحيها، تظل نادرة جدا، وتكاد تحصر في أقلام محدودة للغاية في حين يظل تعطش جيل الاستقلال قائما ومتلهفا لالتقاط كل كلمة صغيرة أو كبيرة تقال عن هذه الثورة العظيمة.

من هنا، تنبع أهمية مبادرة الأديب الباحث الدكتور عبد المالك مرتاض من خلال معجمه الموسوعي لمصطلحات الثورة الجزائرية الذي صدر عن ديوان المطبوعات الجامعية، وأهدانا مشكورا نسخة منه، موقعة باسمه.

إن ما كتب عن هذه الثورة، كما يقول المؤلف، بالقياس إلى ما يجب أن يكتب، قليل من كثير، كم كان عدد المجاهدين في نوفمبر 1954؟ كما يتساءل وكم صار هذا العدد في فاتح جويلية 1962؟ وكيف كان لباسهم بتفصيل وتدقيق؟ وكيف كانت معيشتهم وحياتهم اليومية؟ وكيف كان سلوكهم الاجتماعي مع بعضهم ثم مع أعدائهم، إذا وقعوا بين أيديهم؟ وما هو السر في انتصار هذه الثورة على عتو القوات؟ وما هي تنظيمات جبهة التحرر الوطني قائدة ثورة التحرير؟.. إن كثيرا من الأسئلة لا نجد عنها الجواب بالمرة، أو نجد لها جوابا، ولكنه لا يقنع صاحب العلم ولا يشفي غليل الباحث المتعطش، كما ورد في كلمة التمهيد.

والكتاب على صغر حجمه، له أهميته البالغة، حيث يضم 69 مصطلحا عن الثورة الجزائرية، مع شرح مختصر يسهل مهمة كل كاتب في هذا الموضوع،

إلى جانب ذكر المصادر المعتمدة من مجلات دورية، وجرائد يومية، وكتب عربية وفرنسية، كما يشتمل على فهارس للآيات القرآنية والأشعار والأمثال والأعلام، والثورات والمدن والبلدان، والمنظمات والأحزاب.

ولعل طبيعة منهج الكتاب في الغالب - كما يشير المؤلف في صفحة 160- عرضية أو تقريرية لا تحليلية، لأنها تقوم في أصلها على غرس معلومات تاريخية أمام القارئ لا غير ثم هو بعد ذاك في حل، إن شاء، بعد تجميعها والتنسيق فيما بينها: من أن يقوم ببعض التحليل في أفق مستواه الثقافي.

وهكذا يأتي هذا المعجم الموسوعي لمصطلحات الثورة الجزائرية والذي يمتد على 162 صفحة من الحجم الكبير، ليسد بعض الفراغ الذي تعاني منه مكتبتنا في موضوعات الثورة الجزائرية وأدبياتها، والرجاء كل الرجاء أن يتواصل جهد مؤلفنا الدكتور عبد المالك مرتاض بالتعاون مع غيره من كتابنا الجزائريين لتوصيل رسالة الثورة إلى الجيل الحاضر وإلى أبناء الأحفاد.

النضال والثورة عبر ربع قرن

- 7 جوان 1936: المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي ضم كلا من النواب، وجمعية العلماء، والشيوعيين(ضم الجزائر لفرنسا).
- 26 جويليه 1936: الفرع الجزائري للحزب لشيوعي الفرنسي يتحول إلى حزب شيوعي جزائري.
- 26 جانفي 1937: حل نجم شمال إفريقيا
- 11 مارس 1937: تأسيس حزب الشعب الجزائري بقيادة الزعيم الوطني: مصالي الحاج
- 1938: الانشقاق بين بن جلول وعباس، هذا الأخير يؤسس الاتحاد الشعبي الجزائري
- 26 سبتمبر 1939: حظر حزب الشعب الجزائري واعتقال قادته الأساسيين، حزب الشعب يدخل في العمل السري.
- 16 أفريل 1940: وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس، يخلفه على رئاسة جمعية العلماء البشير الإبراهيمي
- 10 فيفري 1943: بيان الشعب الجزائري: دستور وحكومة. (فرحات عباس).
- 1944: حزب الشعب الجزائري وجمعية العلماء والنواب يؤسسون حركة أحباب البيان والحرية. حزب الشعب يكثف من عمله السري.
- مارس 1945: مؤتمر أحباب البيان والحرية يتبنى أطروحات حزب الشعب الجزائري: جنسية جزائرية، دستور جزائري برلمان منتخب، حكومة جزائرية، علم جزائري
- 8 ماي 1945: مظاهرات شعبية، قمع دموي في منطقة قسنطينة، اعتقالات واسعة النطاق شملت أهم القادة الوطنيين.
- أفريل 1946: إنشاء الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري(فرحات عباس).
- نوفمبر 1946: حزب الشعب الجزائري يشارك في انتخابات المجلس الوطني الفرنسي

تحت شعار "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية(حا.حد) ويفوز بخمسة نواب منتخبين

- 15 فيفري 1947: أول مؤتمر لحزب الشعب الجزائري. وحركة الانتصار للحريات يقرر مواصلة النشاط السري لحزب الشعب الجزائري، وإنشاء جهاز علني: حركة الانتصار للحريات الديمقراطية ومنظمة مسلحة (المنظمة الخاصة) ستكون نواة جيش التحرير الوطني الذي سيأتي فيما بعد، حزب الشعب الجزائري هو المنظمة الأم التي تستمد منها كل من حركة الانتصار والمنظمة الخاصة مناضليها.
- أكتوبر/نوفمبر 47: انتصار حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في انتخاب 1947 المجالس البلدية ومجالس الجماعات، وذلك على أساس برنامج سياسي (مجلس تأسيسي جزائري).
- 4 و11 أفريل 48: تزييف شامل لانتخابات المجلس الجزائري الذي تأسس بموجب القانوني الأساسي سنة 1947 "الممنوح"، اعتقال أكثر من نصف مرشحي حركة الانتصار الحريات الديمقراطية واستعمال القوة ضد الناخبين المسلمين من طرف الإدارة الاستعمارية.
- ديسمبر 1948: اللجنة المركزية لحزب لشعب - حركة الانتصار للحريات لديمقراطية في دورتها المنعقدة بزدين (الشلف) تقرر منح الأولوية للمنظمة الخاصة.
- 1949: تدعيم المنظمة الخاصة وهياكل حزب الشعب - حركة الانتصار والمنظمات التابعة له: الكشافة، الطلبة، الجمعيات الثقافية والرياضية، الخ.، تعزيز الدعاية داخل الوطن وخارجه، اشتداد القمع بكل أنواعه، الأزمة البربرية.
- مارس/أفريل 1950: القوات الاستعمارية نقوض المنظمة الخاصة.
- 5 أوت 1951: تأسيس الجبهة الجزائرية ة للدفاع عن الحريات الديمقراطية واحترامها بمشاركة حزب الشعب الجزائري. حركة الانتصار للحريات الديمقراطية والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وجمعية العلماء، والحزب الشيوعي الجزائري على أساس برنامج يقتصر على الدفاع عن الحريات الديمقراطية.

- 14 ماي1952: إلقاء القبض على مصالي الحاج بالشلف وإرغامه على الإقامة الجبرية بنيور (فرنسا).
- 4 أفريل1953: المؤتمر الثاني لحزب الشعب الجزائري حركة الانتصار للحريات الديمقراطية يصادق على عدة لوائح على الصعيد الإيديولوجي والاقتصادي والاجتماعي وكذلك على صعيد الكفاح المسلح (المنظمة الخاصة) (م خ).
- 10 ديسمبر1953م: نداء حزب الشعب - حركة الانتصار من أجل مؤتمر وطني جزائري (مجلس وطني ذو سيادة).

❖ سنة1954م:

- جانفي: انشقاق حزب الشعب - حركة الانتصار للحريات الديمقراطية إلى اتجاهين: اللجنة المركزية وجماعة مصالي الحاج، وبينما كان مصالي يطالب بالسلطة المطلقة لتسيير الحزب، كانت اللجنة المركزية تدافع عن مبدأ القيادة الجماعية.
- مارس: ظهور اتجاه ثالث: اللجنة الثورية للوحدة والعمل المتكونة من بعض أعضاء اللجنة المركزية، وبعض قدماء المنظمة الخاصة، الهدف: عقد مؤتمر توحيدي يجمع كل اتجاهات الحزب.
- جوان: اجتماع(22) للجنة الثورية للوحدة والعمل، المتكونة من قدماء المنظمة الخاصة، وتعيين قيادة جماعية تضم ستة أعضاء يرأسهم بوضياف، هذا الاجتماع يقرر الانفصال بين اللجنة المركزية واللجنة الثورية للوحدة والعمل مع بقاء العلاقات قائمة بين الهيئتين
- 13 جويلية: انعقاد مؤتمر ببلجيكا (المصاليون).
- 13 أوت: انعقاد مؤتمر الجزائر(العاصمة) (أنصار اللجنة المركزية) المؤتمر يصادق على القانون الأساسي للحزب.
- أكتوبر: الأعضاء الستة للجنة الثورية للوحدة والعمل يحددون أول نوفمبر كتاريخ لإعلان الثورة. اللجنة المركزية تؤيد العمل المسلح وتهدف إلى تأجيل تاريخ الثورة من أجل تحضير واستعداد أحسن

- أول نوفمبر: ميلاد جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير، ونشر بيان أول نوفمبر 1954 الذي طالب بإقامة "الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة في إطار المبادئ الإسلامية".

قيام جنود جيش التحرير بالعمليات العسكرية الأولى في كامل التراب الوطني. الجيش الفرنسي يلقي بكل ثقله لقمع الشعب في الأوراس.

- ديسمبر: مصالي الحاج يؤسس "الحركة الوطنية الجزائرية".

◆ سنة 1955م

- 18 أفريل: إنعقاد المؤتمر الأفرو آسيوي بباندونغ (اندونيسيا).
- 20 أوت: عمل مسلح واسع النطاق قام به جيش التحرير الوطني في شمال قسنطينة.
- 30 أوت: إعلان حالة الطوارئ في كامل التراب الجزائري.
- أكتوبر: عمل مسلح بعمالة وهران قام به جيش التحرير الوطني.

◆ سنة 1956م

- فيفري: ميلاد الاتحاد العام للعمال الجزائريين (ا ع ع ج).
- 2 مارس: استقلال المغرب الأقصى.
- 12 مارس: المجلس الوطني الفرنسي بما فيه النواب الشيوعيون يصوت على منح السلطات الخاصة لغي موليه زعيم الحزب الاشتراكي (الفرع الفرنسي للمنظمة الدولية العمالية) هذه السلطات كانت موجهة لتعزيز الجيش الاستعماري في الجزائر.
- 20 مارس: استقلال تونس.
- 20 أوت: مؤتمر الصومام يعين المجلس الوطني للثورة الجزائرية، ولجنة التنسيق والتنفيذ كهيئتين لقيادة جبهة التحرير. المجلس الوطني للثورة، عبارة عن برلمان جبهة التحرير يمثل مختلف الاتجاهات الوطنية الإسلامية، بينما الحزب الشيوعي يستبعد من هذا المجلس.
- مؤتمر الصومام يقرر الشروع في هيكلة جيش التحرير عبر كامل التراب الجزائري، ويصادق على البرنامج السياسي لجبهة التحرير الوطني.

- 22 أكتوبر: الطيران الفرنسي يعترض سبيل طائرة "الزعماء الخمسة" ويجبرها على الهبوط في الجزائر وقد كان من بينهم أربعة من قادة جبهة التحرير الوطني كانوا في طريقهم من الرباط إلى تونس لحضور الندوة المغربية المشتركة التي من المفترض أن يشارك فيها كل من محمد الخامس، وبورقيبة وجبهة التحرير الوطني.
- 29 أكتوبر: اعتداء التحالف الثلاثي: فرنسا، انجليترا، واسرائيل على قناة السويس

❖ سنة 1957م

- 28 جانفي: إضراب الثمانية أيام الذي سبقته وتبعته عمليات عسكرية في العاصمة التي كانت تعاني من حكم رجال المظلات الفرنسيين.
- مارس/ماي: خروج لجنة التنسيق والتنفيذ من الجزائر.
- 20 أوت: المجلس الوطني للثورة الجزائرية المنعقد بالقاهرة يجري تعديلات على لجنة التنسيق والتنفيذ التي زيد عدد أعضائها من خمسة إلى أربعة عشرة، القادة الخمسة لجبهة التحرير الوطني المعتقلون يعينون أعضاء "شرفيون" فيها.

❖ سنة 1958م:

- 8 فيفري: الطيران الفرنسي يقصف ساقية سيدي يوسف (بتونس).
- 15 ماي: القادة العسكريون الفرنسيون بالجزائر يدعون الجنرال ديغول إلى تولي الحكم في فرنسا.
- 1 جوان: المجلس الوطني الفرنسي ينصب ديغول.
- 25 أوت: جبهة التحرير الوطني تقوم بعمل مسلح في فرنسا.
- 19 سبتمبر: لجنة التنسيق والتنفيذ تتخلى عن مكانها لصالح الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (فرحات عباس).

❖ سنة 1959م

- فيفري/ أفريل: الجيش الفرنسي يشن هجوما واسع النطاق في مناطق من وهران، والونشريس، والقبائل الكبرى والصغرى، وفي الحضنة. جيش التحرير الوطني بفير

استراتجيه حتى لا يتعرض للقمع.

- 16 سبتمبر: خطاب ديغول حول تقرير المصير.
- سبتمبر/ ديسمبر: أزمة خطيرة تقود الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إلى مأزق. الرئيس يدعو القادة العسكريين لإيجاد حل لهذا المشكل. عشرة عقداء من جيش التحرير الوطني يعقدون (اجتماع المائة يوم) الذي عين على إثره مجلس وطني جديد للثورة الجزائرية.
- ديسمبر: ديغول يعلن: أننا نصرف ألف مليار سنويا من أجل الحرب في الجزائر (ما يعادل في سنة 1986 ستة أضعاف المبلغ المذكور فرنك).

◆ سنة 1960م

- جانفي: المجلس الوطني للثورة الجزائرية المنعقد بطرابلس يوافق على مبدأ إنشاء قيادة أركان عامة لجيش التحرير، كما يغير تشكيلة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، تعيين فيما بعد هواري بومدين على رأس قيادة الأركان العامة.
- 29 جوان: فشل المحادثات الجزائرية الفرنسية بمولان.
- 10 ديسمبر: مظاهرات شعبية في عدة مدن كبرى بالجزائر.

◆ سنة 1961م:

- فيفري: المنظمة المسلحة السرية للمتطرفين الفرنسيين تتأسس رسميا بإسبانيا.
- 20 فيفري: لقاء جزائري - فرنسي بلوسيرن (سويسرا).
- 22 أفريل: فشل محاولة الانقلاب التي قام بها الجنرالات الفرنسيون بالجزائر العاصمة ضد ديغول.
- 20 ماي: مفاوضات إيفيان الأولى.
- 18 جويليه: الجيش الفرنسي يقمع التونسيين المتظاهرين من أجل جلاء الفرنسيين عن بنزرت (ألف قتيل).

- 27 أوت: المجلس الوطني للثورة الجزائرية يعين حكومة جديدة، برئاسة: بن يوسف بن خدة.
- 5 سبتمبر: ديغول يعترف بالصحراء كجزء لا يتجزأ من التراب الجزائري.
- 17 أكتوبر: الجزائريون يتظاهرون في باريس (مئات من القتلى).
- أكتوبر/نوفمبر: اللقاء الجزائري الفرنسي بيـال (سويسرا). تصاعد العمليات الإرهابية بالجزائر من طرف المنظمة المسلحة السرية.

❖ سنة 1962م

- 10 فيفري: لقاء لي روس.
- 22 فيفري: المجلس الوطني الجزائري يصادق على مشروع اتفاقيات ايفيان.
- 7 مارس: ايفيان الثانية - آخر لقاء جزائري - فرنسي والتوقيع على اتفاقيات ايفيان.
- 19 مارس: وقف إطلاق النار.
- أفريل/ماي: المنظمة السرية الفرنسية تحاول تكوين جو إرهابي.
- 1 جويلية: الاستفتاء على تقرير المصير، الشعب الجزائري يصوت بنعم للاستقلال.
- 3 جويلية: فرنسا تعترف بصفة رسمية باستقلال الجزائر [1].

1. هذا التسلسل الزمني للأحداث الهامة التي عرفتها الجزائر خلال ربع قرن من النضال والثورة مقتبس بتصرف عن كتاب: نهاية حرب التحرير في الجزائر. من تأليف: بن يوسف بن خدة. صادر عن ديوان المطبوعات الجامعية 1987م

أضواء ... وأصداء

◊ قصائد ثورية بخط شعرائها .

◊ صور أدباء الثورة .

◊ مقالات ... وذكريات .

قصائد ثورية بخط شعرائها

إقرأ كتابك...

نظمها الشاعر بقصر الزنزانة رقم ٧٥ ـ ٣ (سجن البرواقية) لمناسبة الذكرى الرابعة للثورة الجزائرية يوم فاتح نفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٨، وألقيت بالنيابة في إذاعة صوت العرب بالقاهرة

هذا (نفمبر) ... قم وحيّ المدفعا ... واذكر جهادك ...... والسنين الأربعا!

واقرأ كتابك، للأنام مفصّلا ... تقرأ به الدنيا الحديث الأروعا!

واصدع بثورتك الزمان وأهله ... واقرع بها دول الورى، و(المجمعا)

واعقد لحقك، في الملاحم ندوة ... يقف الزمان بها خطيبا مصقعا!

وقل: الجزائر ...!!! واصغ إن ذكر اسمها ... تجد الجبابر .... ساجدين وركعا!

إن الجزائر في الوجود رسالة ... الشعب حررها ... وربك وقعا!

إن الجزائر قطعة قدسية ... في الكون .. لحنها الرصاص ووقعا!

وقصيدة أزلية، أبياتها ... حمراء .. كان لها (نفمبر) مطلعا!

نظمت قوافيها الجماجم في الوغى ... وسقى النجيع رويها .. فتدفعا

غنى بها حر الضمير، فأيقظت ... شعبا الى التحرير شمر مسرعا

سمع الأصم دويها، فعنا لها ... ورأى بها الأعمى الطريق الأنصعا

ودرى الألى جهلوا الجزائر، أنها ... قالت: «أريد» !!! فصممت أن تلمعا

ودرى الألى جحدوا الجزائر، أنها ... ثارت ... وحكمت الدما... والمدفعا!

شقت طريق مصيرها بسلاحها ... وأبت بغير المنتهى أن تقنعا

شعب ... دعاه إلى الخلاص بناته ... فانصب منذ سمع النداء، وتطوعا

نادى به جبريل في سوق الفدا ... فشرى، وباع بنقدها، وتبرعا!

فلكم تصارع والزمان ... فلم نجد ... فيه الزمان ـ وقد توحد ـ مطمعا!

واستقبل الأحداث ... منها ساخرا ... كالشامخات ..... تمنعا، وترفعا..

وأراده المستعمرون، عناصرا ... فأبى ـ مع التاريخ ـ أن يتصدعا!

واستضعفوه ... فقرروا إذلاله ... فأبت كرامته له أن يخضعا

واستدرجوه .... فدبروا إدماجه ... فأبت عروبته له أن يبلعا!

وعن العقيدة ... زوروا تحريفه ... فأبى مع الإيمان ... أن يتزعزعا!

وتعمدوا قطع الطريق .. فلم ترد ... أنسابه بالعرب أن تتقطعا!

نسب بدنيا العرب .. زكى غرسه ... ألم ... فأورق دوحه، وتفرعا

سبب، بأوتار القلوب .. عروقه ... إن رن هذا ... رن ذاك ورجعا!

إما تنهد بالجزائر متوجع .. ... أسى الشآم جراحه، وتوجعا!

واهتز في أرض الكنانة خافق .. وأقض في أرض العراق المضجعا
وارتج في الخضراء لشعب ماجد لم تثنه أرزاؤه أن يفزعا
ولحوت مراكش حوله وتألمت لبنان، واشتغل حديش وتبعا
تلك العروبة .... إن تثر أغصانها وهز الزمان جبالها، وتضعضعا!
الضاد .. في الأجيال .. خلد مجدها والجرح وحد في هواها المنزعا
فتماسكت بالشرق وحدة أمة عربية، وجدت بمصر المرتعا

ولمصر ... دار للعروبة حرة تأوي الكرام ... وتسند المتطلعا ..
سحرت روائعها الخلائق عندما ألقى عصاه بها الكليم .. فروعا
وتحدت الهرم الرهيب مباهيا بجلالها الدنيا ... فأنطق يوشعا
والنيل سطر لوحها بيمينه وبنهرها ... سكب الجمال فأبدعا
النيل فتح للصديق ذراعه وللشعب فتح للشقيق الأضلعا!!
والجيش طهر بالقتال (قنا لها) والله أعمل في حشاها المبضعا!
والطور ... أبكى من تعود أن يرى في (حائط المبكى) يسيل الأدمعا
و(السد) سد على اللئام منافذا وأزاح عن وجه الذئاب البرقعا!
وتعلم (التاميز) عن أبنائها و(السين) درسا في السياسة مقنعا
وتعلم المستعمرون، حقيقة تبقى لمن جهل العروبة مرجعا
دنيا العروبة، لا ترجح جانبا في الكتلتين ... ولا تفضل موضعا!
للشرق، في هذا الوجود، رسالة علياء ... صدق وحيها .. فتجمعا!

يا مصر ... يا أخت الجزائر في الهوى لك في الجزائر حرمة لن تقطعا
هذي خواطر شاعر ... غنى بها في (الثورة الكبرى) فقال وأسمعا
وتشوقات ... من حبيبي، مولق ما انفك صبا بالكنانة، مولعا
خلصت قصائده ... فما عرف البكا يوما ... ولا ندب الحمى والمربعا
إن تدعه الأوطان ... كان لسانها أو تدعه الجلى ... أجاب وأسرعا
سمع الذبيح (ببربروس) فأيقظت صلواته شعر الخلود .. فلعلعا!
ورآه كبر للصلاة مهللا في مذبح الشهداء ... فقام مسمعا!
ورأى القنابل بالصواعق .. إن هوت تركت حصون ذوي المطامع بلقعا
ورأى الجزائر بعد طول عنائها سلكت بثورتها السبيل الأنفعا
وطن يعز على البقاء .. وما انقضى رغم البلاء .. عن البلى متمنعا!

لم يرض يوما بالوثاق ولم يزل ... متشامخا ... مهما النكال تنوعا
هذي الجبال الشامخات، شواهد ... ستحدث بمن مسح الحقائق وادعى
(سل جرجرا ...) تنبئك عن غضباتها ... وانسف (شليا) لحظة .(وشلعلعا)!
واخشع (بوارشنيس) إن ترابها ... ما انفك للجند (المعطر) مصرعا
كسرت (تلمسان) الطليعة ظلمه ... ورمى (بصبرة) صبره فتوزعا
ودعاة (مسعود) فأدبر عندما ... لاقاه (طارق) سافرا، ومقنعا
الله تجزر خلده، بربر مالنا ... وأقام عزرائيل ... تحمي المنبعا!!
تلك الجزائر ... تصنع استقلالها ... تحدت له مهج الضحايا ... مصنعا
طاشت بها الطرقات .. فاختضرت لها ... نهج للنايا للسيادة منبعا
واستنقصها المتزعمون!! فأصبحت ... شلوا ... بأنياب الذئاب ممزعا
وإذا السياسة لم تفوض أمرها ... للنار ... كانت خدعة وتصنعا!!
إني رأيت الكون يسجد خاشعا ... للحق ... والرشاش ... إن نطقا معا!!!

خبر ترنسا ... يا زمان ... بأننا ... هيهات في استقلالنا أن نخدعا!
واستفت يا ديغول شعبك .. إنه ... حكم الزمان ... فما عسى أن تصنعا!
شعب الجزائر قال في استفتائه ... لا ... لن أبيع من الجزائر إصبعا
واختار يوم (الإقتراع) (نوفمبرا) ... فمضى وصمم أن يثور ... ويقرعا!!

(جرجرا) سلسلة جبال شامخة ببلاد القبائل الكبرى من مجموعة الأطلس الجبال (شليا) أعلى جبل بسلسلة الأطلس الممتدة (على الأوراس) (شلعلع) جبل شاهق بأوراس، سجل فيه المجاهدون أنصع صفحات الجهاد، (وارشنيس) جبل بالجهة الغربية من سلسلة الأطلس. (صبرة) معتقل الأبطال، قرية قريبة من تلمسان على الحدود المغربية (مسعود) إشارة إلى (حاسي مسعود) أحدى منابع البترول بصحراء الجزائر - (طارق) إشارة إلى الطوارق الملثمين بصحراء الجزائر (الإستفتاء والإقتراع) إشارة إلى مناورة فرنسا عام ١٩٥٨ في تصفية الثورة الجزائرية بافتراح إجراء استفتاء على المواطنين هل يرغبون في مواصلة الثورة أم لا. وهل يريدون بقاء فرنسا أم لا. والجواب الصحيح هو للقارعة بالسلاح، لا الاقتراع بالأوراق والألواح، وقد قال الشعب الجزائري كلمته الفاصلة يوم غرة نوفمبر ١٩٥٤.

أغنية للرفاق

يارفاقي ، يارفاقي في الذرى ، في السجن ، في القبر
وفي آلام جوعي
فرهقه القيد برجلي يارفاقي ، حدّقوا .. فالنار
تجترّ ضلوعي
ياجنون الثورة الحمراء .. تجتر كياني وحضارات
ربوعي
أقسمت أمي بقيدي ، بجروحي ، سوف لا تمسح
من عيني دموعي
أقسمت أن تمسح الرشاش والمدفع والفأس
بأحقاد الجموع
أن أراها ضربة عذراء تغزو بسمة السفاح
في الحقل الخصيب
أقسمت أن ترضع النصر وأختي في ضفاف الموت
في عنف اللهيب

□ □ □

11

هذه أوراس، أحلام ثقال
في رؤى الجلاد، في ليل الجناة
أنت أوراس أنا.. من كياني
وأنا الإعصار في عيد الطغاة
يا صدى الثأر يسري في حنايا صخرتي نارا
تتنامى أمنياتي
أنا جبار ورعد وانفجار... أحمل الفجر بأيدي
داميات
وأحس الريح تغدو في ضلوعي، في دمائي
في حقولي في لهاتي
ورفاق كمنوا في ثنية الوادي وفي الشعب
وفي كوخ الرعاة
صوبوا المدفع للسجن وباتوا شهبا
تروي أحاسيس الحياة

محمد صالح باوية

1955

12

مقتطفات من قصيدة : دعاء الحق

كتبت سنة 1957

شعر : محمد بلقاسم خمار

بالحق يا جبهة التحرير نعتصم … وبالجنود التي غصّت بها القمم

سيري الى النصر واجتاحي عوائقه … فقد بدا لك كالمشتاق يبتسم

يا جبهة رفعت للمجد هامتها … كأنها بين طوفان العدا هرم

لا الحبس لا الغدر يثنيها اذا انطلقت … ولا الزمان، ولا التهديد والألم

قالت فرنسا، وما في القول من عجب … مان كان من خالد في مخّه ورم

بان الجزائر مذ كانت جزائرها..! … جزءاً لها من وراء البحر يلتحم!

فدمدمت ارضنا كالرعد تخبرها … ان الجزائر لا غرب ولا عجم

فلا لسان ولا دين يوحّدنا … ولا دماء ولا ارض ولا رحم

من العروبة من قحطان منبتنا … ويشهد الذود والإقدام والهمم

جاءتك ثورتنا تدوي مزمجرة … كالسيل فوق بطاح الضاد تزدحم

جاءتك، جاءتك.. لا بحر ولا جبل … يقيك منها، ولا حلف ولا خدم

لها من الحق انغام يرددها … ابناؤها... ولها من زحفها نغم

تلقاك في جبهة التحرير محتكماً … الى العدالة ان كانت لها قدم

وفي الجزائر في اوراس ملتهباً … شعاره : اننا للمجد نستقم

جيش يعززه شعب باجمعه … ارض تزلزل والهيجاء تحتدم

هناك تنبعث الآمال راقصة … ويبسم النصر خفاقاً له العلم

الجزائر 5/10/1974

31

أدباء الثورة



مفدي زكريا



محمد العيد خليفة



أحمد رضا حوحو



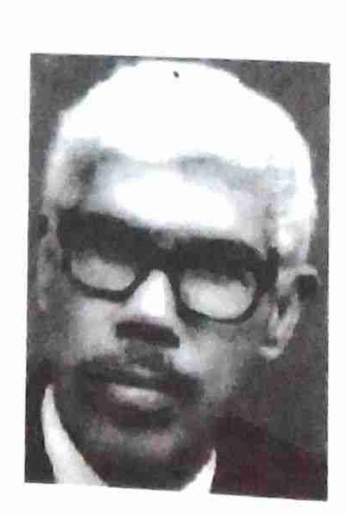
محمد الأمين العمودي



مولود فرعون



مالك حداد



محمد الأخضر السائحي

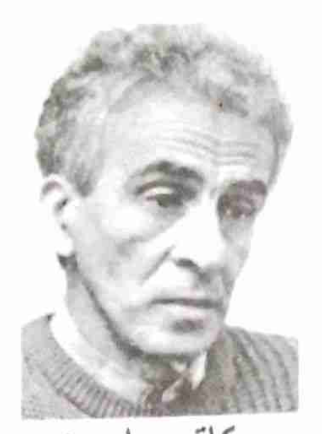


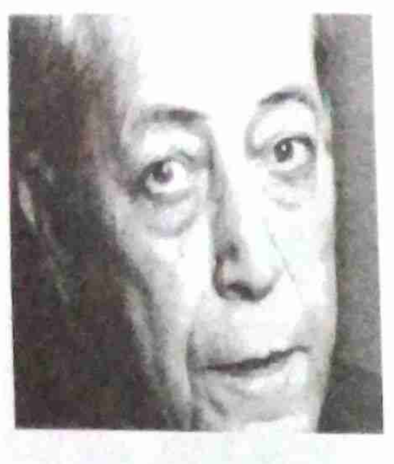
صالح خرفي

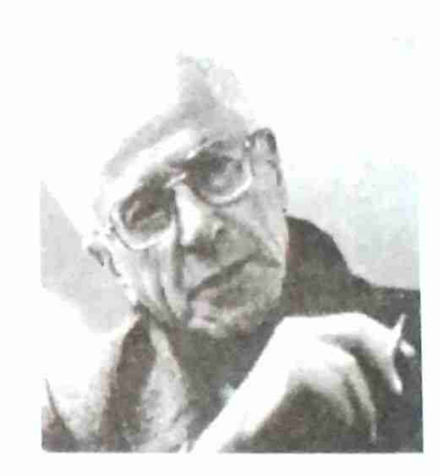


محمد الصالح باوية


مالك بن نبي

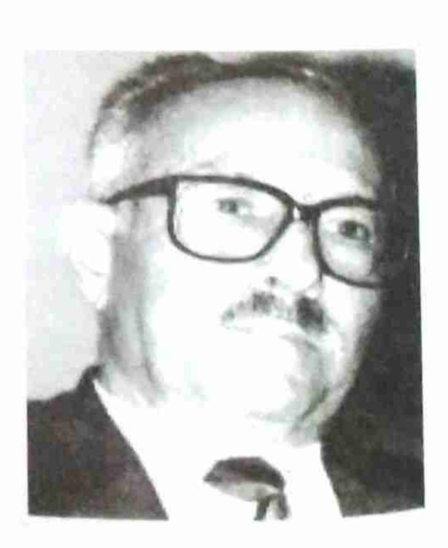

كاتب ياسين


محمد ديب


مولود معمري

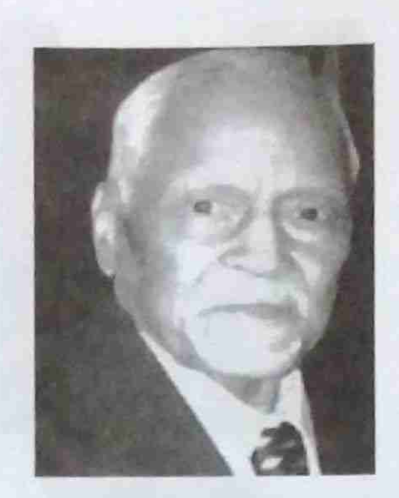

الطاهر وطار


عبد الحميد بن هدوقة

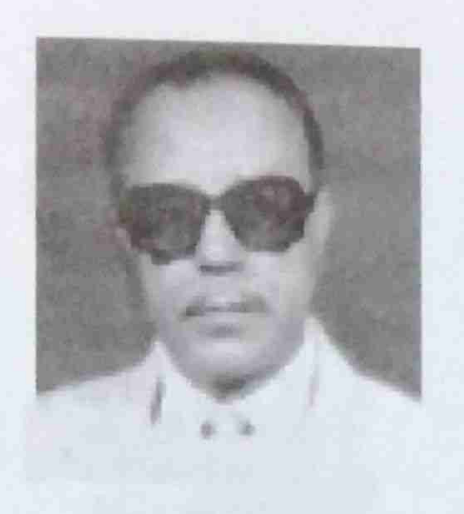

عبد الله ركيبي


عبد الله شريط

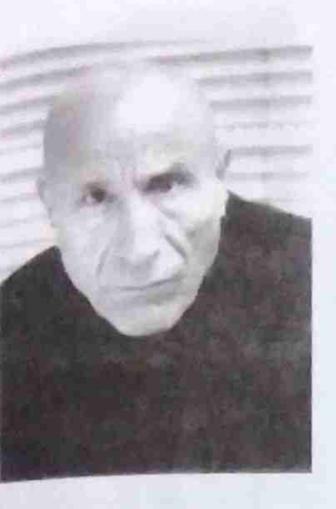

أبو العيد دودو



أبو القاسم سعد الله



محمد بلقاسم خمار



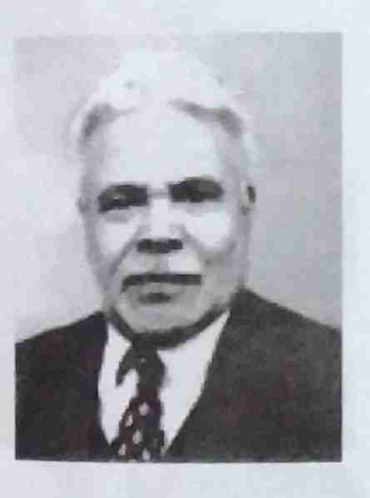
رشيد بوجدرة



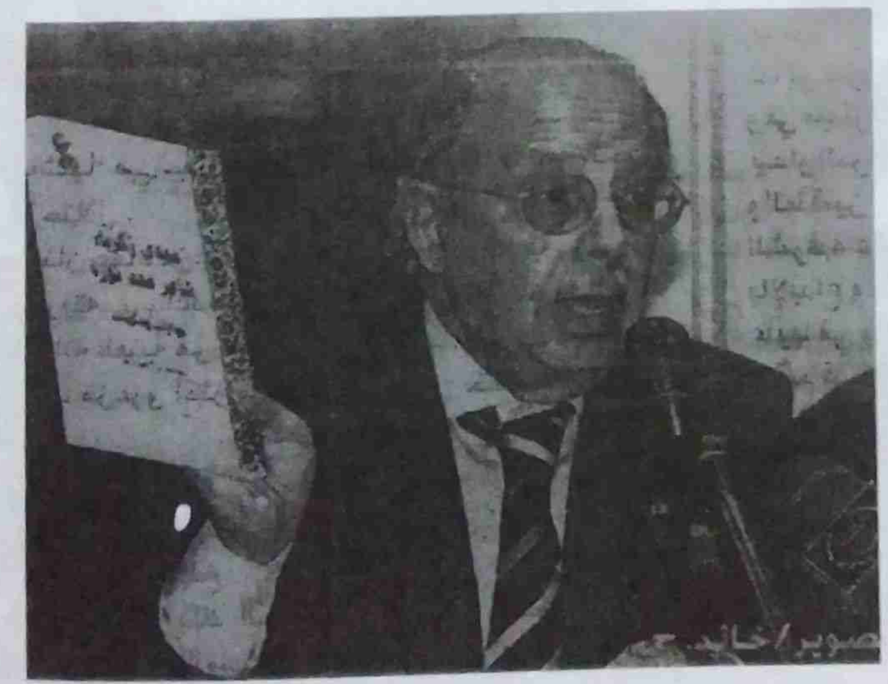
زهور ونيسي



آسيا جبار



محمد عبد القادر السائحي



الدكتور سليمان الشيخ يحمل بيمينه كتابا عن والده المرحوم مفدي زكريا

مقالات . . وذكريات



بقلم : ابو القاسم بن عبد الله

لعله من المفيد ان نشير ـ بادىء ذى بدء ـ الى ان الغرض من هذه الدراسة الخاصة بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لثورة اول نوفمبر الخالدة ، هو ان نلقى بعض الاضواء على جانب هام من شعرنا الجزائرى اثناء ثورتنا التحريرية ، ونعنى بذلك تجاوب هذا الشعر مع الثورة ، وتأثره بها ، وتأثيره فيها ..

فمن قلب هذه الثورة : ومن صميم جو الثورات التى سبقتها منذ عشرات الاعوام ، نشأ وترعرع هذا الشعر متبنيا قضية الجزائر بكل مداها وعمقها ، بجميع دلالاتها وابعادها ، فعاش تجربة الثورة متحسسا آلام وآمال الجماهير الشعبية الكادحة التى اوقدت لهيبها ، ورفعت مشعلها .. فصور ذلك كله بواقعية حية : واخلاص عميق مساهما فى خدمة قضية الوطن الكبرى .

فالشعراء الجزائريون ادركوا منذ البداية ، ان لهم رسالة مقدسة نحو وطنهم الغالى .. لقد كانوا مدعوين الى ان يسهموا بوسائلهم الخاصة : بالشعر الملتهب ، بالكلمة المناضلة فى معركة التحرير ، وان يسمعوا الملأ جميعا صوت الجزائر الكافحة مسايرين موكب الثورة المظفرة الى جانب اخوانهم الثائرين فى السهول والجبال ، فى القرى والمدن ضاربين بذلك اسمى مثال يحتذى فى موقف الشاعر والاديب من مناورة الاستعمار ومناهضة المستعمرين . ـ يقول الروائى الجزائرى الكبير محمد ديب ـ « ان كل قوى الخلق والابداع لكتابنا وفنانينا يوظفونها فى خدمة اخوانهم المظلومين تجعل من الثقافة سلاحا من اسلحة المعركة ولاسباب عديدة ، فانني باعتبارى كاتبا كان همى الاول ان اضم صوتى الى صوت المجموع منذ اول قصة كتبتها .. » وفى نفس هذا المعنى يشير الشاعر الجزائرى : مالك حداد فى مقدمة ديوانه « الشقاء فى خطر » مخاطبا صديقه الشاعر : « اربط قدميك بتراب الجزائر .. التصق به .. انتعله .. فقدماك قدما الجندى .. قدما الشاعر الجوال .. فقد وجدنا اخيرا تآلفهما .. » . وكان من جراء ذلك كله ان اضطهد المستعمر الادباء والشعراء وطاردهم وشردهم ونفاهم ولم يتورع عن قتلهم : وما استشهاد الادباء الجزائريين : احمد رضا حوحو والربيع بوشامة ومولود فرعون على يد القدر الاستعمارى الا صورة عن بشاعة الاضطهاد لرافعى شعلة النضال بالحرف النير والكلمة الملتهبة .

افتتاح مهرجان محمد العيد آل خليفة

مساهمة الشعر في التحرر والنهضة

بسكرة : بلقاسم بن عبد الله

عندما نذكر مدينة بسكرة يتبادر الى الذهن مباشرة اسم الشاعر محمد العيد آل خليفة يقترن الاسمان معا بالمهرجان الشعري السنوى الذي يقام حاليا بهذه المدينة الوديعة تحت شعار مساهمة الشعر في التحرر والنهضة العربية افتتح المهرجان الخامس مساء أمس الثلاثاء بقاعة سينما الاطلس بحضور مكتب التنسيق الولائي الى جانب عدد من الشعراء والكتاب وجمهور متواضع من مثقفي المدينة

في البداية رحب الاخ محمد سعيدي عضو اللجنة المركزية وأمين محافظة بسكرة بالمشاركين قبل أن ينطرق الى هذا التقليد الشعرى السنوى واهميته في مجال تغبيم حركتنا الادبية بوجه عام

وبعد أن تطرق الى اهمية الشعر في حضارة الامم اختتم كلمته بالاشارة الى آن هذا المهرجان هو تكريم للشاعر الكبير محمد العيد وبالتالي تكريم للشعر والادب في بلادنا

أما الدكتور محمد العربي الزبيرى الامين العام لاتحاد الكتاب والصحافيين والمترجمين فقد ركز في كلمته على اهمية الدور الذى يلعبه الشعراء والادباء والصحافيون تلبية احاجيات الفكرية والجمالية للمواطنين مشيرا الى مهمتهم في مواجهة الغزو الثقافي الاجنبى الذى يستهدفنا كحضارة وككيان وابرز مهمة الادب والفكر في مجالات البناء الوطنى متمنيا للمشاركين كامل التوفيق والنجاح

وعقب ذلك قام المشاركون بزيارة معرض للصور والرسوم انجزت من طرف رسامى مدينة بسكرة

وتواصلت اشغال المهرجان بامسية شعرية نشطها الشاعر أحمد حمدي وشارك فيها كل الشعراء محمد الشبوكي صاحب جزائرنا وأحمد معاش ومحمد الباشرية، ومشرى بن خليفة

وكان المشاركون قد توجهوا قبيل الافتتاح الرسمى الى مقبرة المدينة لوضع باقة من الزهور وقراءة الفاتحة امام ضريح الشاعر محمد العيد

86-3-19

فنون وعروض

نقرأ اليوم المواضيع التالية :

- حمدى بناني :

،، سر الكمانجة البيضاء ،،

- وردة الحر ثرية

،، ينبوع سخى يعود اليه بلبغ حمدى ،،

- لوحة وتعليق :

،، صورة مقلوبة ،،

ص 11

LITTERATURE

EMPREINTES... ET DÉDICACES

A quel point l'écrit peut-il résister face au défilement des mois et des années pour pouvoir garder toute sa saveur, son authenticité, son efficacité ? s'interroge Belkacem Benabdallah, journaliste et auteur qui vient de publier *«Empreintes et dédicaces, écrits dans la littérature et la critique»*. L'ouvrage est un ensemble de chroniques organisées en thèmes : auteurs et positions, traces critiques, dédicaces, etc. M. Benabdallah, qui traîne derrière lui plus de trente ans de métier (El Jomhouria, l'APS et la Radio nationale), continue de collaborer dans différents journaux nationaux et à produire à Radio Tlemcen son émission culturelle hebdomadaire *«Le club des intellectuels»*. Mais, le journaliste, auteur et producteur, est connu aussi par ses livres sur le poète Moufdi Zakaria, sur la littérature et la révolution, la brûlure de l'écriture, plaidoiries et poursuites, affaires littéraires et culturelles, feuilles d'un journaliste professionnel... Prolifique, Belkacem Benabdallah estime que le rôle d'un intellectuel, entre autres, est de poser des problèmes et de leur trouver des solutions.

Enfin, *«Empreintes et...dédicaces»* se lit avec délice. Un livre qui contribue grandement à la richesse de la langue arabe.

C. B.

EL WATAN 17.02.2009

المصادر والمراجع

أثناء كتابة هذه المقالات والدراسات عن الأدب الجزائري ومسيرة الثورة كان ولابد من الاعتماد على الدواوين المطبوعة، والعودة إلى الكتب المهتمة بجوانب الموضوع، وقد أشرنا إليها في حينها، إلى جانب الرجوع إلى بعض النشريات والدوريات المختلفة، فتكونت لدينا مكتبة خاصة بهذا الشأن يمكن الاستناد إليها، للمزيد من الإطلاع ومواصلة البحث. ولذلك رأينا أن نثبت هنا أبرز عناوين المصادر والمراجع حسب أهمية اعتمادها وارتباطها بموضوع الكتاب، تعميما للفائدة.

1. الدواوين :

- مفدي زكريا: اللهب المقدس، المكتب التجاري، بيروت 1961.
- تحت ظلال الزيتون، دار النشر تونس 1965.
- إليادة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1987.
- محمد العيد آل خليفة :ديوان محمد العيد، م.ب.ق 1967.
- أبو القاسم سعد الله: النصر للجزائر، دار الهنا للطباعة، القاهرة 1956.
- ثائر وحب، دار الآداب بيروت 1967.
- الزمن الأخضر، م.و للكتاب، الجزائر 1985.
- صالح خرفي :أطلس المعجزات، ش.و.ن.ت الجزائر 1967.
- محمد صالح باوية: أغنيات نضالية، ش.و.ن.ت الجزائر 1971.
- محمد الأخضر السائحي :همسات وصرخات المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر 1965.
- صالح خباشة :الروابي الحمر، ش.و.ن.ت. الجزائر 1970.
- د. محمد أبو القاسم خمار :أوراق ش.ن.ت. الجزائر 1967.
- ظلال وأصداء ش.و.ن.ت. الجزائر 1970.

- إرهاصات سرابية م وك. الجزائر 1986.
- محمد الأخضر عبد القادر السائحي : الكهوف المضيئة ش ون ت الجزائر 1971.
- ألحان من قلبي ش ون ت الجزائر 1971
- أحمد سحنون: ديوان سحنون ش و. ن. ت. الجزائر 1977.
- مالك حداد: الشقاء في خطر (ترجمة مالك أبيض العيسى) مكتبة الشرق، حلب 1961 م
- أحمد عروة: ذكرى وبشرى، مكتبة الحياة، بيروت 1964م
- عبد الله شريط: الرماد، ش.و.ن. ت الجزائر 1969م
- أحمد الطيب معاش: التراويح وأغاني الخيام م.و.ك 1986م
- عبد السلام الحبيب الجزائري: أذكريني يا جزائر.م.و.ك 1986م
- صالح مؤيد: الثورة في الأدب الجزائري (منتخبات) الشركة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1963.

2. الكتب:

- د. عبد الله ركيبي :دراسات في الشعر الجزائري الحديث الدار القومية القاهرة 1962.
- الأوراس في الشعر العربي المعاصر، ش.و.ن ت. 1972.
- الشعر الديني الجزائري الحديث ش.و.ن ت 1981.
- د. صالح خرفي :شعر المقاومة الجزائرية، ش.و.ن ت 1979.
- الشعر الجزائري الحديث م وك. الجزائر 1984.
- د. أبو القاسم سعد الله :دراسات في الأدب الجزائري الحديث .دار الآداب بيروت 1966.
- محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث، دار المعارف، مصر 1975، ط2.
- الحركة الوطنية الجزائرية دار الآداب بيروت 1969.
- د. محمد مصايف :فصول في النقد الأدبي الجزائري ش.و.ن ت. الجزائر 1972.
- دراسات في النقد والأدب ش ون ت الجزائر 1981.
- د. محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث دار الغرب الإسلامي بيروت 1985.

- مفدي زكريا شاعر النضال والثورة. المطبعة العربية، غرداية 1984.
- د. عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر ش و.ن ت 1971.
- المعجم الموسوعي لمصطلحات الثورة الجزائرية. د. م ج. 1983.
- فنون النثر الأدبي في الجزائر. المطبوعات الجامعية. الجزائر 1983
- د. نور سلمان: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين بيروت 1981.
- د. أبو العيد دودو: كتب وشخصيات ش و ن ت الجزائر 1971.
- الجنيدي خليفة: من وحي الثورة الجزائرية. دار الثقافة. بيروت 1963.
- بلقاسم بن عبد الله: شاعر مجد ثورة. م و. ك الجزائر 1989.
- دراسات في الأدب والثورة. م ا. ك د ج 2001
- حرقة الكتابة. منشورات وزارة الثقافة. 2005.
- يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا. م ب ق 1987.
- محمد الأخضر عبد القادر السائحي: نوفمبر الصوت والصدى. منشورات وزارة الثقافة. الجزائر 1984.
- د. أحمد حمدي: الثورة الجزائرية والإعلام د. م ج 1990.
- عثمان سعدي: الثورة الجزائرية في الشعر العراقي م و. ك، 1985.
- أنيسة بركات درار: أدب النضال في الجزائر، م و. ك 1984.
- نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة م و ك، 1985.
- محمود بوعياد: حرب التحرير في الأدب والسمعيات البصريات. م و. ك 1984.
- د. التلي بن الشيخ: دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة، ش و. ن ت 1983.
- العربي دحو: الشعر الشعبي ودوره في الثورة. م و. ك 1989.
- جلول يلس أمقران الحفناوي: المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون ش و. ن ت الجزائر 1975.
- الفضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة. طبع في بيروت 1963.

- عبد الرحمن بلعقون: من رواء القضبان، ش.و.ن.ت 1973 .
- الكفاح القومي والسياسي م.و.ك الجزائر 84 (في جزأين)
- محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري ش.و.ن.ت 1970.
- أبو القاسم محمد كرو: صوت الجزائر، كتاب البعث، تونس 1956.
- محمد الصالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين في تونس، الدار العربية للكتاب، تونس 1983.
- أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين م.و.ك الجزائر 1985.
- حزب الشعب الجزائري م.و.ك الجزائر 1986.
- محمد قنانش محفوظ قداش: حزب الشعب الجزائري د.م.ج 1986
- محمد العربي الزبيري: الثورة الجزائرية في عامها الأول م.و.ك الجزائر 1984.
- د.عمار هلال: نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر. لافوميك. الجزائر 1986.
- أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر. د.م.ج. 1995.
- يوسف بن خده: نهاية حرب التحرير في الجزائر، اتفاقيات إيفيان (تعريب، زغدار جبالي) المطبوعات الجماعية، الجزائر 1987.
- د.يحي بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20، دار البعث قسنطينة 1980 .
- الإيديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية، د.م.ج. 1986.
- عبد الله شريط. محمد الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ، مكتبة البعث قسنطينة 1965.
- د.عمر بن قينة: صوت الجزائر في الفكر العربي د.م.ج. 1993.
- في الأدب الجزائري المعاصر. د.م.ج. 1995.
- د.أحمد بن نعمان: الجهاد وثورة الإستقلال م.ب.ق. 1982.
- أبو جرة سلطاني: أحفاد محمد (ص). م.ب.ق. 1982.
- الطاهر يحياوي. محمد توامي: شعراء وملامح، مطبعة أومزيان، الجزائر 1984.

- د. عبد جاسم الساعدي: الشعر الوطني الجزائري بين حركة الإصلاح والثورة. منشورات الجاحظية 2002.
- محمد منيع: فضائح الإستعمار في الجزائر. دار الكتاب (البليدة). 1963.
- محمد بن بلقاسم محبوب: المنظار. مطبعة البعث. 1981.
- محمد الطيب العلوي: مظاهر المقاومة الجزائرية. م ب ق 1985.
- مولود قاسم نايت بلقاسم: بعض مآثر فاتح نوفمبر. م ب ق 1983.
- شلتاغ عبود شراد: حركة الشعر الحر في الجزائر. م و ك 1985.
- شريبط أحمد شريبط: مباحث في الأدب الجزائري المعاصر. منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين 2001.
- عمر بو قرورة: دراسات في الشعر الجزائري م ا. ك ج 2004.
- د. ابراهيم رماني: المدينة في الشعر الجزائري وزارة الثقافة. 2002.
- د. حسين أبو النجا: الإيقاع في الشعر الجزائري م ا. ك ج 2003.
- محمد عباس: ثوار - عظماء. مطبعة دحلب 1991.
- محمد الصالح الصديق: عميروش (دار لبنان 1964).
- رحلة في أعماق الثورة: دار هومة 2002.
- بوالطمين جودي الأخضر: لمحات من ثورة الجزائر. م و ك 1987.
- محمد الميلي: فرانز فانون والثورة الجزائرية. ش و ن ت 1973.
- مصطفى الأشرف: الجزائر: الأمة والمجتمع م و ك 1983.
- أحمد طالب الإبراهيمي: رسائل من السجن (تعريب الصادق مازيغ). الدار التونسية للنشر 1983.
- محمد حربي: الثورة الجزائرية: سنوات المخاض (مترجم). دار موفم للنشر. 1994.
- د. عبد القادر جغلول: الإستعمار والصراعات الثقافية (مترجم) دار الحداثة بيروت 1984.
- سعاد محمد خضر: الأدب الجزائري المعاصر. المكتبة العصرية صيدا 1967.

- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض، بيروت 1980.
- بسام العسلي : جهاد شعب الجزائر، دار النفاس، بيروت 1984.
- د مصطفى طلاس بسام العسلي : الثورة الجزائرية، دار الشوري بيروت 1982.
- د. غالي شكري : أدب المقاومة، دار المعارف مصر 1970.
- حنا مينه نجاح العطار : أدب الحرب وزارة الثقافة، دمشق 1976.
- د. شوقي ضيف : البطولة في الشعر العربي دار المعارف مصر 1970.
- نزيه أبونضال : جدل الشعر والثورة، المؤسسة العربية للدراسات بيروت 1979.
- عبد الله سالم مليطان: الثورة الجزائرية في الشعر الليبي. م ا. ك د ج. 2004.
- شارل روبير أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة (تعريب عيسى عصفور، المطبوعات الجامعية الجزائر 1982.
- الجنرال أوساريس: شهادتي حول التعذيب دار المعرفة. الجزائر 2004. (مترجم).

3. المنشورات و الدوريات :

- النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني (54- 62) وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر 1979.
- ثورة نوفمبر الخالدة (السلسلة التاريخية)، منشورات المحافظة السياسية للجيش الوطني الشعبي 1971.
- الثورة الجزائرية وقائع وأبعاد، وزارة الإعلام والثقافة 1984 .
- كيف تحررت الجزائر، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر 1979.
- الأدب الجزائري المعاصر، وثيقة رقم 11، المركز الجزائري للإعلام والثقافة، بيروت 1975.
- مجلة آمال، عدد خاص عن الشعر الجزائري المعاصر وزارة الثقافة. الجزائر 1984.
- مجلة الثقافة، أعداد متفرقة، وزارة الإعلام والثقافة، (جويلية 1972. نوفمبر 1998).
- المصادر: مجلة فصيلة. تصدرها وزارة المجاهدين (سنوات 2000 2003).
- مجلة المجاهد الأسبوعية، اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني، إعداد نوفمبر من كل عام (1970- 1987).

- جريدة الشعب اليومية، إعداد أول نوفمبر لسنوات (1970- 1987).
- الشعب الثقافي (نصف شهري) جوان-جويلية، أوت 1972.
- ملحق النادي الأدبي لجريدة الجمهورية، أعداد نوفمبر من كل عام (1978- 1987).
- مجلة الوحدة الأسبوعية، أعداد نوفمبر من كل عام (1981- 1987)
- مجلة الجيش الشهرية، أعداد نوفمبر من كل عام (1971- 1978).
- مجلة أول نوفمبر الدورية، أعداد متفرقة (1983- 1987).

◆ إحالات:

- ش.و.ن.ت: رمز الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- م.و.ك: رمز للمؤسسة الوطنية للكتاب.
- د.م.ج: ديوان المطبوعات الجامعية.
- م.ب.ق: مطبعة البعث بقسنطينة.
- م.ا.ك.ج: منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين.

كلمات... ودلالات

الأستاذ بلقاسم بن عبد الله أديب صحفي عرف عبر صفحات مجلة الجيش يتناول الثقافة عموما ويتابع حياة الأدب، ثم برز في ملحق جريدة الجمهورية المعروف بالنادي الأدبي، فجعل منه منبرا لقضايا الثقافة في بلاده وفي الوطن العربي، وظهرت على أعمدته آراء وأفكار قلما ظهرت في غيره، وأصبح مجتلي الأدباء والشعراء والفنانين في الوقت الذي كانت تغيب فيه المجلات والملاحق الثقافية

د. أبو القاسم سعد الله

كان الوقع في نفسي بليغا وعميقا، بعد أن قرأت الأحاديث والمقالات التي كتبها الصديق بلقاسم بن عبد الله بملحق النادي الأدبي لجريدة الجمهورية. فقد جاءت في ظرفها المناسب، لتساهم بقسطها الوافر في رد الاعتبار لوالدي المرحوم مفدي زكريا شاعر النضال والثورة. كانت تلك الكتابات بمثابة بريق أمل في سماء حالكة، ودوي قوي وسط صمت رهيب، ساد منذ أمد طويل.

د. سليمان الشيخ

فقد استطاع أديب صحفي يملك الشجاعة أن يقول كلمة الحق وأن يحلل باللمحة الذكية، ما لم يقدر على البوح به أغلب الدارسين جبنا أو نفاقا. والواقع أن هذا الموقف من بلقاسم بن عبد الله تجاه شاعر الثورة المظلوم ليس جديدا، فقد كان الوحيد الذي خرق جدار الصمت في مقالة كتبها بعد استجواب الشاعر في سنة 1972 في وقت كان الصحفيون يتهيبون فيه الاقتراب من مفدي زكريا والتحدث إليه.

د. محمد ناصر

كان بلقاسم بن عبد الله ناقدا وباحثا. على إحساس صحفي عميق بقيمة الصراع الفكري، كان النادي الأدبي ساحة شفافة للإبداع. كان مؤمنا بالثقافة الفاعلة في الجزائر المعاصرة، وكان أن تألقت على كتفيه أسماء أدبية وفكرية كثيرة. ونالت أسماء وأسماء هدايا وأوسمة قدمت في حقها دراسات نقدية. كل ذلك على صفحات النادي الأدبي.

د. علي ملاحي

وأي كلام يكفي حق كاتب يعتبر الشجرة التي أنجبت مشتلة من الأدباء والصحفيين في الغرب الجزائري.الجلوس إلى مؤلفات بلقاسم بن عبد الله لايختلف عن الجلوس معه، فكتاباته من بنات أفكاره، نلمس في صحبتهما الراحة، وفي لغتهما الواحدة دفء الكلمات، ورقة المعاني وانسياب العبارات .

أ . رابح خدوسي

الكاتب الصحفي بلقاسم بن عبد الله لا يتوانى في عمله؛ عن التعبير بلباقة ورزانة عن آرائه وأفكاره، وقد عهدت ذلك فيه منذ تعارفنا في رحاب جامعة الجزائر سنة 1969. وفي هذه الفترة بادر بإعداد برنامج أدبي تحت عنوان "دنيا الأدب" لقي نجاحا كبيرا لدى مستمعي الإذاعة الجزائرية، باعتباره سياحة أسبوعية في عالم الكتب والثقافة.

د . أحمد حمدي

تولى الأستاذ بلقاسم بن عبد الله الإشراف على النادي الأدبي ومتابعته، رغم مهامه ونشاطاته المتعددة، ليولي هذا العمل ما يستحقه من تضحية ونضال، يضع الإنتاجات الواردة تحت مجهر النقد، حتى يقف في وجه تسلل المحاولات اليائسة التي لا تخدم حركتنا الأدبية.

أ . أم سهام ـ عمارية بلال

يطرح الأديب الصحفي بلقاسم بن عبد الله في مقالاته تساؤلات تشغل الرأي العام الأدبي، كما يكشف بعض ما خفي من أسرار عالم الأدب والثقافة، لكي يستثير اهتمام قارئه، ويستقطب تأملاته، كي يحرك المياه الساكنة والراكدة، بالتفكير ومحاولة الوصول إلى حلول للمشكلات الثقافية التي تقف حجر عثرة في طريق التطور.

د .حسن فتح الباب

الكاتب الصحفي بلقاسم بن عبد الله المعروف بمساهماته ونشاطاته العديدة، يمثل قطبا محوريا، ومعطفا كمعطف غوغول، خرج من تحته جيل من الأدباء، لما لتجربته الرائدة في احتضان الأقلام المتميزة، ولما لنضاله الدؤوب في سبيل الثقافة والأدب، ولاشيء غير الأدب والثقافة

د .عمار يزلي

على صفحات النادي الأدبي خدمنا جميعا في جزيرة الإبداع، على مدى أزيد من ربع قرن، لم أعرف مثقفا إعلاميا مسكونا بالأدب مثل الكاتب الصحفي: بلقاسم بن عبد الله. كثيرا مايقوم بأعمال صغيرة أو هكذا تبدو، وفي رمشة عين، يحولها كالساحر إلى كبيرة وعظيمة، تستأثر باهتمام جميع المشتغلين في ورشة الأدب والثقافة.

د. أمين الزاوي

يعد الأديب الباحث: بلقاسم بن عبد الله السند الأول للحجة الأدبية بالغرب الجزائري، ولاينكر عليه هذه الخصلة الجليلة إلا جحود نكود. وفضيلة الأستاذ بن عبد الله في إعادة الإعتبار للشاعر مفدي زكريا لا تعادلها أية فضيلة، إذ يرجع الفضل إليه في إقدام المؤسسات الرسمية للتكفير عن جرم بليغ ارتكبته في حق شاعرنا.

د. شريبط أحمد شريبط

علق إسم أستاذنا بلقاسم بن عبد الله بجدار ذاكرتي، واتخذ له مكانا مرموقا، كنت حينها قد تجاوزت العقد الأول بخمس سنوات، وكانت الولادة المبكرة للحرف بداخلي، جعلتني مولعة باقتناص كل درب يوصلني إلى بحر الكتابة، وحصة دنيا الأدب الإذاعية من ألمع هذه الدروب التي أسعدني أن أبحر فيها، إلى فضاء الكلمة ووجع الكتابة.

أ. زكية علال

الأستاذ: بلقاسم بن عبد الله من الأقلام الإعلامية الرائدة التي اتبعت خطوات الشاعر مفدي زكريا منذ شبابه، فراح يجمع عنه الأخبار والدراسات ويلتقي به في كل مرة يزور موطنه الأثير، فيجرى معه اللقاءات الصحفية المبرزة لمواقفه ومشاعره وابداعاته.

أ. عياش يحياوي

حرقة الكتابة إضافة نوعية متميزة للمكتبة الجزائرية، وفيه يقف القارئ على أسلوب الكاتب بلقاسم بن عبد الله إعلاميا وأديبا، فهو يعرف كيف يختار موضوعاته وكيف يتناولها ببساطة وعمق، بالتلميح أوبالتصريح، بواسطة كلمات صادقة يعيش على الورق.

أ. ج. علاوة وهبي

يكفي لملحق النادي الأدبي الذي كان يشرف عليه الأديب النشيط بلقاسم بن عبد الله أن يفتح ملفات مهمة أعادت الإعتبار للعديد من الأسماء التي كانت محاصرة ، مثل مفدي زكريا ومحمد العيد. أين نحن من كل ذلك الثراء؟ خاصة في زمن التعددية السياسية والإعلامية.

يكفي لملحق النادي الأدبي الذي كان يشرف عليه الأديب النشيط بلقاسم بن عبد الله أن يفتح ملفات مهمة أعادت الإعتبار للعديد من الأسماء التي كانت محاصرة، مثل مفدي زكريا ومحمد العيد. أين نحن من كل ذلك الثراء؟ خاصة في زمن التعددية السياسية والإعلامية.

أ. احميدة عياشي

ساهم الكاتب الصحفي بلقاسم بن عبد الله من خلال النادي الأدبي بشكل رائع في تلميع مرآة الثقافة الوطنية، بإبراز المواهب الأدبية، كما عمل على توضيح عدة حقائق بواسطة تخصيص ملفات حول المسرح والرواية والقصة والنقد وغيرها من الأجناس الأدبية والقضايا الهامة.

أ. عبد الحميد شكيل

المؤلف في سطور

بلقاسم بن عبد الله... مسيرة أدبية وإعلامية

- يواصل كتاباته و نشاطاته الإعلامية والثقافية منذ 1975.
- مقالاته منشورة بعدة صحف وطنية ومجلات عربية .
- تجربة متميزة بوكالة الأنباء APS طوال تسع سنوات.
- يكتب باستمرار منذ 2005 في جرائد: الجمهورية ،الخبر، الأحرار، الجزائر نيوز.
- ينشر كتاباته حاليا بمجلتي الجوهرة والفرسان، و بموقعي: أصوات الشمال وديوان العرب.
- أشرف على إعداد ملحق النادي الأدبي بجريدة الجمهورية عشر سنوات. وعلى ركن عالم الثقافة بمجلة الجيش ثلاث سنوات.
- من أوائل المؤسسين لإذاعة تلمسان الجهوية (سبتمبر 1992- سبتمبر 2006).
- منتج برامج إذاعية ثقافية وإعلامية لأكثر من عشرين سنة ، من أبرزها: دنيا الأدب ، كاتب وكتاب ، نادي الإبداع ، حوار ومؤانسة ، ولايتنا المجاورة ، نادي المثقفين .
- توج بوسام تكريم مع ميدالية تقدير من الإذاعة الوطنية (28 أكتوبر 2006).
- منتخب بالمجلس الشعبي لبلدية وهران (1979- 1984).
- رئيس المكتب الجهوي لإتحاد الكتاب والصحافيين والمترجمين(1985- 1989).
- منتخب بالمجلس الوطني لاتحاد الكتاب الجزائريين (مؤتمر ديسمبر 2001).
- عضو المجلس الوطني لمؤسسة مفدي زكريا (أكتوبر 2001).
- أمين ولائي باتحاد الإطارات الجزائرية (2003 - 2006).

- منتخب بالمجلس الوطني لجمعية الجاحظية (مؤتمر جوان 2011).
- يساهم بمداخلاته في عدة ملتقيات ثقافية داخل وخارج الوطن.
- نال عدة جوائز وشهادات تقديرية على المستوى الوطني، كما تحصل على شهادة تكريم موقعة باسم رئيس الجمهورية.

◆ مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة:

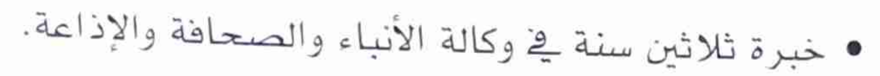
- كتاب عن الشاعر مفدي زكريا (طبعتان) مع الترجمة.
- كتاب عن الأدب والثورة (نال جائزة وزارة الثقافة 1995).
- حرقة الكتابة: تأملات وانطباعات (جوان 2005).
- بصمات وتوقيعات: كتابات في الأدب والنقد (2007).
- مرافعات ومتابعات: قضايا أدبية وثقافية (2013).
- فرسان تلمسان: في دنيا الأدب والفكر(قيد التأليف)
- أوراق صحفي محترف: تجربة ثلاثين سنة صحافة (مخطوط).

◆ البريد الالكتروني للمؤلف: radiojour2001@yahoo.fr

فهرس الكتاب

تم طبع هذا الكتاب
بمطبعة بريز مارين
برج البحري الجزائر
الهاتف : 18 10 11 0771
E-mail : imprimeriebrisemarine@hotmail.fr

بلقاسم بن عبد الله   الأدب الجزائري وملحمة الثورة



- خبرة ثلاثين سنة في وكالة الأنباء والصحافة والإذاعة.
- مقالاته منشورة بعدة صحف وطنية ومجلات عربية.
- تجربة متميزة بوكالة الأنباء APS طوال تسع سنوات.
- يكتب حاليا في يومية الخبر وملحق جريدة الجمهورية.
- ينشر كتاباته بموقعي: أصوات الشمال وديوان العرب.
- منتج برامج إذاعية لأكثر من عشرين سنة.
- أشرف على إعداد ملحق النادي الأدبي بجريدة الجمهورية لمدة عشر سنوات.
- منتخب بالمجلس الوطني لاتحاد الكتاب الجزائريين (ديسمبر 2001).
- يساهم بمداخلاته في عدة ملتقيات إعلامية وثقافية داخل وخارج الوطن.
- نال عدة جوائز وشهادات تقديرية على المستوى الوطني، كما تحصل على شهادة تكريم موقعة باسم رئيس الجمهورية.

مؤلفاته:

- كتاب عن الشاعر مفدي زكريا (طبعتان) مع الترجمة.
- كتاب عن الأدب والثورة (2001).
- حرقة الكتابة (2005).
- بصمات وتوقيعات (2007).
- مرافعات ومتابعات (2013).
- مؤانسة أدبهن: عن الأدب والمرأة في الجزائر (قيد التأليف).
- أوراق صحفي محترف: تجربة ثلاثين سنة صحافة (مخطوط).

radiojour2001@yahoo.fr



صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
بمناسبة الاحتفال بالذكرى الـ 50 لاستقلال الجزائر 2012

الإيداع القانوني : 2705 -2013
ردمك : 978-9931-357-07-0